يحيى صفوت

رواية

دار العين للنشر

ما أخفاه الرماد

"وكان من دواعي سروري أن أحترق"

الجزء الأول

1988

الفصل الأول

كان يوم معرفتي بـ (مراد)...

هو اليوم الذي حاول فيه أن يجعل كلبه يلتهم طفلًا صغيرًا.

بدء زوال الخوف هو وقت ظهور الحقيقة، اللحظة التي تنقشع فيها الغمامة وترى فيها الأشياء مجردة من تزييف الزمن وخداع العقل. ثم تمرّ سنوات - وربما عقود - على حدثٍ ما لتختفي منه تفاصيل وتظهر أخرى، تتشكل الذكرى وتتحرر من قيودها كأن لها إرادةً خاصةً بها. وحين يتعلق الأمر بمفترق الطرق الذي غيّر حياتك وحياة كل من حولك، تصبح الذكرى نفسها هي سيدة الموقف. وها قد بلغت عقدي السادس من حياةٍ مثيرةٍ للجدل، حققت فيها ما لا يحلم به الآخرون، لكنني أعترف بلا أدنى تردد أنني ما زلت عبدًا لها، أسيرًا لتلك اللحظة التي جعلت مني من أنا.

والآن جاءتني الفرصة كي أتذكّر، الفرصة التي لم ولن تتكرر. فأنا في هذه اللحظة، في نفس الموقف، في نفس المكان، ومع نفس الأشخاص. وجوه أذكر بعضها وقد خط الزمن عليها وأسهب، وأخرى لا تزال يافعة تنضح بالفضول، فمن سمع ليس كمَنْ رأى. ينظرون إليّ، كما فعلوا منذ أكثر من ثلاثين عامًا، في مشهدٍ قاتمٍ صامتٍ لا يتحرك فيه إلا النسيم البارد ولا تسمع فيه إلا الأنفاس المبهورة. يقفون في الشرفات والنوافذ وعلى قارعات الطرق، مشدوهين كمن ضربتهم الصاعقة، ينتظرون مني أن أنطق وأفسّر لهم ما لا يعيه عقل ولا يقبله منطق.

لكن يجب أن أحاول؛ كي لا أفقد أقرب الناس إليّ وقبل أن تنقلب الدنيا كلها ضدي وأخسر كل شيء، يجب أن أغلق عينيّ بقوة وأعتصر ذاكرتي وأعود لخريف 1988، حين قابلته أول مرة.

(1)

كنت في العشرين من عمري، ومثل كل من عانى ليتحرر من شباك المراهقة وأحاجي الشباب، كنت من الحالمين. وأنا لا أقصد من يتوهون بين نغمات الموسيقى أو يهيمون فوق صفحات الموج، بل أعني من ينظرون إلى النجوم في خيلاء ظانين أن بمقدورهم مد أيديهم والتقاطها في أي وقتٍ شاءوا. لكننا لا نفعل ذلك قط. ربما كان ذلك لوجود عقبة أقوى منا أو ثحدٍ نهابه أو حتى جرح غائر يشوّه أرواحنا ونخشى مجرد النظر إليه، لكننا لا نجد فارقًا كبيرًا بين الحلم والحقيقة. يكفينا هذا الشعور الداخلي بالغلوّ والتميّز كي نتوّج أنفسنا ملوكًا على ممالكنا الضئيلة. نمضي بعدها في حياتنا دون خوض المعركة الضرورية لنجعل حُلمنا هذا حقيقة... أو نفنى دونه.

ثم تأتي لحظة، قد تبدو عاديةً للغاية، لحظة يقع فيها الستار لتظهر الحقيقة الموجعة. تكتشف حينها أن مخزونك من التسامح قد نَفِدَ وأنك قد حوصرت في الركن، بين القرار أن تصبح وحشًا أو أن تنتظر حتى تأكلك الوحوش.

بالنسبة إلى شابٍ في مقتبل عمره، كان لديّ من المقوّمات ما كان يمكنه أن يساعدني في تحقيق كل أحلامي. كنت ممن أنعم الله عليهم بحُسْنِ المظهر، على الأقل هذا ما كانت أمي - رحمها الله - تحاول إقناعي به في مناسبة أو من دون. أسود الشعر مستطيل الوجه واسع العينين، تبرز أسناني العلوية منتظمة وترفع شفاهي الرفيعة وشاربي الخفيف لتعطيني مظهر الفنان (كلارك جيبل). ثم جاءت جينات الرجل الصعيدي التي يحملها حَمضِي النووي لتمنحني بنيةً قوية، وأضافت إليها رياضة الجودو التي مارستها منذ صِغَري الكثير حتى صرت كالثور. ومع شخصيتي القيادية التي كانت لا تنحني أمام أي تحدٍّ، فستجد أنه لم يكن ينقصني شيء كي أتربّع فوق عرش مملكتي.

لكن في داخلي الأمر كان مختلفًا كل الاختلاف. فبين ضلوعي امتدت أرضًا جدباء لا ينبت فيها إلا كل ذي شوك، أرض تتنازع عليها الفصول الأربعة طيلة العام. كنت شابًا حانقًا دائمًا، حالمًا دائمًا، سعيدًا لدرجة الطيش أحيانًا، كئيبًا كالقبر أحيانًا أخرى. حياتي كانت كبندول ساعة يتأرجح مؤشره بين السماء والأرض، بين الأبيض والأسود، بين الثلج وصَمْتِهِ والنارِ ورمادِها.

شيءٌ واحدٌ فقط كان يستحوذ على تفكيري كله، شيءٌ واحدٌ كنت أنام وأصحو من أجله: الفوز في بطولة الجمهورية للجودو. فهو ليس فقط فرصتي للسطوع في عالم الرياضة وتذكرتي إلى المحافل الدولية، بل كان الدليل الدامغ الذي سأقدمه لأبي أنني لست مجرد

"خرتيثا" بلا عقل وأنه لن يئول بي الحال كعامل بالأجرة تنتهي حياته بذهاب عافيته، كما قال لي بهدوء جزار يسلخ شاته.

وحدها أمي هي من كان يؤمن بي، حتى توفاها الله لتترك وراءها خواءًا لم تملأه الدنيا وما فيها. هي من كان يدفعني للأمام ويلحّ عليّ كي أتابع دروسي وأمارس تمريناتي ولم تكن تناديني إلا بـ "البطل".

"بكرة أحلى.. هتعدّي.. هتعدّي". هكذا كانت تقول لي مشجعة.

كان هذا هو السبب الحقيقي الذي صبغ تلك الفترة من حياتى بالتوتر المزمن، السبب الذي أجاز لي التقلُّب في الحالات المزاجية بلا رادع. فمع اقتراب موعد البطولة تنافست هُرمُونات المراهقة التى لم تكن قد تركتني بعدُ مع رغبتي الساحقة في إثبات جدارتي لتحديد أيًا منهما يستطيع أن يزيد قلقي ويجعل حياتي جحيمًا أكثر من الأخرى. عدُّ تنازليٌ لَعِين سينتهي عند إطلاق صافرة الحكم لتبدأ مباراة نهائي الجمهورية أو عندما يسلم عقلي نفسه للجنون.

وليزداد الطين بِلّةً ذكّرني مدربي بأن هذه فرصتي كي ألتحق بالمنتخب وأمثل مصر في بلغراد. كان أمامي أقل من أسبوعين حتى ميعاد البطولة حيث كنت سأنازِل (رزق) البطل المتوّج ونجم نادٍ عريق بالإسكندرية. لم يكن لديّ شك في وصولي لدور النهائي لكني دائمًا كنت أواجه صعوبة في مواجهة (رزق)، فمنذ أول لقاء لنا قبلها بستة أعوام وهذه الرهبة كانت تأتيني كلما وقفت أمامه على "البساط". وهذا كان يغيظني بشدة فأنا كنت أكره الخسارة، أكرهها لدرجة مخيفة. أكرهها لأن هناك من قال لي يومًا إنه لن يأتي خيرٌ مني. لذا؛ فقد كنت مضطرًا أن أشحذ شتات همتي وأبحث بالعدسة المُكبّرة عن بقايا ثقتي بنفسي استعدادًا لمواجهة (رزق). فهدفي الذي يتمثل في مستقبل رياضي مبهر كان ينتظرني بعد مباراتي معه.

صببتُ جُلّ تركيزي في مهمتي القادمة، اللقاء الرياضي الأهم في حياتي، وضبطت مواقيت نومي واستيقاظي بعد أن أصبح لديّ نظام تدريب خاص وضعه لي مدربي. بتُّ أنهض بعد الفجر مباشرةً أخرج بعدها لأتريّض على شواطئ مرسى مطروح الفيروزية، ثم أعود ومعي الإفطار لأصحابي ورفقاء مسكني الذين ينامون عادةً لبعد الظهر.

روتين هادئ منظَّم لكنه كان على وشك التعرض لإعصار مدمر.

***

يومها عدت من السنترال بعد أن فشلت للمرة العاشرة في إقناع أبي بحضور البطولة.

مكالمة قصيرة للغاية أخبرني فيها بعدم قدرته على تنفيذ أمنيتي لأنه قد استنفد رصيد إجازاته.

متى استنفده؟ أم كان يقصد أنه استنفد إجازاته معي بالذات؟ لم أعرف ولم أغد آبه.

سيطرت على مشاعري بسرعة كما تعودت منذ صغري وعدت للمنزل أجرُّ أذيال الخيبة ولسعة الإحباط. خرجت للشرفة وأخذت نفسًا عميقًا متأملًا خط البحر الرفيع الذي ارتفع فوق البنايات الباهتة ذوات الطوابق الخمسة.

أخرجني من شرودي مشهد (عبد العظيم)، حارس المعهد الذي كنت أدرس فيه، وهو يلقن ابنه (مروان) بمنتهى الصبر كيفية دفن جثة كلب في المساحة الخاوية التي كانت تفصل عمارتي عن سور المعهد. ابتسمت من تعبير الاشمئزاز الذي ارتسم على وجه الطفل ذي الأعوام الخمسة وهو يدفع بالجسد المنتفخ في الحفرة الصغيرة بعصا أطول منه بشبر كامل. وحين نجح في النهاية زبّت (عبد العظيم) على رأسه وضفه إليه مشجعًا، قبل أن يشير إليه ليدخلا من بوابة المعهد.

مشهد انطبع في ذاكرتي بكل تفاصيله حتى يومنا هذا، كأنه كان يُعرض أمامي مرارًا بالتصوير البطيء. النسمة الباردة التي انسابت برشاقة، الهدوء الذي يميز المنطقة والبلد بأكملها، حفيف أوراق شجرة الليمون وهي تحتك بسور الشرفة التي أقف فيها، كلها أشياء جعلت رعشة لذيذة تمرّ في جسدي. لم فرضت رائحة البحر سيطرتها على الموجودات كلها وملأت صدري بالأماني. أذكر ذلك بمنتهى الدقة لأني أغمضت عيني مبتسمًا... وتمنيت.

لم ذابت ابتسامتي دفعة واحدة.

حتى بعد مرور ثلاثة وثلاثين عامًا لا أدري ما الذي حدث بالضبط في تلك اللحظة. فقد ماجت أحشائي وانقبضت وشعرت بطنين كاد أن يصيبني بالصمم، وبعد أن كنت في حالة من الشجن قبلها بثوانٍ صار دمي يغلي إلى حد الفوران وتسارعت معه أنفاسي. تذكّرت جدالي مع أبي ذلك الصباح، تذكرت جفاءه ووعوده الكاذبة. نعم لقد تمنيت من قبل، تمنيت حتى أعياني الأمل وأحالني إلى كتلة من الغضب.

بحثت حولي عن أي شيء يلهيني عما كان يعصف بتفكيري، فلمحت البجقة التي كنت قد ملأتها بحصيلة الصيف مما جمعته مع أصحابي من الشطآن والذي يلفظه البحر أحيانًا. عادةً ابتدعناها ولم نكن قد تخلينا عنها بعد حتى بعد أن عبرنا إلى عقدنا الثالث. ساعة كاملة استغرقتها في مراجعة محتويات الجوال الكبير بدءًا من العبوات البلاستيكية إلى مجموعات كاملة من ألعاب البحر.

شارد الذهن أمسكتُ قرصًا معدنيًا لامعًا كنت قد وجدت مجموعة منه في شاطئ (عجيبة). في ذلك اليوم الصيفي الحار قررت مع أصدقائي الابتعاد عن زحام المصطافين، وسرنا مع دوران الجرف الصخري إلى حيث لا يصل أحد منهم. بلغنا بقعة تظللها الصخور كأنها كهف مستتر وهناك وجدنا آثار حطب محترق لم تذروه الرياح بعد، رغم شدتها. لا إراديًا عبثت بعصاي في بقايا النيران حتى لمحت لمعة من بين كومة الرماد. حركتها لأكشف المدفون لتظهر لمعات أخرى كان يسترها الغبار الرمادي. انكفأت لأستخرج ما ظننته كنزًا من العملات القديمة رغم اعتراض (طه) المستفز الذي قال إنه من الأفضل تركها وشأنها. صحت في (حسن) أن يساعدني لكنه اكتفى بمراقبتي وهو يقرض أصابعه في تردد وعيناه تقفز من وجه (طه) المعترض لوجهي الذي أضاءته الإثارة. في النهاية ملأت كيسًا جلديًا وجدته في الجوار بالعملات العجيبة وجلبته معي للبيت لأضعه في هذا الجوال ثم نسيت أمره تمامًا.

تدريجيًا نجحت المحاولة واستطاعت الأقراص العجيبة في تشتيت انتباهي وإخماد بركاني. نظفت أحدهم جيدًا لأجد عليه نقشًا لوجه لم أميز إذا كان لرجلٍ أم لامرأة. ثم وضعته بين أسناني كما رأيت في أحد الأفلام محاولًا معرفة نوع المعدن. ما إن فعلت حتى بصقت الطعم المقزِّز لاعنًا غبائي، فما تذوقته هو مزيج من الرماد والصدأ.

وفي تلك اللحظة العبقرية سمعت النُّباح الهستيري.

انتفضت واقفًا لأرى المشهد الذي جمَّد الدم في عروقي: في فناء المعهد، الذي يفصل شوزُهُ عن عمارتي ذات الأدوار الثلاثة، عشرون مترًا من رمال مرسى مطروح البيضاء، رأيته: شاب قمحي اللون يكبرني بأعوام قليلة، في منتصف العشرينات أو آخرها. لم أستطع تحديد عمره بدقة وقتها لكنه كان حليق الذقن والرأس، رياضي البنية كلاعبي الجمباز، متوسط الطول. كان يقف في أقصى يسار الفناء، في الجهة المقابلة لمبنى المعهد، في زيٍّ رياضيٍّ أسود وفي يده كثيفة الشعر طرف سلسلة حديدية تنتهي حول رقبة غليظة لكلب بلدي رمادي أجرب. أما يده اليسرى، فكانت ملفوفة في رباط متسخ وتمسك بعصا طويلة يستخدمها لاستثارة كلبه العملاق. يستفزه متعمدًا بصيحات تحفيزية يطلقها بحماسٍ محموم.

لم تكن الدراسة قد بدأت بعدُ والمعهد كان خاليًا تمامًا من الموظفين وهيئة التدريس. ولذلك فقد كانت الأسئلة المنطقية هي: كيف دخل هذا الشاب وبوابة المعهد مغلقة؟ ولو كان قد قفز من فوق السور فكيف فعلها هذا الكلب الضخم؟

ثم علامَ ينبح هذا الأخير؟

اقتربت من سور الشرفة ومددت عنقي لأنظر حيث يصبُّ الفتي وكلبه اهتمامهما.

انقبض صدري حين لمحت (مروان) محاصرًا في ركنٍ بين شجرة التوت وغرفة الألعاب الرياضية الملتصقة بسور المعهد من الداخل. لم أز ما به بالضبط لكني رأيت ملامح الذعر على وجهه ولمحت جلبابه المقطوع. يصرخ الطفل بهلع كلما تهجَّم عليه الكلب، فيطلق الشاب القمحي المزيد من ضحكاته العابثة ثم يصيح في كلبه كي يُطبق فكَّه الضخم على الطفل.

العجيب في الأمر أن الكلب نفسه لم يكن ينوي الوصول لهذا الحد، فالنباح يكفي لفرض سطوته على غريمه الضئيل وإرغامه على الإذعان. المخيف هو أن الشاب هو من كان لديه خطط أخرى فيما يبدو، فهو لا ينفك يستفزُّ الكلب ويحثُّه على الهجوم كأنه يتمنى رؤية المجزرة.

لحظتها انطلقت كل أجراس الخطر بداخلي. نظرت حولي علِّي أجد من يغيث الطفل لكن لم يحالفني الحظ، فهذا الحيُّ من مرسى مطروح كان يخلو من المارَّة خصوصًا في ذلك الوقت من العام. ومن مكاني استطعت رؤية أن بوابة المعهد كانت موصدة بالمزلاج من الداخل. انتبهت للمشهد مرة أخرى فوجدت أن الكلب يكاد أن يفترس الطفل. فكرت في الصراخ أو تسلُّق شجرة الليمون الملتصقة بالشرفة نزولًا، لكني لم أستطع تحريك عضلة واحدة.

ثم انتبهت للشاب وهالني ما لاحظته. فكلما هجم الكلب ورجَّ نُباحه أنحاء الفناء لمعت عينا الشاب وأطلق ضحكة وحشية كأنه يتلذذ بتعذيب الطفل. لكنه توقف بغتة عما يفعله... ونظر إليَّ.

ثم ابتسم.

لحظتها رأيت في عينيه الواسعتين شيئًا لم أرَهُ قبلها ولا بعدها، شيئًا جعل قلبي ينتفض بين ضلوعي:

الشر المطلق.

بعدها سمعت صياحًا يأتي من خارج السور تلاه صوت طَرَق قوي على بوابة المعهد. ساد الهرَج والمرَج في المنطقة وتجمَّع السكان أمام بوابة المعهد المعدنية يحاولون فتحها. ثم قام بعض الصبية والفتيان من البدو بتسلُّق السور بينما أتى أحد الجيران بقضيب معدني واتجه للبوابة. لم أستطع رؤية ما يحدث خارج البوابة فهي كانت في الجهة المقابلة من موقعي، لكني سمعت صياح الرجال وصراخ النساء.

تنبهت في تلك اللحظة إلى مشهد الطفل والشاب فرأيت الأخير يركض في اتجاه عكس البوابة - إلى جانب السور الذي تطل عليه شرفتي - وفي يده السلسلة الغليظة. لكن الكلب نفسه كان قد اختفى ولم أعُد أسمع نُباحه بينما ظل الطفل متكوِّرًا في مكانه وحوله بركة، استنتجت منها أنه قد بالَ على نفسه من الرعب.

وصل الشاب للسور ناحيتي واختفى خلفه في نفس اللحظة التي نجح فيها الصبية في القفز داخل الفناء وتفرقوا فيه. منهم من توجه إلى (مروان) ومنهم من لاحق الشاب. عندها فقط تمكن الطفل من الحركة فهبَّ واقفًا وركض باتجاههم وهو يصرخ وينتحب.

توقفت أنفاسي وأنا أراقب السور الذي اختفى خلفه الشاب المخبول حيث لحق به الصبية. في اللحظة نفسها، سمعت طرقعة عالية فنظرت للبوابة لأجد أن من كانوا يحاولون اقتحام الساحة قد نجحوا في فتحها عنوة. نظرت مجددًا إلى السور الذي أتاني من خلفه أصوات متباينة بين صياح وسِباب حتى رأيت يدًا تعتليه. ظهر بعدها شعر ذو حلاقة عسكرية ثم وجه الشاب الضاحك.

يا له من مجنون!

لقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من التمزُّق إربًا على يد الحارس وسكان الحي كله، ورغم ذلك ظل يُطلق ضحكات ماجنة كأنه لا يعبأ بهم. وقف بعدها على السور حافي القدمين يستفزُّ الصبية ويلوِّح بيده ليستفز الجميع ثم بَرَم السلسلة الحديدية حول ذراعه وانحنى ليتفادى سيل الحجارة الذي رشقه به فتيان البدو. صدت ضحكاته العالية في أنحاء الساحة وخارج السور ليسمعها الواقفون في الشرفات والنوافذ.

telegram: @alanbyawardmsr

انبطحتُ أرضًا لتجنُّب الحجارة التي انهالت خارج السور كالمطر في اتجاهي ثم زحفت حتى وصلت إلى الصالة. أغلقت الشيش الخشبي الأخضر بقدمي ثم استلقيت مكاني كي ألتقط أنفاسي التي أوقفتها الإثارة.

- بتعمل إيه عندك؟

التويت على جانبي الأيمن كالملسوع ونظرت خلفي ناحية الصوت. اطمأننت حين وقع نظري على شاب بدين ذي شعر أسود ناعم يخرج كَرِشُه من منامته الصغيرة. كان يقف عند مائدة الطعام وفمه الصغير محشوٌّ عن آخره بمزيجٍ من جميع الأصناف المتراصَّة عليها.

- خضِّيتني يا (حسن).

قلتها وأنا أعتدل واقفًا ثم استدرت لأنظر من خلال فتحات الشيش إلى المشهد المثير

بالخارج. تناهى إلى مسامعي اصطكاك أسنان (حسن) ببعضها وهي تطحن الطعام بنَهَم مصحوبة بأصوات أنفاسه العالية، بينما ظلت الأصوات بالخارج تشي باستمرار الأحداث. لثوانٍ طويلة مكثت في موقعي أحاول رؤية ما يحدث ثم كرر (حسن) سؤاله فاستدرت له قائلًا:

- فيه واد مجنو...

لم أكمل جملتي فتوقف (حسن) عن مضغ الطعام ونظر إليّ مستفسرًا. وضعت إصبعي على شفتيّ كي يُخفض صوته والتفتُّ لأنظر من فتحات الشيش مجددًا.

كان هناك شخصًا في الشرفة، رأيته ينبطح أرضًا ويختبئ خلف سورها القصير. ثم سمعت صوته يضحك كلما قذف الصبية بالحجارة لترتطم بالشيش الخشبي.

- ده طلع في البلكونة عندنا. قلتها بصوت خافت.

- بتتكلم عن مين؟

سألني صاحبي البدين دون أن يضع الطعام من يده.

- الواد بتاع الكلب.

- ...؟؟؟

هممت أن أفسر له أكثر لكني فوجئت بعينين بُنّيتين واسعتين تطلان عليّ من خلال فتحات الشيش.

- مساء الفل. ما تفتح يا كابتن.

قالها الشاب الذي افترش أرضية الشرفة مستترًا بسورها. تأملت وجهه السينمائي الوسيم وتعجبت من حكمة الخالق في جعل الشر يتصور في هيئات جميلة. وللمرة الثانية لم أستطع تحديد سِنّه لكنه كان في نظري أكثر إثارةً للرهبة من لو كان قبيحًا مشوهًا.

- افتح يا عمّ. أنا شايفك.

قالها ورسم على وجهه ابتسامة ودودة تثير الرهبة فسألته:

- إنت تعرفني؟

- بتكلّم مين يا بني؟

قالها (حسن) مضطرًا للتخلّي عن الملحمة الغذائية التي كان مشغولًا بها ليأتي إليّ فأشرت

إليه كي يُنصت.

- طبعًا يا عمّ. أنا (مراد)، معاكوا في سنة رابعة.

قالها الشاب والتفت لينظر خارج الشرفة ثم استلقى على الأرض مجددًا وزادت ابتسامته عرضًا وهو يقول:

- يا عمّ افتح بلاش هزار. الناس دي شكلها اتضايقت.

- يعني عايزهم مايتضايقوش؟ حقهم طبعًا. وبعدين أنا معرفكش. انزل تاني زي ما جيت وإلا هخليهم يمسكوك.

- ما أنا لو نزلت هيمسكوني برضه، دول محاوطين البيت. أنا معاكوا في المعهد والنعمة. وبعدين أنا كنت بهزّر مع الواد. افتح يا بطل بقى.

قالها ثم مسح ابتسامته فجأة وأمسك الشيش وزجّه بعنف قائلًا:

- افتح وإلّا هفتح نافوخك يا عمّ إنت.

ضُعقت من رد فعله وتغيُّر نبرته المفاجئ وصعقت أكثر حين لاحظت أن يده اليسرى المربوطة بخرقة بالية تفتقد بعض الأصابع. ضحك حتّى ظهرت أسنانه ناصعة البياض وظهرت معها غمازتاه الغائرتان ثم قال:

- بهزّر معاك، ماتقفِش بسرعة كده. هو محدش بيفهم في الهزار في البلد دي؟ يا عم افتح بقولّك.

- مين اللي بيتكلم ده؟

التفتُّ إلى (حسن) الذي كان ينظر لي وبقايا الطعام تتراقص حول فمه. همست له:

- واد كان عايز كلبه يهجم على (مروان) ابن (عبد العظيم). الناس قفشته فهرب منهم وشكله اتسلق شجرة الليمون وطلعلنا البلكونة.

- إيه؟؟؟

قالها (حسن) مذهولًا قبل أن ينتفض وأنتفض معه حين سمعنا طرقًا قويًا على باب الشقة. تلا ذلك صياح من خلف الباب:

- افتح يا بيه!! عيب والله اللي بتعمله ده!!

- إوعك تفتح لهم، قال (مراد).

تبادلت مع (حسن) نظرات قلقة قبل أن يبلع الطعام الذي كان محتجزًا في فمه بصوت مسموع ويهمس:

- بتبصلي ليه؟ أنا لسه مش فايق ومش فاهم حاجة. وبعدين ده بيتك.

ماذا دهاني حينها؟

كانت المرة الأولي التي أفقد فيها السيطرة على مشاعري ويشلُّ تفكيري بهذه الطريقة. تمنيت لو يقفز (مراد) هذا من الشرفة ويعود من حيث أتى؛ ومن ثَمَّ تختفي المشكلة التي هبطت علينا من دون مقدمات. إن لم يفعل فسيتوجب عليَّ تسليمه للأهالي أو ألقى نفس مصيره.

لكنهم حتمًا سيقتلونه.

ولِمَ لا؟ لماذا آبه؟ هكذا سألت نفسي، فقد كان بي ما يكفيني.

لكن ماذا عن الشاب نفسه؟ ماذا عن (مراد)؟

لقد أخبرني أنه معي بالمعهد. هل آمَنُ على نفسي من انتقام شخص في جنونه لو سلمته إليهم ونجح بطريقة ما في النجاة من انتقامهم؟

انتهت حيرتي حين سمعتهم يقتحمون الشقة كالإعصار الهادر بعد أن فتح لهم (طه)، صديقي الثاني، الذي استيقظ لتوّه.

لكن قبل أن يصلوا للشرفة حيث كنت أقف سمعت همسًا.

التفتُّ لأرى (مرادًا) من خلال فتحات الشيش يكلم نفسه وهو شارد الذهن، كأنه يفكر في شيء ليس له علاقة بما يحدث حوله. لمحت في يده القرص المعدني القديم الذي استخرجته من أسفل الرماد، ضغط عليه برفق قبل أن يرفع عينيه إليَّ ويشير لي كي أقترب منه. اقشعرَّ بدني حين تأكدت أن يده اليسرى الممسكة بالقرص بالفعل تفتقد ثلاث أصابع. ترددت للحظة قبل أن أحسم قراري وأنحني لأنصت لما همس به الشاب الغامض عبر الشيش المغلق.

ويا ليتني ما فعلت.

فعندما سمعت ما قاله قمت بما لم أستوعبه حتى هذه اللحظة. ثلاثون عامًا أو تزيد مرَّت دون أن أفهم ما أعتبره أغرب اختيارات حياتي.

وأكثرها حمقًا.

(2)

نعم لقد كذبت.

أجلسني الأهالي في منتصف الصالة والتفُّوا حولي يتناوبون استجوابي بكل غلظة. لكن موقفي ظل ثابتا: لقد رأيت المشهد بدقة ولم تكن نية (مراد) أدنى الطفل، بل كان غرضه المزاح معه.

في نهاية الأمر، كيف نعرف النوايا والأغراض؟

ورغم أنني كنت موقنا أن (طه) لم يقتنع بذلك التفسير لكنه وقف بطوله الفارع وسط الأهالي الغاضبة يدافع عني بكل قوة. للأسف كانت حجته بأنه يعرفني منذ نعومة أظفارنا وأن الكذب ليس من طبعي، أضعف من أن تقنع عائلة الطفل الغاضبة والجيران الثائرة. لذلك فقد ظل الجميع يرمقونني في حنق كأنني أنا المذنب وليس ذلك الشاب القمحي ذو قصة الشعر العسكرية الذي وقف بجواري عاقدا ذراعيه أمام صدره في تحدٍ. ولولا أن الأهالي لم يجدوا سببا كافيا لاتهامي بالتواطؤ مع (مراد) لكانوا أنزلوا بنا عقابا مزدوجا مؤلما.

ظل (حسن) في ركن الصالة يمضغ بقايا طعام وهمية ويراقب المشهد في انبهار، حتى التقت عيناه بعيني (مراد) فانكمش في مكانه فوق الأريكة الحقيقة. لن أنسى ما حييت نظرات (حسن) المذعورة وهو يهز رأسه لي رافضا ما أفعله، لكني تجاهلته تماما.

ثم فقد معظم الجيران اهتمامهم الواحد تلو الآخر وغادر الجميع إلا من حفنة صغيرة، منهم والد الطفل وخاله، عم (كامل) البدوي العملاق. لكن هذا لم يخفف من شدة الموقف وبدأت كلمة "الشرطة" تظهر في الحوار لتبدأ معها أعصابي في الانفلات. هنا رماني (مراد) بنظرة ذات مغزى فاقترحت عليهم أن يبقى هو معنا في الشقة حتى يتضح جزمه أو تثبت براءته.

كان وقع اقتراحي عليهم صادما فقد تبادلوا نظرات طويلة حائرة قبل أن يلتفتوا إليّ في شك ليسألوني إن كنت أهزأ بهم. لكن ما إن تكلم (مراد) وذكر اسم عائلة من عائلات البدو التي تعيش في قلب الصحراء والتي لا يعرفها الكثير، حتى تحولت حيرتهم إلى شك وتوجس. سألوه عن الكيفية التي عرف بها بتلك العائلة لكنه هز كتفه وابتسم في استهتار. في النهاية وافقوا على اقتراحي بإبقائه عندي حتى الصباح لكنهم قالوا إنهم سيضعوننا تحت المراقبة.

ما كان مقابل تلك المجازفة التي قمت بها؟ حسنا، لقد همس به في أذني.

***

وهكذا استقبلت شقتي العزيزة بمرسى مطروح، والتي تقبع في الطابق الذي يعلو الأرضي، ضيفها الرابع. كانت شقة بها ثلاث غرف، تشترك أبوابها مع باب المرحاض في ممرٍ صغيرٍ لا يتعدى الأمتار الثلاثة تجده على يسارك عند دخولك من باب الشقة، بعد المطبخ مباشرةً. شقتي كان لها طابع مصري أصيل ورائحة مميزة كأن هناك دومًا شيء يحترق رغم أن مطبخها المتواضع لم يشهد ملحمات غذائية منذ وفاة أمي. أذكر أن في حياتها، كانت أمي تعشق بخور العود وتكثر من استخدامه في مناسبة أو دون، فقد كنت أجد بقاياه في كل مكان؛ في المطبخ أو الصالة أو أسفل فراشها. لذلك فقد كنت أظن أن رائحة عيدان العود المحترقة قد صارت جزءًا من نسيج البيت.

أمام المدخل استقرت سفرة الطعام البسيطة وجلسة المعيشة في مساحة مربعة لا يتعدى طولها الأمتار الستة. على يسار السفرة، وفي نهاية الصالة قُبيل الشرفة، تقبع أريكة ثقيلة الوزن لدرجة تُشعرك أنها من الحديد وليس الخشب، مكان أبي المفضل. كانت إحدى تلك الأرائك التي تلتصق جوانبها بالأرض ليصبح باطنها عالمًا مظلمًا غامضًا يسبب ألطف الكوابيس. أمام الأريكة يقبع التلفاز الملون فوق وحدة أدراج بائسة تقبع على يمين الشيش الأخضر الإلزامي لجميع الشقق في تلك الحقبة الزمنية. يفتح الشيش على الشرفة التي تطل بدورها على أرض خاوية تفصل عمارتي عن سور المعهد.

إحدى الغرف الثلاث، تلك التي كانت منتصف الممر، كانت غرفتي الخاصة والتي تقع في نهايته كانت لـ (حسن) و(طه)، الوحيدة التي كانت تكفي سريرين. أما الأخيرة، تلك التي تقع في أول الممر، فكانت لأبويّ وهي ما أعطيتها لـ (مراد) الذي قَبِلها شاكرًا قبل أن يدخلها ويستدير قائلًا آخر شيء توقعته من شخص مثله:

- هي القبلة اتجاهها فين؟

وقفنا نحن الأربعة نتبادل النظرات، لحظة طويلة رمقني (طه) فيها بنظرة اتهام وشَك قبل أن يلتفت إلى (مراد)، الذي أعطى (حسن) ابتسامة شيطانية ساخرة. جحظت عينا الأخير وهرب بهما من نظرات ضيفي المثير للريبة ونظر إلى (طه) مستنجدًا. ظل (طه) محدقًا في (مراد) حتى التقت عيناهما، لحظتها رأيت الشرر المتطاير بينهما، مبارزة من النظرات قالت الكثير، قبل أن تزداد ابتسامة (مراد) اتساعًا ويلتفت إليّ منتظرًا الإجابة.

أشرت لاتجاه القبلة ليومئ (مراد) برأسه مُحييًا إياي قبل أن يغلق الباب بمنتهى البساطة ويوصده بالمفتاح.

ظللت محدقًا في الباب المغلق لوهلةٍ ثم التفتُ بعدها إلي (طه)، صديق عمري الصعيدي صعب المراس، لأجده يحدِّق في وجهي غير مصدق ما يحدث. لكنه لم يكن بحاجة لأن ينطق بها لأدرك ما الذي أراد أن يقوله. فبعد أن نجحت بصعوبة في السيطرة على انفعالاتي كي لا تظهر على وجهي تبادر إلى ذهني نفس السؤال:

ما الذي فعلته؟

***

الليلة الأولى لـ (مراد) معنا...

أذكر أنني ظللت أتقلب في الفراش كالثعبان المحترق. توالت على ذهني المسكين أحلامًا فوق أحلام من المشاهد المحبطة، ثم يأتي الحلم الأشهر على الإطلاق وأنا أطير لأختتم به الليلة التي ظننتها لن تنتهي.

حلمت بنفسي أقفز من فوق حافة عمارتي وذراعاي ممدودتان أمامي. بحثت عن أبي لأجده يسبقني إلى النجوم فانطلقت خلفه في يوفوريا ساحقة لجميع أشكال الحكمة. ثم زدت من سرعتي كي ألحق به حتى كدت أشعر باقترابي من نهاية الغلاف الجوي... من الحرية المطلقة. ثم حدث ما كنت أخشاه منذ اللحظة الأولى، بدأت سرعتي في الهبوط بينما تجاهل أبي الذي سبقني استغاثاتي. وفي لحظةٍ أعرفها جيدًا من كثرة تكرارها خذلني خيالي فهويت من سقف العالم، لتلتقطني ذراعان مُشعرتان قويتان قبل أن أتحطم.

وجدتُ نفسي بعدها في حفرةٍ، بينما يهيل عليَّ (مروان) ابن حارس المعهد التراب وهو يتبول فوقي. ثم ظهر وجه أمي الملتاع وهي تمسح من على وجهي التراب المبتل وترفعني من الحفرة. وفي تلك اللحظة فتحت عينيَّ عن آخرهما لأجد نفسي غارقًا في العرق.

بقيت على ظهري لدقائق طويلة أحدِّق في السقف وأنهك نفسي تفكيرًا وتحليلًا. ثم أخذت مركب النوم تؤرجحني مرةً أخرى حتى بدأت أحلم بعيون مفتوحة. انتقلت من موضوع البطولة وأبي الذي تمنيت حضوره رغم كل شيء، إلى ذلك الشاب الغامض الذي آويته في بيتي والاتفاق المشبوه الذي أبرمته معه.

عندما اقترب الليل من نهايته سمعت الدق. فتحت عينيَّ التي لم أدرِ متى سقطت أهدابها وصدمت مما رأيته: وجه (طه)، الذي كان مقلوبًا - عيناه مكان فمه وفتحتا أنفه تنظران للسقف - وقد كان يهتف بشيء لم أفهمه.

انتفضت مذعورًا ثم دعكت عينيَّ وفتحتهما لأجده يقف بجوار الفراش وهو يُربِّت على

كتفي وعلى وجهه أعتى آيات القلق، وجهه الذي عاد كما جاء به إلى هذه الدنيا. نظرت حولي محاولًا استجماع إحساسي بمحيطي ثم حولت بصري لباب الغرفة حيث ذهب (طه) بطوله الفارع ونظر إليّ مشيرًا للصالة. لوهلةٍ تأملت وجهه في توجس قبل أن يستدير ويلوّح لي كي أتبعه فسألته:

- فيه إيه؟

- (حسن) في مشكلة.

همس قبل أن يخرج ليقف في الممر الصغير. نهضت على الفور وذهبت معه للصالة ضعيفة الإضاءة حيث "المشكلة". والمشكلة كانت تحت الأريكة الخشبية العتيقة، حيث أشار (طه) قائلًا:

- (حسن) جوّه.

- نعم؟؟؟

جاءني صوت (حسن) من أسفل الأريكة منقطع الأنفاس:

- طلّعوني.

انبطحتُ أرضًا ليستقبلني وجه (حسن) المنتفخ دقيق الملامح والذي جعله الذعر يبدو كأنه سينفجر.

- إزاي دخلت هنا أصلًا؟ دي عايزة عشرة علشان يرفعوها.

التفتُ إلى (طه) لأجده يحكُ شعر رأسه الخشن القصير، علّ ذهنه يتفتق عن وسيلة لإخراج صديقنا البدين من هذا المأزق العجيب.

- إنت ساعدته يدخل يا (طه)؟

- ساعدته إيه؟؟ هو إحنا فاضيين قوي كده؟ أنا صحيت على صوت دق ومشيت وراه لغاية ما لقيته تحت الكنبة.

(حسن) بعصبية:

- أنا لقيت نفسي هنا. طلعوني بقى!!

حككت شعري الأسود أنا الآخر ثم قلت وأنا أحاول رفع الأريكة:

ساعدني يا (طه).

لم تنجح محاولتنا في رفع الأريكة بما يكفي لخروج صديقنا؛ لذلك توقفنا قبل أن نُصاب بتمزُّق.

هل كانت الكنبة بهذا الثقل؟ لم أعرف.

تبادلت مع (طه) نظرات حائرة وتوقفنا لنلتقط أنفاسنا ثم جال بخاطري فكرة. التفتُّ للممر المظلم الذي ينتهي بغرفة والديّ. هناك يقبع آخر شخص أريد أن أطلب مساعدته لكنه كان الحل الوحيد، يد ثالثة ستساعد بالتأكيد.

قطع تفكيري صوتٌ همس فانحنيت لأنظر تحت الأريكة؛ وكذلك فعل (طه) الذي سألني:

- فيه إيه؟

تجاهلته وسألته:

- بتقول حاجة يا (حسن)؟

فوجئنا بعيونه الدقيقة وقد جحظت ليتضاعف حجمها وهي تتحرك في مقلتيها باطّراد. تجمَّد المشهد على هذا: (حسن) ينظر إلينا من الفتحة الضيقة أسفل الأريكة ويده متشبثة بساقها التي تقسم طولها نصفين. بدا لنا أنه يخشى أن ينظر وراءه وقد توقف عن التنفس تمامًا، لكن ما إن تكلم حتى فهمنا ما به.

- فيه حد معايا.

- حد معاك؟ معاك فين؟

سأله (طه)، فالتفتَ (حسن) نصف التفاتة للظلام من خلفه، ثم عاد لينظر إلينا وقد هرب الدم من وجهه. جاء رده بصوتٍ خافتٍ مبحوح:

- تحت الكنبة. في حاجة ورايا.

تبادلت مع (طه) النظرات مرةً أخرى قبل أن يقول:

- (حسن) مفيش حاجة وراك. هي الكنبة دي أصلًا ينفع واحد يدخل تحتيها لما تقولّي في حد معاك.

- شششش.

أسكتُّ (طه) واضعًا إصبعي على شفتيّ ثم اقتربت من الأريكة منصتًا. ما إن فعلت حتى تراجعت للوراء بغتة.

لقد سمعته.

الهمس.

كان هناك بالفعل من يتكلم خلف (حسن).

لم أشأ أن أفزعه أكثر مما كان؛ لذا فقد أمسكت ذراع (طه) وابتعدت كي لا يسمعنا وتبادلنا الحديث همسًا:

- إنت سمعت حاجة؟ سألني (طه).

هززتُ رأسي بالنفي، فلم أكن أريد أن أثير قلقه هو الآخر، يكفيه وجود (مراد). نظر إليَّ بشكٍ ووضع يده في وسطه مفكرًا ثم نظر إلى الشرفة وهمس لي:

- نطلب مساعدة من البدو؟ في واحد منهم قاعد قُصاد العمارة.

هززت رأسي نفيًا تلك المرة أيضًا. لقد كان لدينا الحل لكن يبدو أن (طه) قد قرر مثلي عدم الاستعانة بضيفنا المريب. ثم انتفضنا مفزوعين حين صرخ (حسن):

- في حاجة لمستني، في حاجة لمستني!!

هنا بدأت الهستيريا.

أمسك سجين الأريكة بالساق الوسطى وبدأ يحاول بعشوائية لا طائل منها أن يخلعها أو يكسرها. نزل (طه) ليجلس القُرفُصاء وحاول تهدئته.

- (حسن)، بتعمل إيه؟ استنّى هنطلّعك.

حشر (حسن) وجهه في الفتحة الضيقة التي هي المنفذ الوحيد له حتى بدا كبالون على وشك الانفجار. ثم بدأ في العويل حتى بدأنا نقتنع أن هناك بالفعل شيئًا معه.

telegram: @alanbyawardmsr

- بقولكم طلعوني!!! طلعوني!!! في حاجة معايا!!!

راقبت الموقف الذي كاد أن ينفجر ثم نظرت للممر المظلم وحسمت قراري. هرعت لغرفة (مراد) متجاهلًا نداءات (طه) و(حسن) ثم طرقت الباب.

هل يُعقل أنه لا يسمع كل تلك الضوضاء؟

"مراد"، هكذا ناديته ثم طرقت مرةً أخرى.

"مراد!!".

سمعته يقترب فرجعت خطوتين للوراء فلم أكن أريد أن أرى ما كان يفعله بالداخل، هكذا كان اتفاقي معه: ألّا أحاول أن أعرف ما الذي يفعله في غرفته حتى يأذن لي. وقد كان هذا جزءًا صغيرًا فقط من الاتفاق اللعين الذي قلب حياتي رأسًا على عقب.

استقبلني وجه (مراد) المربع غير الحليق حين فتح الباب واستند على إطاره قائلًا:

- الدوشة دي مش هتنفع.

- إحنا عايزين مساعدة، تعالَ.

رسم ابتسامة غير مفهومة حتى ظهرت غمازتاه ثم أغلق الباب بالمفتاح وذهب معي في هدوء. لم تمرّ ثوانٍ وكنا ننظر لذراع (حسن) الغليظة، الذي خرج من تحت الأريكة وهو يصيح باكيًا:

- مش قادر أتنفس، طلعوني!!!!

- ما طبيعي بحجمك ده.

قالها (مراد) بمنتهى القسوة ليصيح فيه (طه):

- احترم نفسك يا جدع إنت!!

توقف (حسن) فجأة عن محاولاته الهستيرية ليهبط السكون على المكان إلا من صوت أنفاسه العالية. حينها سمعنا صوتًا عميقًا غير آدمي يخرج من أسفل الأريكة يقول شيئًا لم نفهمه. انتقل الذعر من (حسن) إلينا بكل قوة وصاح ثلاثتنا بـ (مراد) أن يمدّ لنا يد العون. ظل الأخير محتفظًا بابتسامته العجيبة بينما انكبّ (طه) على الأريكة وحاول أن يدفعها دون جدوى وهو يصيح بي كي أساعده. أفقت من صدمتي وانضممت إليه، بينما ظل (مراد) واقفًا كالصنم يرمق (حسن) الذي كاد أن يُسلِم روحه ذعرًا.

- مراد!!!!

صرخت به لينظر إليّ بكل برود ويقول:

- علشان خاطرك إنت بس المرة دي.

عبس (مراد) بعد جملته تلك واكفهرّت ملامحه دفعة واحدة وتقلصت بغضب مفاجئ، ثم انحنى ليهمس بشيء أسفل الأريكة، كأنه يرد على الصوت الذي سمعناه قبلها بلحظات وأمسك بالأريكة من منتصفها بيده اليسرى ليساعدنا في رفعها.

ولقد كان قويًا بحق.

ففي اللحظة التي انضم فيها إلينا نجحنا في رفع الأريكة الهائلة بمنتهى السهولة قبل أن يهتف:

- سيبولي الكنبة. طلّعوه إنتم.

تركتُ الأريكة وانحنيتُ عن يمين (مراد) لأمسك بذراعي (حسن) وبدأت أسحبه من الفتحة الضيّقة. وفي اللحظة نفسها فعل (طه) الشيء نفسه لكن عن يسار (مراد). لاحظت أن (طه) يجذب (حسن) هو الآخر فهممت أن أصيح به كي يدفعه لأننا لن نستطيع جذبه من الناحيتين، لكني رأيت ما جعلني أترك ذراعي (حسن) وأتقهقر مذعورًا.

فقد كان (طه) يجذبه من ذراعيه هو الآخر.

هل له ذراعان في كلا طرفَي جسده؟

راقبت المشهد مصعوقًا حتى نجح (طه) في إخراج (حسن) من تحت الأريكة وهو في شبه انهيار. وضع (مراد) الأريكة ببطء وانسحب بعدها بكل هدوء ليدخل غرفته ويغلق الباب، كأنه لم يفعل شيئًا خارقًا لتوّه. منقطع الأنفاس ظللتُ محدقًا في ذراعي (حسن) ثم انتبهت إلى (طه) الذي كان ينظر إليّ بذهول قبل أن يتصرف انتباهه إلى صديقنا الذي كان على شفا صدمة عصبية. انحنى ليطمئنّ عليه وأخذ يُربّت على كتفه، ثم التفت إليّ بوجه محتقنٍ وسألني وهو يشير لغرفة (مراد):

- إيه اللي بيحصل؟؟؟ مين اللي جبته عندنا ده؟؟

(3)

الأحد 2 سبتمبر - سبعة عشرة يومًا على بطولة الجمهورية.

عدد الأيام التي قضاها (مراد) معنا: 1.

فى صباح اليوم التالي كان عليّ أن أشرح ما لم أكن أملك له تفسيرًا، وفي النهاية اعترفت لهم بجهلي التام. اضطر (طه) أن يفسر ما حدث لـ (حسن) أنه كان يمشي نائمًا وما شعر به أسفل الأريكة هو من نسج خياله وخوفه من الأماكن الضيقة. قبلنا التفسير على مضض دون التطرُّق للطريقة التي دخل بها أسفل الأريكة، التي تحتاج إلى نصف دستة رجال ليحركوها. وبالطبع لم أذكر أنني رأيت (حسن) بأربع أذرع، بالتأكيد كنت أهذي.

لكن كيف رفع (مراد) الأريكة بهذه السهولة؟ وبيد واحدة؟

هذا هو بالضبط ما سأله (طه) وأظن أنه لم يتوقع أن يسمع مني إجابة مُرضيَة.

- إحنا التلاتة اللي رفعنا الكنبة، مش هو لوحده، و(حسن) كان بيساعد بكل طاقته. عمومًا الوضع ده مش هيستمر كتير. متقلقش.

- لغاية إمتى؟

هذا هو مربَط الفرَس. فقد اكتشفت لحظتها أنني قد أبرمت اتفاقًا دون أن أعرف نصفه الآخر. كنت أتشبث بأي أمل حتى لو كان ضربًا من الخيال.

***

حافي القدمين، ارتكن (مراد) بجانبه الأيمن على إطار باب الحمام وظل يراقبني حتى أنهيتُ غسيل وجهي. رميته بنظرة خاطفة ومددت يدي للمنشفة وقلت محاولًا التظاهر بالبرود:

- الأوضة مريحة؟

- عظيمة.

كان رده بابتسامة لا معنى لها وهو يعقد ذراعيه أمام صدره ويدفس كفَّه اليسرى أسفل إبطه، كأنه يخفيها متعمدًا. رميت الشقة خلفه بنظرة سريعة لأطمئنَّ من خلوّ الصالة قبل أن أنحني لأهمس:

- (مراد)، إنت كنت بتهزّر فعلًا مع (مروان) ولّا كنت عايز تؤذيه بجد؟

ازدادت ابتسامته عرضًا وانحنى ليهمس بنفس نبرتي وأسلوبي كأنه يسخر مني:

- هتفرق معاك؟

اعتدلت واقفًا وتأملت ملامحه الحادة وعيونه الجاحظة التي كنت أشعر بها تقتحم مساحتي الشخصية بكل جرأة. ألقيت المنشفة بعد تجفيف يدي واتجهت للخروج لكني وجدته يقف في طريقي. رغم أني كنت أتفوق عليه طولًا وأعرض منه كتفًا فإني تسمرت أمام عينيه الواسعتين وهو يقول مبتسمًا:

- خلّي بالك، اتفاقنا ده مفيهوش رجوع.

بادلته ابتسامته بواحدة مقتضبة لكنه أخذني على حين غِرّة، عندما ذابت ابتسامته بطريقته الصادمة وهو يقول:

- الشيخ (بدر) قالّك إيه لما رحت المعهد؟

تذكّرتُ ما حدث صباح ذلك اليوم حين تم استدعائي، وهو ما كان مُتَوَقَّعًا. رغم ذلك ذهبت للمعهد كالقط المذعور وكُلّي يقين أن شهادتي لصالح (مراد) لن تمرّ بسهولة. وبالفعل دلفت إلى مكتب مديرة المعهد لأجد وجوهًا سمراء ترمقني بمنتهى القسوة. إلا رجلًا واحدًا ملتفحًا بغُترة بيضاء لم يلتفت إليّ حين دلفت.

من انحناءة ظهره وتجاعيد يده التي قبضت بقوة على عصاه استنتجت هُويّته: الشيخ (بدر). ومن الذي لم يكن يعرف الشيخ (بدر) في مرسى مطروح كلها، كبير قبيلة (بنو عيطة) إحدى أكبر عائلات بدو الساحل، عائلة (مروان) وأسرته؟ بجانبه وقف (عبد العظيم)، حارس المعهد غليظ الشكل والطباع، يعضُ على فكّيه كأنه على وشك الانقضاض عليّ وتمزيقي إربًا.

كان هذا الجو العدائي كفيلًا بجعلي أنهار معترفًا بكل شيء قبل أن يبدءوا في استجوابي لولا وجود تلك التي كانت تجلس خلف المكتب: دكتورة (تهاني).

دكتورة (تهاني) كانت مديرة المعهد، ذلك اللقب المَهيب الذي يرتجف مَن يسمعه من الطلبة ويخشى مواجهة صاحبه، لكن ليس (تهاني). فالكل كان يعشقها، من أصغر عاملة نظافة إلى أكبر رئيس قسم. ربما كان السبب في عطائها وأمومتها الدافئة هو وفاة ابنها الوحيد في حادث أليم ليلة نجاحه في ثانوية عامة أو ربما كانت تلك هي طبيعتها. أيًا كان السبب، فقد كانت دكتورة (تهاني) الأكثر شعبيةً بين الطلبة من طاقم التدريس.

لسببٍ ما رأت دكتورة (تهاني) في شخصي الثائر السخيف ما لم يرَهُ أحد، حتى والدي، الذي كان يظن أنني لا أصلح لشيء. حتى رياضة الجودو، كان يقول إني تميزت فيها بسبب

ميلي للعنف والبلطجة. لكن (تهاني) وثقت في قدراتي وأخلاقي لتكون أهم من ساهم في بناء شخصيتي كي أعبر بسلام من تلك المرحلة دون أن أقطع وريدي.

منذ التحاقي بالمعهد وما إن علِمت دكتورة (تهاني) بظروفي حتى أعطتني من الاهتمام ما عوضني نوعًا ما عن رحيل أمي، وظلت نصائحها وإرشاداتها محفورة في ذهني حتى يومنا هذا، أكثر من ثلاثين عامًا بعد مرور تلك الأحداث. كلمات رنانة من نوعية: "زيّ ما كلنا عندنا عقل وجوّانا خوف وبيحرقنا شوق، فينا برضه غضب وعنف. والشعور اللي هتديله ودنك هو اللي هتديله القوة".

ملاك في صورة بشر، وقد أُنّبني ضميري كثيرًا لإقحامها في ذلك الموقف المربك، لكنني حمدت ربي حين رأيتها.

- يعني إيه كان هزار؟

سألني الشيخ الطاعن في السن بعينين تشعان خبرة من تحت عُثرَة رأسه البيضاء. وكانت إجابتي:

- زي ما بقولّك يا شيخ (بدر)، ده اللي أنا شُفته. وبعدين حضرتك هتعرف النوايا إزّاي؟

حملت نظرته لي الكثير من الغموض، ذلك الشيخ. لم يكن الشك فقط هو ما كان يملؤها بل مزيج من الاتهام والتوجس، حتى شعرت أنه قد قرأ على جبهتي الاتفاق الذي أبرمته مع (مراد) بكل تفاصيله، الاتفاق الذي لم يخبرني ماذا سيعود عليه منه.

تنحنحت وحانت مني نظرة إلى (تهاني) التي احتفظت بهدوئها المعتاد، وهي تراقب الحوار من خلف المكتب الأسود العريض. عدّلت وضع غطاء رأسها الذي كان بالكاد يحتوي شعرها الأسود الكثيف، ثم أمسكت نظارتها الطبية مربعة الشكل بأناملها، والتي كانت المصانع قد توقفت عن إنتاجها قبلها بزمن، وهي تقول:

- أنا شايفة إنكم مكبّرين الموضوع يا شيخنا.

تماسكت بصعوبة حين هدر (عبد العظيم) قائلًا:

- يعني إيه يا دكتورة؟؟؟ عايزة تطلّعيه منها إيّاك؟ سؤال واحد: الواد ده راجل ولا الدقن اللي على خلقته دي زينة؟ ده إحنا عندنا أصغر منه وعندهم عيّل واتنين.

أخذت (تهاني) نفسًا عميقًا ثم رسمت ابتسامة عريضة على وجهها المستطيل وهي تجيب:

- محدش بيتحاسب على النوايا يا (عبد العظيم).

التقت الأعين عند الشيخ (بدر) الذي أراح رأسه على عصاه وهو يراقب كل خلجة من خلجات وجهي في صمت، قبل أن يطأطئ رأسه مفكرًا للحظة. رفع عينيه بعدها وحدّق في وجهي قائـلًا:

- إنت تعرف عيلة "ولاد جهام" منين يا ولدي؟

- ما ترد يا وحش.

كرر (مراد) ليعيدني للواقع فهممت أن أسأله عن تلك العائلة، لكن (حسن) الذي عبر أمامنا بصينية خشبية عليها كوم صغير من ثمار البطاطس قطع حوارنا قائلًا:

- أرد على إيه؟

التفت إليه (مراد) وعادت ابتسامته الساخرة لوجهه وهو يقول:

- مش بكلّمك إنت يا شوال. رُدّ إنت بس على الشلّوت اللي هدّيهولك.

ثم همّ بركل (حسن) على مؤخّرته لكنه توقف قبل أن يلمسها بمليمترات. ضحك (حسن) وأسرع من خطوته حتى يضع الصينية على مائدة الطعام والتفت بغضب مصطنع وقال مخاطبًا (مراد):

- فيه إيه على الصبح؟

- مافيش يا عم. قشّر البطاطس قشّر. ولّا عايزني أحبسك تحت الكنبة زي إمبارح؟

كان رد (مراد) قبل أن يرمقني بنظرة أخيرة جعلتني أبتلع ريقي واسترجع آخر ما قاله الشيخ (بدر):

- ومين قال إننا ماينفعش نعرف النوايا والأغراض؟

ثم اتكأ على عصاه واقفًا ونظر في عينيّ مباشرة وقال:

- هنروح نزور (البشعة).

لن أنسى ما حييت رد فعل (مراد) بعد أن أخبرته بقرار الشيخ (بدر): صفق في سعادة ورسم ابتسامة عريضة قبل أن تعتلي وجههَ نظرةٌ شاردةٌ مجنونة. ثم بنفس الشرود قال لي إنه سيتناول معنا الإفطار ثم سيدخل غرفته ولن يخرج منها إلا ليتأكد إن كنت قد أصبحت جاهزًا أم لا. ضحك بعدها بملء فيه ثم ذهب ليكمل مزاحه الثقيل مع (حسن) وتركني فريسةً لتساؤلاتي.

"البشعة"... اسمها وحده كان يكفي.

لكنني كنت متأكدًا مما رأيته حين صفق، فيده اليسرى لم يعُد بها إصبعان فقط، بل ثلاثة.

(4)

يجب عليّ الآن أن أذكر القليل عن أفراد أسرتي، بل لنجعله أقل القليل؛ لأن ذلك هو حجمهم في حياتي. وبأسرتي فإني أعني شخصًا واحدًا فقط، فبعد وفاة أمي لم يكن لديّ غيره على كل حال.

كان أبي محاسبًا في شركة كبيرة، يحتل عمله الجزء الأكبر من اهتماماته وأحلُّ أنا رقم اثنين. أم كنت رقم ثلاثة؟ لا أذكر لأنه لم يكن هناك فارق، فرقم اثنان أو مائة في قائمة اهتمامات أبي كان لها جميعًا نفس الوزن: صفر. ولو تحرّينا الدقة لم يكن أبي يهتم بأي شيء أفعله على الإطلاق، حتّى لو جئت له بحقيبة سفر ملآنة عن آخرها بميداليات وكؤوس.

ولكي تكتمل لك الصورة، فإنه أبقى على شقتنا بمرسى مطروح، هذا رغم انتقاله للعيش في القاهرة مع زوجته الجديدة، وسمح لي بالبقاء فيها طيلة سنوات دراستي الثانوية والتي امتدت لما بعد التحاقي بالمعهد العالي. كأنه كان يأمل في أن يوفر لي أصدقائي هناك ما افتقدته من دفء العلاقة الأسرية.

هل كرهت أبي؟

الحق يُقال، لم يكن أبي من هذا النوع من الآباء الذي تلتصق كلمة "لا" على طرف ألسنتهم، كأن الموافقة على طلبات أبنائهم هي إهانةٌ لهم. ولم تكن أمي، رحمها الله، تمتلك الشجاعة للاعتراض على تساهله معي الذي كان يتعدّى مرحلة الإهمال والجفاء بأميال. لكنه كان تهاونًا فيما يخصني أنا، أما فيما يخصه هو فقد كان لا يرحم، أنانية مطلقة.

لا لم أكره أبي، لم يكن لديّ مشاعر تجاهه من أي نوع، فقط رغبة دفينة أن أجعله يشعر بالندم على جفائه القاسي.

لكني لم أكن وحيدًا. كان لديّ عصابة صغيرة بها كل ما أحتاجه. أو "مَنْ" أحتاجه.

أولهم كان (حسن)، صديقي البدين طيب القلب قليل التطلُّعات صاحب الملامح "العصفورية" الدقيقة، الذي سجن نفسه أسفل الأريكة المخيفة. (حسن) كان أول صديق لي، ربما قبل وفاة أمي، لأنه أول من ظهر ليأخذني بين أحضانه وأنا أصرخ باكيًا لحظة معرفتي بوفاتها. هو من كان يمتص ثقلُباتنا النفسية، من نرتكن عليه لنبكي، أنقى مَن عرفت في حياتي. لا أذكر أنه كان لديه حلمًا يسعى خلفه غير أن يصير أكثر نحافة، وهو ما كنت أساعده في تحقيقه لسنوات طوال. ولا كابوسًا يخشى أن يتحقق غير أن تتفرق مجموعتنا. فقد كان (حسن) يزدهر في تجمُّعاتنا ويكتئب لحظة الفراق.

أما عن (طه)، ذلك الشاب طويل القامة أبيض اللون لدرجة الشحوب ذي الشعر القصير بُنّي اللون، الذي فتح الباب للأهالي كي يدخلوا ويمسكوا (بمراد)، فهو من استندت عليه لأعبر محنة فقدان أمي. ولو أضفنا إلى ذلك رزانته ونضجه المستفزّين لعرفنا لماذا كانت بداية معرفته بـ(مراد) غير موفقة، فقد أصبحوا أعداء من اللحظة الأولى.

(طه) صعيدي، بلدياتي، رمز حي للجدعنة والرجولة. منذ اللحظة التي قابلته فيها وهو عاقل كأنه وُلِدَ وفي يده غليون وعلى أنفه نظارة طبية. لا يثنيه شيء عن الواجب ولا تشتته مُلهِيات، حتى حسبناه سيصير مهندسًا ودكتورًا ورائد فضاء في وقت واحد، ربما قبل أن يلتحق بمعهد التكنولوچيا العالي. وقد كان هذا حُلمه بالفعل، أن يصير عالمًا فذًا يجعل مَن حوله يبدون أكثر غباءً. كائن مستفز، لكنه كان الأقرب إلى قلبي. (طه) كان يعلم ويعمل الصواب دائمًا ويمثل الصخرة التي نتشبث بها ونرجع إليها في نهاية الأمر.

وأخيرًا هناك (رُقيّة)، وما أدراك من هي (رقية)، رمز كل ما هو جميل وراقٍ، علميًا، هي أهم أسباب كتابة الأغاني العاطفية. (رقية) الخَجُول صعبة الإرضاء لم تكن صديقة لي بالمعنى المفهوم، وبالتأكيد لم تكن جزءًا من عصابتي لكن تأثيرها على حياتي كان لا يقلُّ عن أيًّا من السالف ذكرهم. ومثل كل النساء في حياتي، قليلات الظهور سريعات الرحيل، مثل أمي التي لم يبقَ من ذكراها إلا طيفٌ رمادي باهتٌ لا صوت له.

***

الإثنين 3 سبتمبر - ستة عشرة يومًا على بطولة الجمهورية...

عدد الأيام التي قضاها (مراد) معنا: 2.

في الصباح خرجت من الحمَّام على نداء (أم شادية)، العجوز التي كانت دكتورة (تهاني) ترسلها مرة كل أسبوع. تأتي فجر يوم الإثنين لتنظف البيت وتملأه بالطعام الذي أحاسبها عليه الأسبوع السالف.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد والكل كان نائمًا لكني وجدت باب الشقة مفتوحًا. ذهبت لأغلقه ثم توقفت حين لمحت بالخارج كيس قُمامة به ما يشبه القطن الرمادي المتسخ. تأملت فيه متعجبًا ثم وضعته مكانه بعد أن افترضت أنه حشوُ وسادةٍ أو مرتبةٍ ما. بعدها توجهت إلى (أم شادية) لأجدها أمام الثلاجة تتفوّه بأشياء غريبة وبيدها القليل من أكياس طعام والعلَبات. سألتها عن القطن لتخبرني أنها وجدته أمام غرفة أبويّ التي أعطيتها لـ (مراد).

لعنت الأخير في سرّي ثم غيَّرت الموضوع وسألتها عن مشكلة الثلاجة. ما فهمته منها هو

أن الطعام قد بدأ يتكدس وأنه يجب عليّ ألّا أطلب المزيد حتى ينتهي المخزون. ذهبت لأتأمل محتويات الثلاجة وفوجئت أنها كانت مُحقّقة، فالطعام تقريبًا كما هو. كيف لم ألاحظ ذلك؟

نحن أربعة أفراد، ماذا كنا نأكل إذًا الأيام السابقة؟

هززت كتفي بعدم اكتراث ثم ترددت لحظة قبل أن أسألها إن كانت تعرف ما تلك "البشعة" التي سيحتكم (ولاد عيطة) إليها في نهاية الشهر العربي. وما عرفته منها كان رهيبًا.

فالبشعة، كما شرحت لي، هي طريقة قديمة لمعرفة الكاذب، وهي ما يُطلق على القرص الحديدي الذي يتم تسخينه حتى الاحمرار ثم يوضع على لسان المتهم بالكذب. والأسطورة تقول إنه لو كان صادقًا لن يحترق.

جفّ حلقي واقشعرّ بدني من هول ما سمعت لكني تماسكت بقدر الإمكان حتى غادرت (أم شادية) بعد أن ربّتت على كتفي بحنان ومصمصت شفتيها كعادتها منذ وفاة أمي. وجدت نفسي بعدها أتجه لغرفة (مراد) مباشرةً وأطرُق على الباب. لا بد أن نُسرع في تنفيذ خطتنا قبل أن يضعوا الحديد الملتهب في أفواهنا. انتظرت لوهلةٍ قبل أن يأتي صوت ضيفي يسأل عمّن بالباب.

- أنا يا (مراد). هنبتدي النهارده؟

أجابني من وراء الباب:

- لا. أنا وإنت هنحتاج وقت علشان نبقى جاهزين. حاول إنت بس تأجل الدراسة شوية.

- إنت مش خايف من البشعة دي؟

- لا، بالعكس. ركز إنت بس على هدفك وسيبلي حكاية البشعة دي.

هززت رأسي مستسلمًا وقلت:

- طيب هنجهز إزاي مش فاهم؟ وإمتى هنبتدي؟

- ما تقلقش.

- مقلقش إزاي؟ إنت بقالك يومين جوّه الأوضة وأنا معنديش استعداد اتكوي بالنار.

قلتها مُحتدًا انتظرت بعدها لحظة صمت طويلة قبل أن يأتيني رده:

- طيب اقعد أوصاد الباب.

- على الأرض؟

قلتها بنبرة متشككة ليجيبني هو من وراء الباب، وقد بدا لي أنه قد جلس على أرضية غرفته:

- ممكن؟ ولّا قرفان؟

عضضت على شفتي وكظمت غيظي قائلًا وأنا أجلس على البلاط البارد:

- أربني قعدت. وبعدين؟

جاءني رده من الجهة الأخرى من الباب:

- قولّي... إيه أكتر حاجة نفسك فيها؟

- ما أنت عارف.

- البطولة؟

- أيوه يا (مراد). إنت بتسأل؟ أومّال أنا بعمل كل ده معاك ليه؟

قلتها بنفاد صبر ليأتيني رده:

- أصلي مش مصدقك.

- هو إيه اللي مش مصدقني؟؟ عايز أكسب المباراة طبعًا.

- بس؟

سألني من وراء الباب لأجيبه من بين أسناني التي كانت تطحن بعضها:

- وأمسح (رزق) من على وش الدنيا.

- بس؟

- هو إيه اللي بس؟؟؟ أيوه بس.

هنا همس صوت من ورائي:

- وأبوك؟ وأمك؟

تجاهلت الظاهرة العجيبة ولكمت الباب بكل قوتي صائحًا:

- ملكش دعوة بيهم!!

بترت كلامي حين شعرت به يلكم الباب من الناحية الأخرى هو الآخر ويصيح مثلي:

- ملكش دعوة بيهم!!

تخشّبت مكاني للحظة.

- إنت بتقلّدني ليه؟

قلتها في نَفس اللحظة التي شعرت فيها بهواء خفيف خلف أذني اليسرى كأن هناك من يتنفس ورائي. تلفّتُ حولي باحثًا عن مصدره، لكن لا شيء، الشقة خاوية تمامًا وغرفة (حسن) و(طه) مغلقة. ثم باغتني (مراد) حين قال:

- أنا بيص من مكان تاني، مكان مخليني أشوف الدنيا من منظور مختلف تمامًا عنك. خليك إنت معايا بس. غمض عينيك وحط إيديك على الباب.

- ليه؟

- علشان "النوايا والأغراض".

- نعم؟؟ نوايا إيه ومنظور إيه ومكان تاني إيه؟ أنا مش فاهم حاجة من اللي إنت بتقولها.

- وبعدين؟ مش اتفقنا إنك لا تسأل ولا تعترض؟

امتثلت على مضض ووضعت كفّي على الباب ثم أغمضت عينيّ وأطلقت زفيرًا غاضبًا.

- فاكر آخر حاجة قالهالك أبوك؟

قطّبت حاجبيّ بقوة عندما سمعت هذا السؤال فقد كنت أكره تلك الذكرى.

حاول متبقاش فاشل في المعهد زي ما فشلت في الثانوية العامة.

هذه كانت آخر جملة قالها لي أبي من دون اهتمام حقيقي.

في تلك اللحظة سمعت صوت شيء معدني يُجرُّ على البلاط في مكانٍ ما بالشقة لكن (مراد) بادرني قائلًا:

- إوعى تفتح عينك. افتكر بقية المشهد.

تذكرت ما قلته لأبي وهو يتجه إلى باب الشقة:

هتيجي تاني إمتى؟ ولا أنا اللي هروحلك القاهرة؟

سمعت صوت سلسلة حديدية غليظة تتحرك خلفي.

ربنا يسهل. كان رد أبي وهو يفتح باب الشقة.

شعرت بالسلسلة تقترب منّي.

- (مراد)، مين اللي ورايا؟

- خلّيك زي ما أنت. افتكر.

بدأ الغضب يتأجج بداخلي وأنا أتذكر بقية الحوار، وكوّرت يديّ في شكل قبضتين دون أن أرفعهما عن الباب.

يعني مش هشوفك تاني يا بابا؟

قُلتِلك ربنا يسهل.

ضربت بقبضتيّ على الباب.

وضرب (مراد) الباب من الداخل بنفس القوة. وبعد لحظة صمت أضاف بمنتهى القسوة:

- طيب فاكر آخر مرة شفت أمك فيها؟

- قلتلك ملكش دعوة بيها!!

هكذا صرخت حتى كدت أجرح حلقي وفي تلك اللحظة شعرت بالسلسلة الغليظة تلمس ظهري.

تخيلت باب الشقة الذي فتحه أبي وخرج منه دون كلمة أخرى. وتذكرت نظرة زوجته الجديدة المليئة بالشك والاشمئزاز من خارج الشقة. قارنتها بابتسامة أمي الحانية فيزداد غضبي وأضرب الباب مرةً أخرى.

وفي تلك المرة أيضًا فعل (مراد) مثلي.

شعرت بالسلسلة تتسلق ظهري حتى وصلت إلى رقبتي.

تذكّرت أني ركضت إلى باب الشقة وأغلقته بكل قوتي حتى كدت أخلعه من مكانه. ذهبت بعدها لغرفة أمي وضربت بابها بقدمي بكل قوتي. ثم انبتر حبل ذكرياتي بغتة، كأن هناك من قام بطمسها حتى اللحظة التي ظهر فيها (حسن) وضمني إلى صدره لأبكي عليه للمرة الأخيرة في حياتي.

التفّت السلسلة حول رقبتي.

أخذت أضرب باب غرفة (مراد) كما فعلت بباب الشقة بعد رحيل أبي.

بدأت السلسلة تضيق. توقفت عن الطَرق وبدأ الذعر يتسلل إليّ ويحلُّ محلّ الغضب.

- (مراد)، إنت اللي بتعمل كده؟

شعرت بالأخير ينهض من جلسته خلف الباب فأمسكت السلسلة وحاولت التملُّص منها.

- (مراد)!!! السلسلة هتخنقني.

بدأت أختنق وبدأ صوتي يتحشرج.

بدا لي أنه استلقى على الفراش بالداخل.

لكنه لم يردَّ على نداءاتي.

بدأت أركل الهواء وحاولت النهوض لكني تعثرت ووقعت ليرتطم رأسي بالحائط.

- م... (مراد)... الحقن... أنا...

اسودَّت الدنيا أمامي وبدأت يدي ترتخي من فوق السلسلة، لكني استطعت أن ألمح وجه (طه) المحتقن. كان آخر ما شعرت به هو يده وهي تحاول تحريري من السلسلة... قبل أن يُغشى عليّ.

***

أفقتُ لأجد نفسي جالسًا على الأريكة العتيقة ووجه (حسن) الممتلئ يحدِّق في وجهي في قلق.

- (طه)، ده فاق.

انتفضتُ جالسًا لأنظر إلى يميني جهة غرفة (مراد) وأنا أتحسس رقبتي.

- كنت هتتخنق، إيه اللي حصلّك؟

انتبهت إلى (طه) الذي ألقى هذا السؤال لأجده جالسًا على كرسي السفرة ووجهه الأبيض محتقن غضبًا كعادته منذ ظهور (مراد). تدخل (حسن) قائلًا:

- (طه) بيقول إنه صحي على صوت خبط وزعيق، طلع لقاك مرمي على الأرض ووشّك أزرق.

فكرت لوهلة في مخرَج من هذا المأزق فلم أكن أريد أن يتطرق الموضوع إلى (مراد)، لم

أكن أريد أن أصيبهم بالذعر. أما الأخير فسوف أتعامل معه فيما بعد.

- فيه حاجة كانت واقفة في حلقي. شكرًا يا (طه)، أنقذت حياتي.

قلتها بنبرة مَرِحة ونهضت لأُربّت على كتفه، لكنه ظل مُحدّقًا في وجهي من دون أن يُبدي أي رد فعل.

- بس ده (طه) بيقول إنه لمح إيدك حوالين رقبتك. كنت بتخنق نفسك ولّا إيه؟

- وده كلام ناس عاقلين برضه؟

قلتها مازحًا قبل أن أستدير تاركًا الصالة، موقنًا أن (طه) لن يترك الأمر لحاله.

(5)

منذ نعومة أظفاري حتى عبرت الخمسين من عمري كنت أرى الخريف بعينًا مختلفة. كنت أشعر أنه يأتي دومًا بتركيبة ألوانه الخاصة، بدايةً من الأبيض الباهت حتى الرمادي الأدكن ليكتسي بعدها كل شيء بتلك الطبقة الخفية، التي تعطيه هالةً هي مزيج من الشيخوخة والشجن. جميع المشاهد توحي بالخمول، حتى إيقاع الأشجار البطيء وانسياب الطيور حولها كأنها تخشى أن تخفق بأجنحتها فينضب مخزونها من الطاقة. ومع اقتراب الدراسة تعلو نغمة كئيبة وتظهر رائحة الكتب الجديدة، قبل أن تعود برامج الراديو الصباحية لتصدي في البيوت.

وسط كل تلك الطاقة السلبية الخام وجدت نفسي مرغمًا على العثور على الحماس والأمل، فميعاد البطولة لن يتحرك مبتعدًا لمجرد أنني لم أكن مستعدًا لها. تركت صديقيّ القلقين وضيفي الغامض وخرجت لأتريض حسب جدول التدريب القاسي. لكن بذهنٍ شاردٍ.

ما الذي حدث لي أمام غرفة (مراد)؟ أنا لم أخنق نفسي بكل تأكيد. تساءلت وأنا أخرج من العمارة لأجد بدويًا مُلثمًا يجلس في المساحة الرملية التي تفصلها عن سور المعهد. أمامه حفرة بها حطب مشتعل أسفل إبريق يغلي فيه الماء. ما إن رآني حتى ثبّت عينيه الثاقبتين عليّ وظل يتابعني حتى اختفيت عن ناظره.

تأكدت لحظتها من خطورة الاتفاق الذي أبرمته مع (مراد)، الفرصة التي ألقاها القدَر في طريقي كي أحقق ما كنت أتحرّق شوقًا إليه. تأكدت أنني قد راهنت بكل شئ عليه.

لكن ماذا عن (مراد) نفسه، ما الذي يفعله هذا الشاب المثير للرهبة وحده خلف الباب المغلق؟ وما الذي سيجنيه من كل هذا؟ بالتأكيد لم يفعل كل ذلك لأنه يدين لي بإنقاذه من انتقام أهل (مروان) كما قال لي. شخص له تلك القدرات البدنية والجرأة التي تصل لحد الجنون لقادر على الهرب منهم بمنتهى السهولة.

لماذا قُبِل بهذا الوضع؟ ولماذا بدا عليه أنه فُرِحَ بموضوع البشعة وكأنه كان ينتظرها؟

هل كان ظهوره في حياتي صدفةً من الأساس؟

ثُرى... هل يمكنني أن أتراجع؟

لا تسأل ولا تعترض.

نفضتُ تلك الأسئلة عن ذهني وذهبتُ متثاقلًا للنادي، شاعرًا بما تشعر به النعجة وهي تُقاد لسلخها. هذا بعد أن استنفدتْ تجربتي المخيفة ذلك الصباح معظم طاقتي. لكن كان يجب

عليّ أن التزم بزوتيني كي لا أثير الشكوك.

في نهاية التدريب منعدم الحماس لمحت أصدقائي يدلفون إلى الصالة العملاقة. جلس (طه) يرمقني في مكانه المعتاد أعلى المدرجات في وقار مستفز، بينما انهمك (حسن) في قرض أصابعه وهو يتابع المباريات.

ابتسمتُ والتفتُّ لخَصمي الذي وقف قُبالتي على البساط. بدأت المناوشات بيننا لكن سرعان ما شتّت انتباهي شيءٌ آخر: ذلك الوجه الملائكي الذي أضاء الصالة. عند الباب العريض رأيت فتاة بهية الطلة عسلية العينين ذات شعر بُنّي كثيف تقف وسط صديقاتها.

(رُقيّة)... الفتاة التى استمتعت بتجاهلها طيلة الأعوام السابقة. أم هي التي كانت تتجاهلنى؟ لا يهم؛ لأني سأتجاهلها أكثر مما تتجاهلني أو... حسنًا، هذا كلام لا معنى له.

كانت (رقية) تعاملني كأنني غوريلًا همجية وجودها وسط الطلاب خطأ فادحًا حتمًا سيتم تداركه قريبًا. وهى، في أحيانًا كثيرة، تكون محقة. وتلك اللحظة بالذات، حين رأيت وجهها الذي كان يعبس تلقائيًا حين يراني، كانت خير مثال على ذلك.

فقد كانت لحظة غريبة.

عند بدء أي نِزال، ولسببٍ لم أعرفه قط، يبدأ الوحش بداخلي في الدمدمة. بعدها أرى أن خَصمِي قد تحول في عيني إلى قرد جاء ليعتدي على أرضي. ربما كان ذلك طبعي كما كان أبي يقول، طبعي الذي جعلني كما قلت من قبل، لا أتقبّل فكرة الهزيمة، بل وأرتعد منها. فأكثر ما كنت أخشاه هو أن ينظر لي أحدهم كما كان يفعل؛ كأني شخص فاشل لا يستحق الهواء الذي يتنفسه.

ما إن أطلق المدرب صيحة بدء النّزال حتى انقضضتُ على القرد المسكين، أقصد اللاعب المسكين، وأمسكته من تلابيبه ثم انحنيت للخلف ولويت جسدي لأسحبه تحتي. زأر الوحش الذي كان يسكن بداخلي كأنه قد خرج ووقف في ظهري ينفث غضبه في أذني، وأنا أجثم فوق أنفاس خَصمِي كالخرتيت.

كما قلت، كانت لحظة غريبة.

أتذكّر صياح منافسي من تحتي يحثُّني على تركه وهتاف الحكم معلنًا فوزي بالنقطة. ثم حدث ما جعلني أتركه ليسقط على الأرض وأحدِّق في وجهه مصعوقًا، وجهه الذي صار مقلوبًا. تراجعت للوراء غير قادر على النطق قبل أن ألمح بطرف عيني وجه مدربي الذي تبدلت ملامحه هو الآخر ليصير فمه مكان عينيه وذقنه أسفل شعره مباشرةً.

وكلاهما كان يهمس بشيء لم أفهمه.

أدرت رأسي ببطء إلى مدربي لأجد وجهه طبيعيًا ثم إلى خصمي، لأجده يرمقني بمقت وقد عاد وجهه هو الآخر كما كان. تلفّت حولي لأجد جميع مَنْ في الصالة ينظرون إليّ باستغراب، فتراجعت معتذرًا واتجهت لأبدل ملابسي. في طريقي للهروب من الصالة والموقف كله خطفت نظرة إلى (رقية)، فوجدتها تغادر بعد أن بادلتني بأكثر نظرة مشمئزة ممكنة.

***

لحق بي أصدقائي خارج النادي، رغم محاولتي لتفاديهم. وكما توقعت، كان أول شيء تطرّق له (طه) هو ما حدث في الصالة وعنفي المبالغ فيه. لم أجادله لأنه كان مُحقًا كعادته، لكني شعرت أنه أعطى الأمر أكبر من حجمه عندما قال إنه يشعر بتغيير في سلوكي بشكل عام وبالطبع ذكر اسم (مراد). لم أخبره بما رأيت على البساط فلم يكن ذلك هو المكان ولا الوقت المناسبين، ناهيك عن عدم وجود تفسير له غير بعض الغضب غير المُبرَّر الذي أعمى بصيرتي. ربما كان (طه) على حق لكني لم أعترف له بهذا.

في طريقنا إلى البيت انخرطت في جدالٍ مع (حسن) عن الرياضة الأكثر عنفًا وبأسًا. كان رأيه أنها الكونج فو؛ خصوصًا أن تلك الفترة كانت العصر الذهبي لأفلام النينجا، بينما انحزت أنا للعبتي. فمن المعروف أن لاعب الجودو لا ينهزم في معركة، لكني كنت أعي أن الغرض الحقيقي من ذلك الحوار هو تهوين ما رأوه جليًا على وجهي بعد خروجي من الصالة. استجبت لمحاولتهم للترفيه عني وجاريتهم حتى نجحت في نسيان ما رأيته في النادي لتعود لي شخصيتي المنطلقة. بعد ذلك تقهقر (طه) و(حسن) وانخرطا في جدالٍ هامس.

لم أعِر الأمر اهتمامًا في بادئ الأمر إلى أن انتبهت لما يتهامسون عنه.

خلفنا بمسافة لا بأس بها رأيت مشهدًا مُخيّرًا، مشهد كان نجمه ذلك المجنون الذي آويته في بيتي. كان البدوي الملثّم يمشي خلف (مراد) الذي كان بدوره في أثرنا، وقد اخترت تعبير "في أثرنا" دون غيره لأن هذا ما كان يفعله بالضبط. توقفت وقد استحوذ المشهد على كل اهتمامي، ليس لوجود ذلك الموكب العجيب خلفنا ولا بسبب أعين البدوي التي لا تنفكّ ترمقنا بقوة وعدائية، لكن بسبب (مراد) نفسه.

ما الذي يفعله ذلك المجنون؟ ومتى خرج من البيت؟ وكيف عثر علينا؟

نظرت إلى أصدقائي لأجدهم في نفس حيرتي ثم حولت بصري مجددًا لأغرب ما رأيته في حياتي... حتى تلك اللحظة على الأقل. فقد كان (مراد) ينظر إليّ مباشرةً بنظرة زجاجية

لا حياة فيها، وهو يهمس لنفسه بينما تنتقي أقدامه آثارًا بعينها.

إنه بالفعل يخطو فوق آثار خطواتي.

فوقها تمامًا.

(6)

خرج (حسن) بلباس التريُض من غرفته وعلى وجهه تعبير بالخجل مثير للضحك بسبب ضيق الملابس عليه. ورأينا العرق واضحًا على جبينه ليكون أكبر دليل على حجم المعاناة التي مر بها حتى يدخل فيها. تجاهلته واستكملت جدالي الساخن مع (طه)، الذي كان يجلس على رأس المائدة متعمدًا عدم النظر إليّ وهو يتصفح الجرائد وإعلانات الوظائف.

- أنا جاهز للتمرين، قولّي أعمل إيه.

قالها (حسن) ليشير (طه) إليه دون أن يتخلّى عن نبرته الفحتدّة:

- مش إنت وعدت (حسن) إنك هتقولُه على بقية التمرينات اللي هتخلّيه يخس؟ اتفضل شوفه عايز إيه. ولّا هتتجاهله زي ما انت متجاهل كل حاجة إلا مباراتك الزفتة دي؟

قال الأخيرُ بصوت ضعيف كأنه يخشى أن نقحمه في جدالنا:

- أنا مش مستعجل. لو هو مش فاضي نخلّيها بعدين. ممكن أعيد التمرينات اللي قالّي عليها قبل كده.

بنفس مستوى الحدّة التفت (طه) إلى (حسن) قائلًا:

- يابني بلاش تبقى جبان كده. قول اللي أنت عايزه، متخفش.

هنا قررت إعادة مسار الحديث إلى أصله:

- ميعادنا مع الشيخ (بدر) آخر الشهر العربي، يعني بتاع أسبوعين، مش مستاهلة موقفك ده يا (طه). وبعدين ده مش بمزاجنا، أنا وصلت للاتفاق ده مع البدو بالعافية. ولّا إنت فِكّرك إنهم كانوا هيسيبوا اللي كان هيموّت ابنهم بالسهولة دي؟

جاء رد (طه) دون أن يترك ما يفعله:

- بالعافية؟ يعني إنت وهو مكنتوش متفقين عليه من الأول؟ عايز تفهّمني إنه ظهر في حياتنا كده صدفة؟ وبعدين موقفي أنا اللي غريب؟ والموقف اللي إحنا فيه ده هو اللي طبيعي؟

قال (حسن) محاولًا أن يخرج صوته واضحًا:

- طيب، أنزل أنا أجيب الحاجات اللي (مراد) طلبها؟

توقف (طه) عن الكتابة وأشار إلى (حسن) دون أن يلتفت إليّ:

- اتفضل يا سيدي، حاجات إيه بقى اللي طلبها الباشا اللي جوه؟ وبعدين ليه نوافق أصلًا إنه يقعد معانا؟ إنت شفت البدوي المرعب اللي قاعد أوصاد البيت؟ ولّا المنظر العجيب اللي كان ماشي ورانا وإحنا راجعين من النادي.

لم يؤثر صوت (حسن) وهو يلقي السلام قبل أن يتركنا على مجرى حديثنا، بل لم أسمعه في الأساس وأنا أجيب (طه):

- لأ طبعًا. بس دي فترة صغيرة وهتعدّي.

- خلاص. سيبني أدور في الجرايد بقى.

لم يَرُقْ لـ (طه) الأعذار الواهية التي ظللت أكررها ورأيت في عينيه اتهامًا لم ينطق به. كان لدى صديقي طويل القامة نقي القلب بوصلة أخلاقية لا تخطئ، كان يشم رائحة شيء خبيث في موقفي تجاه ضيفنا المريب لكنه لم يضع يده عليه بعد. سَبَبتُ (مراد) في سرّي فما كان يفعله وهو يمشي خلفنا يستحق قلق (طه).

يستحقه تمامًا.

تحسست رقبتي لا إراديًا وتساءلت بيني وبين نفسي: تُرى كيف سيكون رد فعل (طه) لو علم بتفاصيل اتفاقي مع (مراد)؟ أقل شيء كان سيحاول منعي من المضيّ فيه وربما كان سيلملم أشياءه ويغادر.

ساد صمتٌ مشحونٌ لدقائق قليلة أنهاها (طه) بأن وضع القلم على المائدة وأردف:

- وبعدين مش إنت حلفتلهم إن اللي حصل مع (مروان) كان هزار؟ (بِشعة) إيه بقى اللي عايز تروحلها؟ إنت هتصدق الخرافات دي؟

في تلك اللحظة، والحوار على أشُدّه، لمحت الحركة.

في الممرّ الذي كان يحتوي على أبواب الغرف الثلاث والمرحاض، رأيت شيئًا لا يرتفع فوق نصف المتر يخرج من الممر بسرعة.

- طب وطّي صوتك.

قلتها وأنا أنهض وأتجه لأجلس أمامه كي أكشف الصالة والممر بصورة أفضل، وقد بدأت دقات قلبي تزداد سرعةً. احتقن وجهه الدائري الأبيض وأغلق الصحيفة بعنف ثم التفت لي متهكمًا:

- جرالك إيه يا بطل الجودو العظيم؟ من إمتى بتخاف كده؟

لاحظ (طه) نظراتي العالقة بالممر وغرفة (مراد) فاستطرد:

- ما هو لو إنت خايف يبقى اللي بيقولوه مظبوط، يبقى الموضوع مكنش هزار وإنت بتكدب علينا كلنا. لو فعلًا خايف من (رزق) أو الواد اللي جوّه ده قُولّي وهنحلّها مع بعض.

أجبته وقد جاء دوري ليحتقن وجهي:

- خايف إيه يا (طه)؟ إنت مكبّر الموضوع ليه كده؟ أنا مبكدبش ومابخَفْش!!

"أنا مبكدبش ومابخَفْش!!"

ما هذا...؟

هنا اختفى التعبير الغاضب من وجهي بغتةً ليحلَّ محلّه التعجب.

هل سمعت للتوّ صدى كلماتي؟

- لازم تواجه خوفك. لازم تواجه (رزق)، ولوحدك.

قالها (طه) ليصرف انتباهي عن ذلك الصدى ثم تبادلنا نظرة تحدٍّ، أنهيتُها أنا بأن نظرت إلى (حسن) الذي عاد لتوّه وأغلق باب الشقة خلفه بكل قوته. قطّب (طه) حاجبيه باستغراب وانتبه إلى (حسن) الذي تقهقر مبتعدًا عن الباب وهو يحدق به بوجه هرب منه الدم.

- مالك يا (حسن)؟ رجعت بسرعة ليه؟

سألته بينما اقترب منه (طه) وأمسك كتفه لينتفض (حسن) مذعورًا.

- فيه إيه؟؟؟ فيه إيه؟؟؟

صرخ الأخير ونزع يد (طه) من عليه كالملسوع قبل أن يلتفت إلى باب الشقة مرة أخرى ويبتعد عنه في رعب.

- فـ... فيه حد برّة.

قالها (حسن) بصوت مرتعش وأنفاس مبهورة.

- هو إيه اللي فيه حد برة؟

كان سؤال (طه) قبل أن يجيبه (حسن) صارخًا:

- بقولك فيه حد برة!!! حد كان مستخبّي في الضلمة تحت السلم وحاول يمسكني وأنا نازل.

ثم جلس على أحد كراسي السفرة ليلتقط أنفاسه وانحنى بصعوبة ليشمّر عن ساقه. تبادلت مع (طه) نظراتٍ مصدومةً حين رأينا تلك الآثار الملتهبة التي تظهر واضحة فوق كعبه.

- كانت سلسلة.

قالها (حسن) وهو يتأوّه.

"سلسلة"؟؟

رنّت هذه الكلمة في رأسي لكنني احتفظت بوجهي جامدًا بينما أضاف (حسن):

- حد لفّها حوالين رجلي وسحبني. لولا إني تقيل كان زماني دلوقتي معاه تحت السلم.

- مين يا (حسن)؟ مين اللي عمل كده؟

سأله (طه) وهو يركض إلى الشرفة لعله يلمح هذا الشخص وهو يهرب.

- معرفش، والله معرف!!!

- طيب خلاص، خلاص. استنّى هنا، هنشوف إحنا.

قلتها وأنا أتقدم من الباب وأفتحه بحذر ليتراءى لي السلم المظلم. صاح (طه):

- استنّى!! أنا جاي معاك.

التفتُّ إليه وأسرعت قائلًا:

- لا!! خليك في البلكونة علشان تشوفه لو هرب من العمارة.

- إنت مش خايف؟ إنت متخيل القوة اللي كان بيسحبني بيها؟

سألني (حسن) بعد جملتي الأخيرة.

في حقيقة الأمر لم أكن خائفًا، بل مرعوبًا. مرعوبًا مما كان ينتظرني بالأسفل ومرعوبًا أكثر أن يتضح أنه مَن استنتجته، الشخص الوحيد الذي لديه تلك القوة.

في تلك اللحظة لمحت بطرف عيني باب غرفة (مراد) يُفتح من دون صوت ودون أن يلاحظاه.

- خلّي بالك!! لو شُفت حاجة ناديني على طول...

قالها (طه) قبل أن يبتر جملته حين سمعنا صوتًا غريبًا بينما أدار (حسن) رأسه إلى

مصدره.

كراااك.

انبطح (حسن) أرضًا مذعورًا وانتفضت أنا في مكاني كالملسوع، واضعًا يدي أمام وجهي لأحميه، بينما دلف (طه) من الشرفة بسرعة البرق ليحدق في ذهول إلى مصدر الصوت: اللوحة المنقوش عليها آية الكرسي المعلقة على الحائط الملاصق للسفرة، فوق (حسن) بالضبط... والتي انكسر زجاجها إلى ألف قطعة.

***

- إيه... إيه اللي عمل كـ... كده؟

تلعثم (حسن) بصوت متهدج وهو يسأل بعد أن اقترب من حافة الانهيار. تبادلت مع (طه) نظراتٍ مذهولةً واقتربنا بحذر من اللوحة القرآنية المكسورة.

- حد لاحظ الحاجة اللي طارت وكسرتها؟

قالها (طه) لكنه لم يلقَ منّا إجابة فقررنا أن ننحني لنفحص اللوحة، كل مليمتر بها، ثم التقطنا الزجاج وحاولنا جمعه ثانيةً لسبب عبقري ما. أضعنا الكثير والكثير من الوقت في محاولة فهم ما رأيناه دون جدوى. بحثنا في الشقة كلها لكننا لم نجد تفسيرًا منطقيًا قبل أن يستسلم صديقاي في نهاية الأمر ويتّكِئ (حسن) على كتف (طه) ليذهب إلى غرفته. بعدها عاد (طه) ليجلس أمامي عبر مائدة الطعام البيضويّة.

telegram: @alanbyawardmsr

- إيه اللي بيحصلنا؟ إيه اللي بيحصل في البيت؟؟

سألني لأنهض كي أضع بقايا اللوحة القرآنية في أحد الأدراج قائـلًا:

- كل حاجة ليها تفسير. اللوحة عادي ممكن تطرقع لوحدها والسلسلة ممكن (حسن) يتكعبل فيها لوحده عادي برضه.

- عادي؟ كل ده عادي؟ إنت مصدق نفسك؟ إنت مش حاسس إن فيه قلق على (حسن)؟ في الأول الكنبة وبعدين السلسلة ودلوقتي الإزاز اللي اتكسر وراه.

قالها (طه) لأهزّ رأسي بالنفي وأمط شفتي متصنعًا عدم اهتمام. رمقني بنظرةٍ ثاقبةٍ قبل أن يتركني ويذهب ليقف أمام غرفة (مراد) مفكرًا لوهلة، ثم استدار قائلًا بصوتٍ عالٍ كأنه يتعمَّد أن يُسمِع (مراد):

- اللوحة فيه حد كسرها، أنا متأكد، شخص واحد ورا كل ده.

قالها ودخل غرفته ليطمئنّ على صديقنا المسكين. عندها فقط تنفّستُ الصُعداء.

قلبي كان يخبرني أن من فعل هذا، بطريقةٍ ما، هو ساكن غرفتي المريب، وهو ما جال بخاطر (طه) بكل تأكيد.

لكنه لم يكن الشيء الوحيد المريب في هذا المشهد.

هناك تلك التفصيلة الصغيرة التي لاحظتها بعد انتهائنا من وجبتنا. فرغم أنني نهضت ممتلئ المعدة، ويقينًا فعل صديقاي مثلي، فقد كان الطعام كما هو، تقريبًا لم يُمَس، إلّا من بضع لُقيمات لا تكفي ثلاثة أشخاص بكل تأكيد.

التقطت الطبق الذي كنا نأكل منه بسرعة وألقيت الطعام في سلّة النُفايات متجاهلًا الموقف برُمّته. كل ما كنت أتمناه فقط هو أن يأتي يوم البطولة بسرعة قبل أن ينفجر كل شيء في وجهي.

لأن ما كان يحدث، كل هذا الجنون والغموض، حتمًا لن ينتهي في هدوء.

***

انتظرت حتى ذهب صديقاي للمعهد وذهبت لغرفة (مراد)، الذي قال لي من خلف الباب إنه ليس مستعدًا بعد وما زال يريد بعض الوقت.

بعض الوقت لماذا؟ لم أعرف ولم أستفسر لكنني سألته لو كان الموضوع سيتضمن المزيد من السلاسل الخانقة، ليجيبني أنه لا يعرف عمّا أتحدث عنه. ترددت لحظة قبل أن أنطق بما يضيق به صدري:

- (مراد)، اعمل اللي إنت عايزه جوّه الأوضة بس سيب صحابي في حالهم.

انتظرت أن يأتيني رده من وراء الباب لكنه لم يفعل. حسنًا لقد أنذرته ولن يهمني رأيه في شيء. هو هنا من أجل مهمة محددة وسوف يختفي من حياتي بعد ذلك ليبقيا هما، وهو يدرك هذا بكل تأكيد. ويدرك أيضًا أنني لن أسمح لأحد بحرقي بالحديد الملتهب رغم إظهاري الإذعان.

لكن كان هناك هذا الهاجس الذي ظل يُؤرّقني، هاجس يخبرني أني قد استدرجت أصحابي معي في حفرة (مراد) وأن اتفاقي معه يضمهم بطريقة ما. كأنه سجننا جميعًا وقيدنا بسلسلة واحدة خلاصنا منها لن يكون سهلًا. ارتعدت من مجرد تصوُّر اللحظة التي سيعلن فيها عن غرضه من كل ذلك وأنا أتصوره أكثر الأشياء هولًا.

رغم هذا لا بُدَّ أن أعترف أني كنت أحسده. تمنيت أن أكون مثله، غير مقيد بشيء ولا أكترث لشيء. لا أب يسبب لي عاهات نفسية ولا أمّ تخلق لي أماني أتحرّق شوقًا إليها.

نفضت تلك الأفكار وخرجت من الشقة دون أن أهتم بتلك الأكياس الملقاة بجوار صندوق النفايات، والممتلئة عن آخرها بالمزيد من القطن الرمادي الغزير والذي بدا لي لحظتها أقرب لشعرٍ طويل. ولم أهتمّ أيضًا بذلك الملثّم ذي العيون الثاقبة الذي كان يجلس في مكانه المعتاد في منتصف المسافة التي تفصل عمارتي عن سور المعهد. فقد كانت لديّ مهمة محددة تشغل بالي في تلك اللحظة وكان هذا هو الوقت المناسب لتنفيذها، مهمة كنت أحتاجها بشدة.

وقد بدأ قلبي يخفق بعنف.

***

عجيبةٌ هذه السّن. كيف ينجح الحنين لوجهها الدائري الرقيق في أن يتسلل إليّ كل مرة؟ كيف بعد مشاعر الجفاء التي صارت نهرًا هائجًا بيننا، نهرًا يزداد عرضًا عامًا بعد عام حتى صار عبوره مستحيلًا؟ متى شق هذا النهر طريقه بيننا؟ لا أتذكر. لكنها الفترة العمرية الوحيدة التي تسحق فيها العواطف جميع أشكال المنطق.

كان الموقع المثالي لتنفيذ خُطّتي الساذجة هو ناصية الطريق التي تمر بها (رُقيّة) في عودتها من المعهد. نفضت من ذهني كل ما يمتُّ بصلةٍ للبطولة والأريكة المرعبة والمجنون الذي آويته في بيتي، ووليتُ اهتمامي كله إلى المهمة الرهيبة التي تنتظرني.

عكفت على ترتيب هندامي ومراجعة السيناريوهات التي رسمتها بكل دقة طيلة شهور الإجازة. اخترت السيارة المناسبة كي أستند عليها واتخذت وضع أحمد رمزي في فيلم أيام وليالي. لكني تسمَّرت لحظة رؤيتي (رقية) على قمة الطريق وبدأت معدتي تزمجر معترضة. لحظتها نسيت بيوت الشعر ودخلات الأفلام وجُمَل أبطالها الشهيرة.

يا لي من أحمق! كيف توقعت أن أنجح في هذا؟ إنه أصعب من مواجهتي لـ (رزق).

- أيوه؟ كنت بتقول إيه؟

قطعت (رقية) تفكيري بسؤالها فنظرت لعينيها العسليتين وحاولت تذكُّر بداية الحوار. لا بدَّ أن التوتر قد شلَّ تفكيري تمامًا في اللحظة التي ناديتها فيها وفصلني عن الواقع. ثم سرَت قُشَعْرِيرَة قوية في جسدي حين نطقت شفتاها الممتلئتان الورديتان لتعيد السؤال. لا بدَّ أن مَن وصفوا الوجوه بالبدر كانوا يقصدونها. حتمًا هو كذلك، فهي حرفيًا تضيء المكان

وتطفى على ضوء النهار.

مررت بأصابعي في شعري الذي قصصته كتخليد لموضة عمرو دياب وضيقت عيني تيمُّنًا بـ (كلارك جيبل) - الذي كنت موقنًا أني أشبهه كما كانت تكرر أمي - ثم أشرت بمنتهى العبقرية للسيارة التي أستند عليها قائلًا:

- تعرفي؟ العربية دي 4×4 يعني أربعة راكب. قصدي... 16 راكب جنب بعض... ورا بعض... لا هُمَّ أربعة راكب بس بيتغيّروا. العربية دي أربعة راكب.

خرجت مني هذه الكلمات العبقرية التي ينأى الجنس البشري عنها، واضعًا يدي الأخرى في وسطي كدليل آخر على الثبات وقوة الحُجّة. لكني أدركت أني كنت أهذي.

اللعنة. سأهرب. سأستدير وأطلق ساقي للريح وستنسى (رقية) هذا اللقاء. نعم هذا هو الحل.

دار هذا في رأسي ثم... لـ... لكنها... هل تبتسم؟

أيْنعم لم تدُم ابتسامتها إلا جزءًا من الثانية عبست بعدها كأنها تحاول حرقي بعينيها، لكنها ابتسمت وهذا شيء لا يمكن محوه من ذاكرتي.

- إنت عايز إيه؟ سألتني بحدّة غير حقيقية.

- مافيش. أصل بقالي كام سنة الحقيقة... يعني، الحقيقة... بقالي كام سنة...

- مش عارف تكلمني؟ مش كده؟

- ...

هل... هل اختصرت عليّ المسافة لتوّها؟

ثم جاء بعد ذلك السؤال المنطقي: هل... هل نجحت؟

يا إلهي إنه شعور مخيف أكثر من الفشل.

ركز يا بني آدم... نعم... الشِّعر، أبيات الشعر، كان هذا هو وقتها.

لحسن حظي لم أنتقل من التفكير إلى التنفيذ. فقد قرأت فيما بعد ما كنت أنوي إلقاءه عليها وكدت أفرغ ما في جوفي.

- الصراحة...

قاطعتني بحدة حقيقية:

- أنت مش بتعمل كده علشاني. إنت واخد كل حاجة تحدّي ومعركة لازم تكسبها بأي تمن.

مـ.. ما الذي حدث؟ سألت نفسي مصدومًا.

لماذا تحولت فجأة؟ و...

هل كنت بهذا الوضوح لها؟

لكنه لم يكن السبب... صدقيني.

- في معارك بتخسرها لما تكسبها ومعارك تانية بتكسبها لما تخسرها.

قالتها ليشُلّ تفكيري دون أن أستطيع أن أدافع عن نفسي ورمتني بنظرة لم أفهمها حتى يومنا هذا. ثم تركتني.

هل كانت مُحقّة؟

لا، لم تكن كذلك. فهي لم تكن تحديًا آخر أسعى إلى الفوز فيه، بل كانت كل ما أتمنى أن تكون عليه حياتي.

جميلة، رقيقة، بسيطة و... هادئة.

حسنًا. لقد ابتسمت (رقية) وهذا يعني أن هناك أملًا.

(7)

إلى أي مدى يمكنك أن تذهب سعيًا وراء هدفك؟ ما الذي يمكنك أن تضحي به؟

مشاعرك؟ مبادئك؟ أصحابك؟ أجزاءًا من نفسك؟

... نفسك كلها؟

كان يريد المزيد من الوقت وكان عليّ التنفيذ.

بعد مغامرتي الجريئة مع (رقية) - والمحبِطة في الوقت نفسه - شعرت برغبة عارمة في الانتصار على أي شيء، شوقٍ طاغ لدفعةٍ من الدوبامين أطرد به الشك والإحباط. وبالفعل كان أمامي تحدٌ يصلح للمهمة.

كانت الدراسة قد بدأت وكنت سأحتاج إلى معجزة كي أصل للمستوى المطلوب، ناهيك أنني لم أكن قد بدأت تنفيذ ما اتفقت عليه مع (مراد) بعد، ولم أعرف ما ينتويه من الأساس، الحيلة التي ستجعلني أنال مرادي. ولذلك كان لا بُدَّ أن أجد طريقة لآخذ أول أسبوعين من العام الدراسي إجازة.

أسرعت إلى المعهد وانتظرت حتى انتهى اليوم الدراسي الأول ثم تسللت من فوق سوره. مكثت لساعات مختبئًا خلف شجرة التوت حتى رأيت آخر عاملة نظافة تغادر ويغلق عم (كامل)، الذي جاء لينوب عن (عبد العظيم)، بوابة المعهدتأملت البقعة التي بال فيها (مروان) على نفسه لتختلط عليّ المشاعر من بين ندم وشفقة لكن الغلبة في النهاية كانت لعدم الاكتراث. أشحتُ بنظري عنها وانطلقت عابرًا الفناء الفسيح إلى المبنى الرئيس ذي الطوابق الثلاثة. وفي الطريق إليه عبر ساحة الفناء الرملية أدركت مدى رعونة ما كنت أفعله.

"إيه اللي أنا بفعِله ده؟ إيه اللي أنا بعمله ده؟".

أخذت أردّد وأنا أركض عبر ردهات المعهد الخاوية، بينما كان جسدي ينتفض بقوة من فرط جرعات الأدرينالين الهائلة التي كانت تُضَخ في عروقي. لكن تلك الجرعات كانت الشيء الوحيد الذي منعني من السقوط مُغشيًا عليّ من الذعر.

اللعنة. أين ذهب؟ سألت نفسي وأنا أبحث عن مكتب مديرة المعهد بعد أن أنستني حالتي العصبية مكانه. فكرة وجودي وحدي تمامًا في الرِّدهات الطويلة ضعيفة الإضاءة مع صوت خطواتي التي يتردد صداها خلال طوابق المبنى الخاوية، نجحا في إصابتي بالذعر. لكن في النهاية استجمعت شجاعتي واستكملت بحثي. لم يكن هذا وقت التشتيت، فأنا حرفيًا أخون الشخص الوحيد الذي ساندني طيلة الأعوام الماضية: دكتورة (تهاني).

وصلت للرُّواق الذي يمتد بطول المبني ويطلُّ على الفِناء من الطابق الثاني ووجدت غايتي في نهايته: مكتب (تهاني). لم يعُد الندم ينفع الآن، فلأحصل على ما جئت من أجله وأترك المبنى الكئيب سريعًا، هكذا حدّثت نفسي. دلفت إلى غرفة المكتب وبحثت في الأدراج والأرفف حتى وجدته: ورق عليه شعار المعهد الرسمي. ترددت لحظة قبل أن..

طَقْ طَقْ.

كان هذا طَرْقًا خفيفًا ورائي.

جفَّ حلقي وانتصب شعر يدي التي تيبّست في الهواء فوق الورق قبل أن أستدير ببطء وتلتصق عيني بالباب. ضوء الشارع الضعيف الذي يسقط من ورائه كان يكفي كي أرى حوافَّه لكنى لم أرَ ظل الطارق.

هل كنت أتوهُم؟

جاءت الإجابة في صورة صوت رنين معدني خارج المكتب.

ثم... طق طق.

بدأ الذعر يتسلل إليّ وأنا أحاول استنتاج هُويّة من يطرق باب الغرفة ومعه ذلك الشيء المعدني الذي يحتكّ بالأرض مُصدرًا صليلًا مميزًا. ثم انتصب شعر رأسي حين تراءى في ذهني مشهد سلسلة غليظة تتلوى فوق أرضية الردهة. ربما كان (كامل) ومعه سلسلة البوابة الخارجية... كلّا، لقد تأكدت أنه أغلقها وخرج. ولو كان قد فتح البوابة مرةً أخرى ودخل المعهد لكنت سمعت صوتها.

(تهاني)؟

ولماذا تطرق باب غرفة مكتبها إذا كانت هي؟ وهل تمشي بسلسلة في أرجاء المعهد؟ وفي هذه الساعة؟

هل أسأل مَنْ بالباب؟

ما هذا البلَه؟ إنه أنا الذي لا ينتمي للمكان وليس الطارق.

رميت الورق ذا الشعار بنظرة سريعة ثم اتجهت للباب على أطراف أصابعي. وأنصَتُّ. هناك بالتأكيد أحدٌ خلف الباب، لا أسمع له حسًّا لكني سمعت صليل السلسلة خافتًا، وهي تلتفُّ حول نفسها وتستقرُّ على البلاط كثعبان غليظ. نظرت للضوء الذي يخرج من أسفل الباب وللمرة الثانية لم أرَ أيَّ شيء يقطعه.

طق طق.

جفلت مبتعدًا. كيف طرق الباب دون أن أرى ظلّه من أسفله؟

ومقبض الباب، إنه يدور في مكانه. هنا قفزت كالقط المذعور لأختبئ خلف المكتب وكتمت أنفاسي.

ثم فُتح الباب.

أغمضت عيني من باب الاحتياط وأرهفت السمع. إنه يدخل الغرفة، صوت السلسلة على الأرض يشي بذلك، لكنه توقف عند عتبة الباب. ثوانٍ طويلة كالدهر لم أسمع فيها شيئًا فتحت بعدها عيني وانحنيت بمنتهى الحذر لأنظر من أسفل المكتب. وللمرة الثانية لم أرَ أحدًا.

سمعت صليل السلسلة وهي تزحف على الأرض وكذلك صوت الخطوات لينقبض قلبي بقوة. إنه يتحرك في الغرفة، كيف لا أراه؟

تدريجيًا سمعت صوت همهمة مكتومة كأن هناك مَن يهمس. لكن المرعب في الأمر أنها لم تأتِ من أمام المكتب حيث كان يقف الدخيل الغامض.

بل من خلف أذني.

التفتُّ مذعورًا وقد فقدت أعصابي تمامًا، وأنا أبحث حولي كالمجذوب عن مصدر الصوت.

هنا رأيت النافذة، فأنا في الطابق الثاني ويمكنني القفز بسهولة.

لكن ماذا عن هذا الذي يقف في منتصف الغرفة؟

نظرت للشباك مترددًا قبل أن أسمع زمجرةً حيوانيّةً مكتومة من أمام المكتب الذي أختبئ خلفه.

عندها، ودون أدنى تفكير، القطتُ وَرَيْقاتٍ عليها شعار المعهد، ثم قفزت في اتجاه النافذة وركلت الشيش بكل قوة. أمسكت الإفريز وتدليت لأقلّل المسافة التي تفصلني عن الأرض. بعدها تركت الإفريز لأسقط على رمال الفناء الخشنة.

لا أتذكّر كيف وصلت لشجرة التوت بهذه السرعة ولا كيف تسلقتها في قفزة واحدة.

كل ما أتذكّره هو أنه كان هناك من يركض خلفي وفي يده سلسلة ضخمة تتأرجح وتحكُّ في الأرضية، مصحوبة بلُهاثٍ كاد أن يُفقدني صوابي.

لا لم أرَهُ و لم أكن لأنظر.

لكنه كان خلفي.

ينفث في أذني بأشياء لم يَعِها عقلي.

وهذا الذي يقف في شرفة منزلي، ذلك الشاب ذو الفك العريض والحلقة العسكرية، بياض عينيه الجاحظتين وأسنانه المنتظمة يظهران بوضوح في الظلام من بعد سور المعهد.

يرفع يديه إليّ بحركة النصر.

***

في اليوم التالي، أسفل جرف شاطئ (عجيبة) العملاق وبعد انقضاء اليوم الدراسي الثاني، راقبت (حسن) يمد الخُطا قادمًا إليّ. كان يتلفّت خلفه في قلق، بقدر ما أتاحت له رقبته الغليظة، وعندما استفسرت أخبرني أن هناك مَن كان يربض له أسفل السلم. وبما أنني لم أكن في حالة تسمح بالتطرُّق لهذا الموضوع مرةً أخرى فقد أجبته بمنتهى السخافة:

- خلاص بلاش تنزل لوحدك. نبقى نجبلك بودي جارد!

تأمل وجهي مبهوتًا ثم طأطأ رأسه نادمًا على فتح الموضوع. مرت ثوانٍ قليلة استجمع فيها كرامته المبعثرة قبل أن يرفع رأسه مجددًا وينجح بصعوبة في أن يرفع جسده الثقيل على الصخرة القصيرة ويدلي ساقيه. طفق يتأمّل في صمت المياه الفيروزية والرمال البيضاء التي تنساب تحتها وبين الصخور. مسحت المنطقة حولي لأتأكد من عدم وجود أحد، ثم مددت يدي في جيبي لأخرج الورقة التي أخذتها من مكتب (تهاني). ما إن أعطيتها له حتى شهق حين تبيّن ماهيّتها وقال:

- يا نهار أبيض. جبت دي إزّاي؟

- ملكش دعوة يا (حسن)!! ملكش دعوة!!

في اللحظة نفسها تكررت الظاهرة العجيبة.

"ملكش دعوة يا (حسن)!! ملكش دعوة"

لجزء من الثانية، سمعت صدى صيحتي خلف أذني اليسرى. صعق (حسن) من رد فعلي وعاد لينكمش في مكانه لكني تجاهلت تأثير كلامي عليه، ودرت بنظري حولي محاولًا استنتاج مصدر هذا الصدى اللعين. مقتنعًا أنه في ذهني فقط وأنه يجب عليّ تجاهله استطردت قائلًا:

- أنا عايزك تكتب جواب للنادي وتمضي عليه بإمضاء دكتورة (تهاني). إنت بتعرف تقلد الخطوط.

نهت (حسن) من طلبي وقال:

- إيه ده؟ من إمتى بتستخدم الأساليب دي؟

- هتساعدني ولّا لأ؟؟

أخذ الورقة وأسرع بوضعها في جيبه قائلًا:

- طب بس بس (طه) جاي.

التفتُّ إلى (طه) الذي كان يسير على الممر الصخري الذي يدور مع الخليج ليقف أمامنا جامدًا بطوله الفارع.

- نفسي أعرف بقى، سيبتنا امبارح واختفيت فين كل ده؟

أشَختْ بعيني عبر البحر الفيروزي وزفرت مرةً أخرى بضيق، وقد بدأ شريط ما مررت به أمس في المعهد يتكرر في ذهني.

أجبته بضَجَر:

- زُحت في داهية يا عم (طه)، سيبني إنت في حالي والنبي.

صمت (طه) للحظةٍ تأملني فيها بريبة ثم أخذ نَفَسًا عميقًا وصعد على الصخرة ليجلس معنا على الصخور قائلًا:

- أنا مش قادر أفهمك. بتتصرف ببرود قوي في موضوع (البشعة) والزفت اللي في شقتنا ده، وفي نفس الوقت بتتعصَّب علينا لأقل سبب. إيه اللى مغيِّرَك كده؟

- أنا زيّ ما أنا يا (طه). إنتو اللي مركِّزين معايا زيادة.

ضيَّق (طه) عينيه ثم صدمني قائلًا:

- إنت عارف إنك إمبارح كنت بتصلّي الفجر عكس اتجاه القبلة؟

لم يكن لديَّ فكرة عما كان يتكلم عنه لذلك بادرته قائلًا:

- بقولُكوا إيه، الوضع هيفضل زيّ ما هو لغاية ما أكسب في البطولة. متقلقوش عليَّا.

اعتدل (طه) في جلسته ليقول بثبات:

- إنت شكلك نسيت (رزق)؟

قالها متعمدًا إغاظتي فصرخت:

- همّوته هو راخر!!!

تجمّد الموقف للحظةٍ بعد أن فوجئت بهذه الكلمات تخرج مني. نقلت بصري بين صديقيّ ثم طأطأت رأسي مفكرًا، لكن (حسن) قطع حيرتي قائلًا بصوت مرتعش:

- هو راخر؟ مـ... مين تاني عايزه يموت؟

رفعت عيني لأنظر إليهما لكني لم أجد ما أقوله. فلم يكن لديّ أدنى فكرة من أين أتت هذه الكلمات. لكن ما كان مؤكدًا هو أني سمعته بدقة هذه المرة؛ ذلك صدى الصوت العجيب خلف أذني.

"همّوته هو راخر"... "همّوته هو راخر".

من يتنفس خلف أذني، إنه يكرر ما أقول.

هنا نزلت من فوق الصخرة وتركتهما مصدومين لأبتعد عنهما بخُطًا واسعة. لكنني توقفت بعد عدة أمتار حين لمحت البدوي الفلثم الذي كان يراقب بيتي يقف أعلى صخور عجيبة، يراقبنا. لكني استدرت لأحدق في (طه) بعد أن انتبهت لما قاله.

عكس اتجاه القبلة؟؟

تلك هي اللحظة التي كان يجب أن أقف فيها مع نفسي لأسألها عما كان يحدث لي، أو للدقة عما كان (مراد) يفعله بي وبحياتي، لكني لم أفعل. بل جاء قراري أن أنحني للعاصفة التي جلبتها على نفسي حتى أخرج منها بسلام.

قررت أن أتجاهل السلاسل الشيطانية واللوحات التي تنكسر وحدها والطعام الذي لا ينفد.

سأتغاضى عن الأريكة المتوحشة والفرو الرمادي ومَنْ أو ما يربض لـ (حسن) في الظلام.

سأجاري المجنون صاحب الكلب الذي آويته في بيتي وميعادنا المخيف في نهاية الشهر العربي.

سأستمرُّ في طريقي... وسأحصل على "مُرادي" مهمَا كان الثمن.

هكذا كنت أصرخ ويصرخ معي الصدى خلف أذني.

الفصل الثاني

للعملة وجه ثالث

(1)

الأربعاء 5 سبتمبر أربعة عشر يومًا على بطولة الجمهورية...

عدد الأيام التي قضاها معنا (مراد): فقط 4، رغم أني شعرت أنهم كانوا دهرا.

استيقظت بشعورٍ خانق، كأن الشتاء بكآبته قد عَجَّلَ من قدومه إلى حياتي وحدها دونًا عن بقية الدنيا وجثم على الموجودات كلها. كنت أرى أمام عيني ثِبعات اختياري للطريق الذي شَقَّهُ أمامي (مراد) ليزداد الشرخ بيني وبين (طه) اتساعًا. لكن لا بأس، سوف أُصلح كل شيء بعد البطولة، هكذا خَدَّرت نفسي، فقط يجب أن أفوز.

عدتُ من الخارج ومعي طلبات (مراد) من أكياس ملح وزيت زيتون وأوانٍ بلاستيكية، لأجد (طه) يقف عند غرفة الأخير يسترق السمع. انتفض حين شعر بي ليلتفت إليّ والذنب واضح على وجهه. ثم بادرني قبل أن أسأله عما يفعل:

- إمبارح حد حاول يدخل علينا الأوضة وإحنا نايمين.

- (طه)، (مراد) مبيطلعش من أوضته.

قلتها بنفاد صبر ليضيف بوجهه الذي أصبح دائم الاحتقان لأقل سبب:

- وده طبيعي؟ الواد ده بيعمل إيه جوّه؟ ده حتى مقرّبش من الأكل اللي انت حاطتهوله.

تأملته لوهلة دون أن أجيب ثم انحنيت في برودٍ لالتقط طبق الطعام الرابض أمام غرفة (مراد) والطعام فيه لم يُمس. أخذ (طه) نَفسًا عميقًا وقال:

- خلاص مش مهم. يلّا تعالى معانا المعهد.

- عندي تمرينات، مش هينفع.

كظم غيظه وقال بصوته الجهوري:

- لو سمحت تعالى معانا.

هززتُ رأسي ممتعضًا وتركته دون رد.

انتظرت حتى تأكدت من رحيل (طه) و(حسن) قبل أن أخرج من المطبخ. تناولت طعامي على غجالة من بقايا إفطارهم الذي كان كما هو - رغم أني رأيت (حسن) يلتهم شطيرة بحجم وجهه في قضمتين ويمسح الطبق بعدها بلقيمات كبيرة - ثم اقتربت من غرفة (مراد) أسترقُ السمع أنا الآخر. لم يَزُق لي تركه في البيت بمفرده رغم عدم وجود ما نخاف عليه غير

القليل من النقود. وحتى تلك فنأخذها معنا حين نغادر. هنا لاحظت الرائحة النفاذة التي تسلّلت من أسفل الباب، رائحة نبات يحترق.

طرقت الباب فلم يأتني رد. مددت يدي لأفتح الباب فوجدته موضدا ثم سمعته يهتف من الداخل:

- جبت الحاجات اللي طلبتها؟

- (مراد)، إيه اللي بيتحرق جوّه؟

- ذكرياتك كلها.

قالها ضاحكًا فعضضت على شفتي غيظًا لكنه أسرع وقال:

- يهزر، متزعلش كده.

- مش هنبتدي النهارده بقى؟ إحنا لغاية دلوقتي معملناش حاجة يا (مراد) والبطولة بتقرّب.

- معلِش يا وحش. مش هيبقى جاهز قبل بكرة.

- هو إيه اللى مش هيبقى جاهز؟

- مش قلنا ما نسألش.

تمنيت لحظتها لو دخلت لأسحبه من ياقة ردائه الرياضي الأسود الذي لا يرتدي غيره وأقذف به خارج الشقة. لكننا ارتبطنا معًا بهذا الاتفاق ولم يعُد هناك مجال للتراجع وإلا لراح كل ما فعلته شدّى.

- إيه السلسلة اللي خنقتني دي يا (مراد)؟ واللي كانت في المعهد؟ والتالتة اللي مسكت رِجل (حسن) وهو نازل السلم؟

سألته متعمدًا ربط المواقف الثلاثة ببعض لكنه أجاب ببرودٍ قاسٍ:

- قلتلك معرفش سلسلة إيه اللي بتتكلم عليها.

ترددت لحظة قبل أن أقول:

- هو إحنا هنفضل نتكلم من ورا الأبواب كده كتير؟

لم يُجبني فعضضتُ على شفتي غيظًا وهممت أن أسأله لكنه أجاب قبل أن أفعل:

- من غير ما تسأل، الإجابة واحدة: اتفاقنا مينفعش ترجع فيه.

- واللي بيحصل ده، مش شايف إنه كتير شويتين. إيه اللي بيحصل لـ (حسن)؟ إيه اللي بيحصلّي؟

- أنا مليش دعوة باللي بيحصل بزّه الأوضة زي ما إنت ملكش دعوة باللي بيحصل جوّاها. اللي بزّه ده بتاعك واللي جوّه بتاعي.

استندت على الباب وسألته بعد فترة صمت:

- (مراد)، إحنا فعلًا هنروح للبشعة؟

- أيوَه.

- إنت عايزهم يحرقونا؟

- لازم تشوف بنفسك علشان تفهم.

- أشوف إيه بس؟

- "الحقيقة".

ما الذي يتحدث عنه هذا المجنون؟ أيّة حقيقة؟ لماذا يريد أن يضع نفسه تحت رحمة تقليد قديم مندثر يمكنه أن يسبب له ولي عاهة مستديمة؟

- متقلقش، أنا معاك. ده أنا جايلك مخصوص.

هكذا أضاف لكنني كنت قررت بالفعل ألّا أترك الموضوع يصل إلى حد الكوي بالنار، سأجد طريقة للخلاص قبل أن أضع قطعة معدنية ملتهبة في فمي ولحُسن حظّي أن ميعاد البطولة كان قبل ميعاد البشعة. لم أسأله أيًا من الأسئلة التى تصارعت في ذهني والتي لم أظن أنه كان سيجيب على أيٍّ منها على أية حال، وأنهيتُ الحوار الذي دار عبر الباب المغلق. التقطت حقيبتي متجهًا لباب الشقة لكن ما إن بلغته حتى توقفت واستدرت ببطء.

هل كانت كراسي السُفرة على هذا الوضع منذ لحظات؟ تساءلت وأنا أحدّق في الكراسي الثمانية التي انتشرت حول المائدة بطريقة عشوائية كأن إعصارًا قد ضرب المكان. هززت رأسي بغير فهم وذهبت لأعيدها مكانهم لكني شعرت ببعض بقايا الزجاج على الأرض. انحنيت لألتقط الشظايا لأفاجأ بإحدى القطع المعدنية التي وجدتها في بقايا راكية النار في شاطئ "عجيبة" أسفل المائدة.

هل كان (مراد) هو من تسلّل من غرفته بالفعل دون أن نشعر وقذف بالعملة ليحطم

اللوحة؟ وهل هو من دخل الحمّام وأغلقه خلفه؟ ما الذي يدفعه إلى هذا؟ لماذا يتعمّد إرهاب (حسن) واستفزاز (طه)؟

تأملت نقشة الوجه ولاحظت آثار رموز حوله لم تكن موجودة من قبل أن أعتدل واقفًا وأنظر إلى غرفة (مراد). وضعت القطعة في جيبي وتلفّت حولي كالمذنب قبل أن أغادر الشقة. توقفت عند وصولي الطابق الأرضي والتفتُّ لأحدق أسفل السلم. كان ضعيف الإضاءة بالفعل لكنه لم يكن مظلمًا تمامًا كما وصفه (حسن)، وبالتأكيد لم يكن هناك من يختبئ فيه. هززت رأسي مستسلمًا وغادرت العمارة وذهني في حالة يُرثى لها. كانت الأمور تسير بقوة دفع لا مانع لها، يتحرك معها عالمي كله على مُنزلَق شديد الانحدار.

ما الذي كان ينتظرني بالأسفل؟ بطولة الجمهورية بالطبع، البطولة التي أصبحت أتغاضى عن أي شيء حتى أفوز بها، والتي لم أعُد أعرف ما الذي سيحدث فيها بالضبط بعد أن أصبحت أعتمد على ما يفعله (مراد).

جايلك مخصوص! متقلقش أنا معاك! جملتان عجيبتان.

لحظتها شعرت أنه جعلني أمسك بعود ثقاب وثبت أصابعي عليه غنوةً حتى كادت شعلته أن تحرقني.

***

وضعت سماعات مُشغِّل الموسيقى على أذني وتريَّضت لساعاتٍ على أنغام الهارد روك. متجاهلًا العربة نصف النقل التي كان يقودها البدوي الملثم ويمشي بها ورائي، ركضت إلى شاطئ الغرام ذهابًا وإيابًا ثم عرَّجت في طريقي للرجوع على النادي. كانت زيارة سريعة أعطيت مدربي فيها الخطاب الذي كتبه (حسن)، والذي نصَّ على اهتمام المعهد الشديد بهذه البطولة. رجوته أن يرد على الخطاب بطلب إجازة لكي أتفرغ للتدريب.

بالفعل أعطاني طلب إجازة بأسبوعين كاملين ثم أشار إلى مجموعة من المُدرِّبين يجلسون أعلى المُدرَّجات ويراقبون اللعب بالصالة. وما فهمته منه أنهم مندوبو نَوَادٍ عريقة من أنحاء الجمهورية أتوا ليتابعوا اللاعبين؛ استعدادًا لترشيح قلة منهم للاحتراف في نواديهم. ثم أخبرني أن مكاني في المنتخب يعتمد على نتيجة مباراتي مع (رزق). أخذت منه الخطاب واتجهت إلى المعهد وقد بدأت معدتي تصدر أصواتًا عجيبة بعد سماعي ما قاله.

يا ربي... لقد تضاعف توتُّري.

هل ستعطيني دكتورة (تهاني) الإجازة دون أن تشكّ في شيء؟

***

وقفت أمام دكتورة (تهاني) في مكتبها أتلفّت يمينًا ويسارًا بحثًا عن الدليل الذي تركته خلفي، الدليل الذي يُدينني. لا بُدّ أني فعلت، فخروجي من هذه الغرفة لم يكن... حسنًا... مدروسًا. وبالفعل، المكان كان مليئًا بأشياء تحكي أحداث مغامرتي الجريئة. حانت مني نظرة للباب ثم للنافذة التي قفزت منها الليلة السابقة قبل أن ألتبه لـ (تهاني) التي كانت ترمقني باستغراب.

- وهُمّ طلبوا الإجازة دي من نفسهم؟

هنا تسمّرت كالتمثال وأنا أحدّق في عينيها البُنّيّتين الواسعتين وأسنانها ناصعة البياض وفكّها العريض. ثم بدأ هذا الوجه الجديد يدور حول نفسه حتى صار مقلوبًا، وارتسمت عليه ابتسامة ذات غمازتين وسط ملامح قمحية ذكّاء أعرفها جيدًا. هنا خرج صوتي ضعيفًا مبحوحًا لأرد على سؤالها، وأنا أحملق في وجهها المقلوب الذي تغيرت ملامحه لتصير مِلامح (مراد):

- أ.. أيوَه.

- ياه، واضح إن البطولة دى فعلًا تهمك جدًا. طيب، هديك الأجازة، بس حاول تعوّض الأسبوعين دول. دي آخر سنة، خلّى زمايلك يبلغوك أخدوا إيه.

أطرقت أمامها صامتًا محاولًا السيطرة على هلعي، بينما داعبت أصابعي القطعة المعدنية في جيبي لا إراديًا وشعرت أنها دافئة حتى قالت:

- في حاجة تانية؟

بحذرٍ رفعتُ عيني لأجد أن ملامحها قد عادت إليها فتنفّستُ الصُعدَاء بينما استطردت هي:

- أنا عارفة إنك رياضي كبير وشاطر في لعبتك، بس إنت عارف إيه أكتر المنشطات تأثيرًا؟ التفاؤل. وأقوى دَوا للتغلب على اليأس هو الإيجابية. خليك إيجابي تفاجأك الدنيا.

ثم أضافت بنبرة دافئة:

- مش ناوي تسيب الشقة دي وتشوف غيرها؟ تبتدي صفحة جديدة وتنسى...

لم تكمل جملتها لأني قاطعتها شاكرًا إياها واستدرت مغادرًا قبل أن تفضحني دقات قلبي. ما إن خرجت من مكتبها حتى يممت شطري تجاه بوابة المعهد مباشرة، ومددت الخُطا إليها

غير عابئ بنظرات الطلاب وأطقم التدريس.

انتظرت حتى ابتعدت عن المعهد مسافةً كافيةً قبل أن أخرج القطعة المعدنية من جيبي لأحدّق في الوجه المقلوب.

أثمّة علاقة بين ما يحدث لي وتلك القطع العجيبة؟

أدرتُ القرص حتى أتمكّن من رؤية ملامح الوجه لكن ما إن استقر مرة أخرى بين أصابعي، حتى فوجئت بأن الوجه ظل مقلوبًا. قطّبت حاجبيّ وأدرت القرص مرةً أخرى لكنه لم يغير موقفه.

انقبض قلبي بعد أن توصلت لنظرية مخيفة. بأصابع مرتعشة قمت بمحاولة أخيرة لكن حين وجدت أن الوجه اللعين ظل مقلوبًا يبتسم في هدوء حتى تحوّل قلقي إلى ذعر. هنا قفزت فوق إحدى الصخور وقذفت بالعملة الملعونة بكل قوتي في البحر. ظللت بعدها أتأمل مشهد المياه الفيروزية حتى هدأ روعي وقررت أن أتخلص من تلك الأقراص فور عودتي.

لكن عندما تراءي لي وجه (مراد) أسفل المياه بابتسامته المجنونة تأكدت أن نظريتي سليمة: لقد أسلمت نفسي لشيطانٍ من الإنس خطّط لكل شيء بمنتهى الدقة.

وجئت أنا بسذاجتي و ذيّلت عقدي معه بإمضاء على بياض دون أن أعرف الثمن.

(2)

السبت 8 سبتمبر...

الأيام التي قضاها (مراد) معنا:..؟

حسنًا، لا بُدَّ أن أعترف أني كنت قد بدأت أفقد إحساسي بعددها. لا بُدَّ أن الأرقام، مثل الذكرى التي تأويها، قد صار لها إرادة خاصة بها، فهي تكذب عليّ هي الأخرى. لكن يمكنني نسيان كل شيء إلا ميعاد الحدث الذي غيّر حياتي، وفي ذلك التاريخ تحديدًا كان قد تبقّى أحد عشر يومًا على بطولة الجمهورية بالتمام والكمال.

العدُّ التنازلي الذي كان يرجُّ أركان عالَمي كدقّةِ يوم الحساب.

"التفاؤل"، "الإيجابية"، رنّت كلمات الدكتورة (تهاني) في ذهني وتكررت طيلة اليوم، لكن كيف يمكنني الانتصار على الإحباط وأنا أعلم أنه لن يأتي للبطولة؟ كنت أحلم بمستقبلي الباهر حال فوزي باللقب، لكن هل سيصبح له معنى من دون أبي؟ من دون أن أرى على وجهه الندم على كل ما قاله لي؟

هل سيصبح له معنٌ دون زغرودة أمي وحضنها الدافئ.

ظل العد التنازلي مستمرًا بلا رحمة ومع كل ساعة كانت تقرّبني من مباراتي مع (رزق)، كانت طباعي تزداد حدةً وسوءًا ويقترب الإعصار من شاطئي. تبدل الشاب الرياضي الخَنوم بشخص عنيف أناني يلجأ إلى أي وسيلة، نزيهة أو غيرها، كي ينتصر في أي تحدٍّ أو مباراة أو حتى حوار.

وأصبحت دائم الصراخ بداخلي. لكن بدلًا من أن أصرخ في (مراد) كي ننهي الاتفاق المخيف - وهو ما كانت بقايا آدميتي تتوسل إليَّ أن أفعله - كان الصراخ لسببٍ آخر: يجب أن أفوز بأي شكل!! حتى لو احترقت بالكامل واحترق معي عالمي كله وبه كل من أحب.

ثم فوجئت أن (طه) و(حسن) قد قررا أن يغلقا على أنفسهما باب غرفتهما بالمفتاح الذي احتفظ به (طه) كي لا يتكرر موقف الأريكة. كان هذا هو السبب المُعلَن لكنه أفصح لي سرًّا عن يقينه من أن (مراد) يريد أن يؤذي (حسن) بصورة ما. ضحكت بعصبية من ذلك الاتهام العجيب فلم يكن هناك أي دافع لدى (مراد) كي يفعل هذا، لكني لم أجادله لأنني كنت سأصطدم برأس صعيدي قادر على شَقِّ جبلًا حتى لو كان مُخطئًا فما بالك لو كان مُحقًّا.

وبعد أن أخبرني أنه قد لاحظ أن الطعام لا ينقص من بيتنا تيقنت أن قراره بالتحصن داخل غرفتهما هو الأسلَم، فكلما قلَّ تعرضه للأشياء المريبة كان أفضل للجميع.

لكن هذا لا يمنع أن شعورًا كنت أخشاه كالموت قد بدأ يتسلل إليّ لحظة رؤيتي باب غرفتهما مغلقًا، شعور كنت في غنى عنه تمامًا خصوصًا في هذه المرحلة: الوحدة.

وفي تلك اللحظة وجدت (مرادًا) خارج غرفته. كان مفترشًا أرضية الشرفة يتأمل فناء المعهد في سَكِينة.

- أخيـرًا خرجت من قوقعتك.

قلتها وأنا أُغلق باب الشرفة خلفي. أخذت شهيقًا عميقًا ثم استدرت له وقلت بنبرة خشنة محـاولًا أن أبدو أكبر من حجمي كما تفعل القطط:

- (مراد)، إنت عايز إيه من أصحابي؟

ابتسم باستخفاف وقال:

- صحابك دول وجودهم حواليك أكبر خطر ولو تخلصت منهم هتعرف توصل للي إنت عايزه. وبالذات (طه)، لازم تسيطر عليه قبل ما يخلّي حياتك من دون طعم ولا هدف. تعمل اللي بيقولوه وتمشي جنب الحيط. تطلع موظف كحيان وهوب المعاش وهوب ترقد فوق التراب.

- قصدك تحت التراب.

ابتسم ولم يعلق فبادرته قـائلًا:

- ملكش دعوة بصحابي يا (مراد).

ذابت ابتسامته مرةً واحدة بطريقته الصادمة وقال بصوتٍ هادئٍ مخيف:

- أحب أفكّرك إن اتفاقنا مفيهوش رجوع. وإن أي حاجة هتقف في طريقنا هنتخلص منها.

خرج صوتي ضعيفًا:

- يعني إيه؟ إنت بتهدد أصحابي كده عيني عينك؟

ابتسم بخبثٍ وقال:

- يعني إنت مكنتش عارف خطورة اللي بنعمله من الأول؟ فوزك في البطولة يا وحش مش هينقذك إنت بس.

أطرقت مهزومًا قبل أن أرفع رأسي قائلًا بحزم:

- يبقى نبتدي النهارده يا (مراد). عايز اخلص من الكابوس ده في أسرع وقت.

تأملني لوهلة وزادت ابتسامته عرضًا حتى ظهرت غمازتاه، ونظر خلفي للصالة كي يتأكد من عدم وجود أحد ثم هزّ رأسه بالموافقة. لاحظت إناءًا معدنيًا بجواره به أغصان جافة ثم ضعقت حين لمحت أحد الأقراص المعدنية بين الأغصان فانتفضت واقفًا لاهتف:

- إيه ده؟؟ إيه اللي جاب الأقراص دي هنا؟ أنا رميتهم إمبارح.

- احمد ربنا إني لاقيتهم قبل (أم شادية) ما تيجي وتتخلص منهم. حد يرمي كنز ربنا بعتهوله؟

- (مراد)، إيه حكاية العملات دي؟ إنت كنت عارف إنهم معايا؟

التقط القرص المعدني وأعطاه لي ثم أغلق أصابعي عليه بقوة. لاحظت أنه لا يزال يغطي أصابعه بالخِرقَة المُتَّسخة لكن قبل أن أسأله عنها انحنى ليهمس فوق قبضتي المضمومة بكلمة لم أسمعها. وضع بعدها سبّابته على فمه ليمنعني من النطق ثم قال:

- إحنا جاهزين، يلّا بينا.

ولجزء من الثانية شعرت أن هناك شيئًا مريبًا في أصابع يده، لكنه لم يشغل تفكيري لأن هناك سؤالًا سطع في ذهني لحظتها: مَن منّا يخدم أهداف الآخر؟

***

بعد أكثر من ثلاثين عامًا لا زلت أذكر تلك اللحظة، لحظة كشف الستار عن الحدث الرئيس في مسرحية (مراد). لكن هكذا هو الحال مع كل جديد خصوصًا لو كان يخص أشياء نسيها الإنسان داخل الحديد الملتهب وكلمات معكوسة لا تُنطَق إلا همسًا. كلمات لقنّي إيّاها ضيفي المخيف وأمرني أن أضم قبضتي على القرص المعدني وأهمس بها في الأذن المنقوشة عليه، ففعلت. كلمات قد تبدو عاديةً للغاية وقرص عليه وجه دائم الدوران وضعه (مراد) بعدها في نار هادئة، أشعلها في الإناء المعدني حتى صار أحمرًا كشمس المغيب.

شعرت بعدها بإرادتي تُسلَب مني تمامًا وأنا أراقب احمرار العملة القديمة حتى فقدت إحساسي بما يحدث حولي. لم أعُد أسمع إلا همس (مراد) وطقطقة النيران التي رقد فيها القرص المعدني. ولمّا جاء الليل وانقضى ونحن على نفس الحالة، شاردين في النار كالمغيبين، غفوتُ في مكاني حتى استيقظنا ليلَ اليوم التالي. منعني ضيفي ذو الشخصية الكاسحة من ترك الشرفة إلا للضرورة القصوى وكان يأتي إليّ بما آكله، أشياء لم أعرف ما هي.

توالت الأيام على هذا المنوال وانعزلت تمامًا عن الواقع داخل فُقَّاعة صنعها لي (مراد). هكذا وجدت أن أمنيتي قد تحققت لأدخل في نفق ينتظرني في نهايته كأس بطولة الجمهورية، نفق مُصفَّح لم ينجح صوت (طه) ولا صراخ (حسن) ولا حتى طيف وجه (رقية) في اختراق جدرانه.

أكثر من مرة سمعنا خطوات (حسن) في الصالة ليركل (مراد) الشيش بقوة نسمع بعدها (حسن) يهرول مبتعدًا. ومرَّاتٍ أقل شعرنا بوجود (طه) خلف الشيش، ليسرع (مراد) بتغطية مُكوِّنات طقوسنا المُحرَّمة ويسكن عن الحركة والكلام حتى ييأس (طه) ويتركنا.

توقعت أن يرفض (طه) هذا الوضع ويتركنا ليذهب إلى بيته. لكنه، ورغم انعزالي عنهم وقلبي ليلي نهارًا، لم يفعلها، ليثبت عن جدارة أنه المثال الحي للجدعنة. ثم لم يعد أيٌّ منهما يحتكُّ بي أو بـ (مراد) وهذا لالتزامنا بالجدول العبقري: ننام وهما مستيقظان ونستيقظ وهما نائمان. ظلت الأوقات التي كنت أشعر فيها برفيقيَّ تتقلص حتى انعدمت تمامًا بعد الليلة الثالثة.

خمس ليالٍ طوالٍ كالدهر قضيتها وحدي مع (مراد) في الشرفة بعد أن تنام الخلائق. خمس ليالٍ كانت بمثابة عمرًا كاملًا. الشيء الوحيد الذي كنت أفعله مع شخص غيره هو التمرين القاسي في النادي لبضع ساعات، أرجع بعدها لأنام في الشرفة كالطفل الرضيع حتى موعدي معه مساءًا. يشعل النار على القرص المتفحم ويتركني ليذهب إلى غرفته. هذا ويظل ما يفعله بعد أن نفترق سرًا كبيرًا، حتى بالنسبة إليَّ.

(3)

الخميس 13 سبتمبر - ستة أيام على البطولة.

هل كان (مراد) معي دائمًا؟ سؤال أجد نفسي بعد مرور أكثر من ثلاثون عامًا لا أستطيع الإجابة عليه.

خمس ليالٍ وستة أيام كاملة لقُنني فيها (مراد) كل ما تعلمه من بدو "أولاد جِهام"، كما ادّعى. ثم جعلني أعِدُه ألّا أستخدمه إلّا للضرورة القصوى؛ خصوصًا أن الأقراص المعدنية عددها كان محدودًا. وبعد أن انتهى تركني ليدخل غرفته مترنحًا من الإجهاد، وبقيت أنا في الشرفة أراقب (حسن) و(طه) وهم يمدّان الخُطا للمعهد.

لحظتها تخيلت أني سمعت هزيمًا مكتومًا، دمدمةً مثل تلك التي تهدر فوق السُحب المتكتلة قبل العاصفة، الإعصار الذي كان ينمو بداخلي ويهدد بالتهام كل شيء. لكن على الجانب الإيجابي كنت أشعر أن تركيزي ونشاطي في قمتهما.

جهزت حقيبة التدريب واتجهت للخروج من الشقة مرورًا بغرفة (مراد)، وهناك تسمّرت مكاني. استطعت تمييز صوتين مختلفين تلك المرة، كان يتحدث مع أحد. تقدمت لغرفته التي يفصلها المرحاض عن غرفتي لأشمّ رائحة الاحتراق مرة أخرى فوقفت عند بابها لأستمع.

كان هناك همس ما، همس غاضب يأتي بعده صوت (مراد) وهو يغمغم بشيء لم أستبِنه. ثم جاء البدوي الفلتم في خاطري، هل من الممكن أن يكون يتحدث معه من النافذة؟

لا. لقد كان الصوت الآخر في الغرفة وليس خارجها، هذا بالإضافة إلى أنني لم أرَ البدوي يتكلم مع أحد حتى إنني شككتُ في كونه أبكم. ثم بدأت أستنتج ما كان الهمس الغاضب يقوله. مددت يدي لمقبض الباب وترددت في فتحه، فهذا كان ضد اتفاقنا.

"حسن... طه... رقية!!! اخلص منهم...!!! حسن... طه... رقية!!! اخلص منهم...".

هكذا تأكدت من الكلمات الهامسة. لويت المقبض ودفعت الباب لأدخل غرفته للمرة الأولى منذ أن احتلها.

ورأيت مشهدًا عجيبًا.

كان (مراد) على الأرض أمام المرآة الطويلة في وضعٍ يشبه السجود، بينما امتدت ذراعاه

بجوار ساقه كي يمسك كعبيه المتسخين بإبهامه وسبّابته.

"مراد".

لم يردّ عليّ فتقدمت لأجد خدّه الأيسر على الأرض.

هل نام على هذا الوضع أم كان يصلي؟

نفيت الافتراض الأخير فهو لم يصلّ قط ولم تكن هذه القبلة من أساسه...

بل عكسها تمامًا.

"مراد!!!".

ناديته بصوتٍ أعلى فبدأت أطرافه تتحرك وأصدر صوتًا كالخُوَار. انحنيت لأوقظه لكني وجدت عينيه مفتوحتين فجفلت مبتعدًا وقلت:

- إنت صاحي؟

بصعوبة حرك يديه ليستند عليهما ويعتدل بينما أصدرت عظامه صوت طرقعة عالية. هنا لاحظت إحدى القطع المعدنية ذات الوجه المقلوب موضوعة أمامه.

- إنت بقالك كده كتير.

قلتها وأنا أجول ببصري في الغرفة. لقد حوّل (مراد) غرفة والديّ إلى مقلب نُفايات. أكياس في كل مكان وبقايا زجاجات بلاستيكية مع الكثير من أوراق محترقة لنبات لم أعرفه.

- إيه اللي إنت عامله في الأوضة ده؟ اتفاقنا إن كل واحد يبقى في حاله بس مش معناه إنك تقلب الأوضة زريبة.

بمجهودٍ مُضنٍ قام ليجلس على الفراش فسألته:

- مين اللي كان بيتكلم قبل ما أدخل يا (مراد)؟

تعثّر فمددتُ يدي لأمسك به قبل أن يفترش الأرض مجددًا.

- مالك يا بني؟ أنا بقالي كام يوم شايف صحتك في النازل. وشّك أصفر وخسيتلك بتاع عشرة كيلو. إنت مكنتش بتاكل معايا ولّا إيه؟

وهذا بالفعل ما لاحظته أثناء تدريبنا فمع كل ليلة تمر علينا كنت أشعر أنه يشيخ معها خمسة أعوام. لكن ما إن أمسكت بيده اليسرى حتى جاءني هاجس بأن كفّه أعرض مما

يجب.

شتتني عن تلك النقطة حين قال بصوتٍ ضعيف:

- هو إنت فاكر اللي إنت اتعلمته ده ببلاش. يلّا اتكل على الله وسيبني أنام. واقفل الباب وراك. هوصّب الأوضة بالليل.

هززتُ رأسي غير مصدق وتذكّرت ما سمعته قبل أن أدلف الغرفة لكنني لم أصل إلى تفسير، فالغرفة خالية تمامًا إلا منه.

- (مراد)، إوعك تقرّب من أصحابي، فاهم؟

قلتها بشجاعة زائفة وأمسكت الباب لأغلقه قبل أن يجيبني، لكني سمعته يقول من تحت الغطاء:

- عايزك تجمّد شوية، اللي جاي أصعب.

تخشّبت مكاني للحظاتٍ لأستوعب ما قاله ثم أغلقت الباب ببطء. وللأسف لم أنظر للمكان الوحيد الذي لو كنت فعلت في حينها لاختلف كل ما أتى بعدها.

***

تمنّيت أن أجعل الإعصار الذي كان يهدر بين ضلوعي يتراجع للأفق الرمادي من حيث أتى، أن أجعل الوحش الذي كان يزأر بداخلي يصمت للأبد.

telegram: @alanbyawardmsr

تمنيت أن أخنقه بيديّ العاريتين ثم أدفنه في حفرة وأهيل فوقه التراب.

تمنيت أن أتذكر آخر لقاء لي مع أمي.

تمنيت...

ذهبت إلى شاطئ (عجيبة) باحثًا عن (طه) و(حسن) لأجدهما في مكاننا المعتاد أسفل الجرف الصخري. أشرق وجه الأخير حين رآني وأفسح لي مكانًا على الفور، وما إن صعدت لأجلس بجواره حتى سألني عما كنت أفعله الليالي السابقة وسبب انعزالي عنهم. راقب (طه) الحوار دون أن يتدخل وأدركت من نظراته أنه يعلم أن كل إجاباتي كاذبة، حتى قبل أن أنطق بها.

تدريجيًا خَفُتَ الغضب المبهم الذي كنت أشعر به تجاه كل شيء وانسحب مؤقتًا خامدًا تحت الرماد.

هناك متعة ما في وجودك وسط أصحابك وهم يمرحون ويتجادلون في صغائر الأمور. تجلس معهم بجسدك فقط، تستمد منهم الأمان. يعلو وجهك تعبيرٌ ثابت بينما تتراجع أصواتهم للخلفية. لا يعرفون أنني كنت متشبثًا بحافة جبل مثل التي نتظلل بها، حافة شديدة الانزلاق تمنّيت أن يمد أحدهم يده لينتشلني من عليها قبل أن أهوي من فوقها وأتحطم على الصخور. لا يشعرون بالعاصفة التي بدأت تهدر بداخلي، بالتناقض الذي كان يمزقني، التناقض الذي عشت فيه طيلة حياتي وتضاعف بعد ظهور (مراد). وها هو قد علّمني ما هو قادر على أن يغير حياتي، ورغم ذلك وجدت أنني لا زلت أتذبذب بين الثقة والإحباط، أتأرجح بين الشجاعة والخوف، أقفز من قمم جبال المنطق إلى أعماق آبار الجنون.

لا يشعر أحدٌ بكل هذا، إلا (طه).

عيناه التي ظلت ترمقني كل حين وآخر قالتا الكثير. تمنيت أن يسألني فأجيبه بكل شيء، لكنه لم يوجه لي كلامًا كأنه قد بدأ ييأس مني.

لا يا (طه). لا تُدِر ظهرك لي، ليس الآن.

مرت سويعات قليلة قضيتها كالصنم بينهما حتى استسلم اليوم في النهاية لكآبتي وبدأت الشمس في المغيب. استوقفنا سيارة نصف نقل واتجهت مع (طه) و(حسن) للبلد كأننا منساقون لقدَرٍ أسود لا نعرفه. وبالطبع كان وراءنا الفلتُم بسيارته لكننا كنا قد تعودنا على وجوده فلم نُلقِ له بالًا.

عندما وصلنا البلد وجدت نفسي أتخذ طريقًا أطول إلى منزلي.

نعم، تمنيت أن أراها.

كنت بحاجةٍ ماسّة لموسيقى هادئة وسط هذا الصخب الذي تُهت فيه.

بدأت أتلكّأ في الشارع الذي كانت تسكن فيه (رقية)، وعيني لا تنفكّ تتقافز من شرفتها لنافذة بيتها حتى بلغنا نهاية الشارع. حينها لكزني (حسن) برفق وقال:

- (رقية) جاية في وشّنا.

بالفعل كانت تحتضن كتبها وهي تمدُّ الخطا بجدية في اتجاهنا.

هل قلت لك إنها جميلة؟

نعم هي كذلك.

أعلم أني وعدت ألّا أصفها لكني لم أعد أستطيع أن أكبح رغبتي في هذا. دعني أصفها، فأنا أحب سماع وصفها.

بُنّية الشَّعر هي كثيفته ذات عيون عسلية واسعة وشفتين ممتلئتين ورديتين ووجه قلبي الشكل. تذكرني دومًا بـ (زبيدة ثروت)، ملاك الشاشة الفضّيّة.

تلك البسمة وهاتان الغمّازتان. معها أشعر أني... مكتمل.

لكنها متعالية. لا، بل هي سخيفة.

لا أدري السبب الذي يجعلنا دائمًا نناطح بعضنا لكن عندما لا تكون حانقة عليّ تكون... جميلة.

احترت في أمري؟

دعني أخبرك بسرٍّ لا يعلمه إلا (حسن)، وربما (طه). لقد كنت أتوق لرؤية (رقية) كما تتوق النبتة لضوء الشمس. حارق هو، ضوء الشمس، صادم وصريح. لا يمكنك تجاهله أو الاستغناء عنه، كما أنه لا يمكنك النظر إليه طويلًا. هكذا الشمس وهكذا كانت (رقية).

وكما كان (طه) يلعب دور الضمير و(حسن) دور المُعِدة كانت (رقية) تُشعرني أن غدًا، ربما، يكون أجمل.

فوجئت أني لم أكن مستعدًا لهذا اللقاء وبدأ قلبي يخفُق بشدة. اندفع الدم لرأسي بقوة فلم تكن حالتي النفسية تسمح بهذا التحدّي. صعدت فوق الرصيف كي أتفاداها ومن داخلي تمنيت أن تصعد على الرصيف هي الأخرى وتبدأ بالسلام.

تناقض منطقي جميل، أليس كذلك؟

تبًا.

- مش هتكلمها؟ سألني (حسن)، أومّال جايبنا من هنا ليه؟

- عيب يا (حسن)، دي زيّ أختنا.

قالها (طه) بحزم فأسرعت مُعقبًا:

- على فكرة، هي طول السنة أوصادي.

- يا سلام؟ طيب مالك ارتبكت كده؟

كان سؤال (حسن).

غيرت اتجاهي قبل أن تلمحنا وذهبت لأستند على سور الكورنيش. انضم إليّ صديقاي وكان دور (طه) ليعلق:

- لو هتكلمها أنا همشي.

لم أردّ لأنني رميتها بنظرةٍ خاطفةٍ فوجدتها ترمقني بتوجس حتى عبرت من خلفنا.

- أنا أصلًا مش عايز أكلمها.

كان تعليقي الأخير الذي لم يَرُق لـ (حسن) لكني كنت في مكانٍ آخر.

كنت أستعيد المنظر الذي رأيته في غرفة ضيفي المجنون، لكن ببعض التغيير.

ففي المشهد الذي تكرر في ذهني لم ينهض (مراد) ليلقي بجسده المنهك على الفراش، لكنه رفع نصفه الأعلى من وضع السجود وجلس ساكنًا. انتبهت لانعكاس صورته على المرآة المنتصبة أمامه فوجدته ينظر إليّ بابتسامته المجنونة وعينيه الجاحظتين. ثم من دون إنذار تطق وجهه المنعكس وخرج الصوت الغليظ من المرآة ليهمس خلف أذني:

"حسن... طه... رقية!!! اخلص منهم...!!!".

هنا وجدت نفسي أفعل الشيء الذي لم أفهمه حتى وقتنا هذا، لثلاثة وثلاثين عامًا بعدها. ذهبت خلف (رقية)، متجاهلًا نداء (طه)، وناديتُها. جفلت الفتاة الرقيقة والتفتت إليّ وإذ بي بمنتهى القسوة والجبروت أقول:

- على فكرة، إنتي أسخف بنت شُفتها في حياتي.

استدرت بعدها لأعطي صديقيّ المصدومين ابتسامة زهوٍ ثم تركت (رقية) المصعوقة وغادرت المكان بكل برود.

***

العجيب في الأمر أنني لا أتذكّر ما حدث بقية ذلك اليوم بدقة. كأن اليوم كله قد أصبح خلفًا انضمّ إلى كابوس أكثر ظلمة، كابوس أمتعني بتفاصيله الكئيبة عندما جاء الليل.

بالكاد أذكر معركة كلامية لي مع (طه)، كانت بسبب ما فعلته مع (رقية)، كدنا أن نخسر بعضنا في نهايتها لولا انفجار (حسن) وانهيار أعصابه. بعدها تحول اهتمام (طه) لصديقنا غير المستقر نفسيًا الذي ظل يهذي بكلمات غير مفهومة عن الاريكة والكلب والسلسلة والرعب الذي يراه في بيتي.

تركت كل هذا واختليت في غرفتي... بشياطيني.

ثم جاء الكابوس.

حلمت ليلتها بـ (رُقيّة)، رأيتها في غرفة أمي وسط نيران هائلة.

لم تكن تقاوم ولا حتى تصرخ، فقط كانت دموعها تسيل في سكون وهي تنظر إليّ من خلف زجاج سميك بينما أتأملها أنا من خارج الغرفة عاجزًا.

لم تكن النيران هي التي جعلت المشهد غير محتمل، بل ما كنت أشعر به. أتون مشتعل يحرقني من داخلي ندمًا على ما فعلته.

لكني لم أجرؤ على طلب الصّفح أو حتى النظر في عينيها.

لم أجرؤ على الصراخ بما كاد أن يمزقني كمدًا.

هل خسرتكِ للأبد؟

ما الذي فعلته؟

ما هذا الغضب الذي أصبح يحركني؟

هذا الوحش الذي كاد أن يلتهم كل شيء؟

مَدّت يدها لتضعها على الزجاج الملتهب وعلى وجهها تلك النظرة التي لن أنساها بقية عمري: نظرة هي مزيجٌ من الشفقة واللوعة والحزن.

وضعت كفّي فوق كفّها عبر الزجاج.

صدقيني... لم أكن أنا.

أيادٍ أخري ظهرت لتلمس الزجاج الحارق من جانبها ثم ظهرت وجوه أعرفها.

هذا (حسن).

وهذا (طه).

يرمقني ثلاثتهم بنفس التعبير عبر الزجاج، من داخل الغرفة التي صارت كالأتون المستعر.

بعدها رأيت ملامحهم تتلوّى من الألم ثم بدأت رؤوسهم تدور حول نفسها لتصير مقلوبة، وفي الوقت نفسه تحولت وجوههم إلى وجه (مراد). ظلت أفواههم تهمس بصوتٍ غير مسموع حتى حالت بيني وبينهم النار وابتلعت الغرفة كلها. لم يبقَ ظاهرًا سوى (مراد) الذي كان يمسك بسلسلة غليظة تنتهي بكلب رمادي وقد اشتعل اللهيب بفروته الجرباء. رفع

(مراد) ذراعيه عاليًا بحركة النصر في اللحظة التي انقضّ الكلب الشيطاني فيها عليّ لينكسر الزجاج تحت وطأة وزنه.

في نفس اللحظة ظهرت أمي كبطلة أغريقية من وسط النيران وفي يدها عصا تضرب بها الكلب وتبعده عني حتى استيقظت هاربًا منه.

(4)

الجمعة 14 سبتمبر - خمسة أيام على بطولة الجمهورية. خمسة أيام قبل أن تنكشف نتيجة أكبر مجازفة قمت بها في حياتي.

اشتركنا نحن الأربعة في وجبة كانت الأولى من نوعها. فقد كان إفطارًا صامتًا كأننا في مأتم. من دون شهية حقيقية اقتطعت بضع لُقيماتٍ متفاديًا النظر للوجوه لعل تلك اللحظات الثقيلة تمضي بسرعة. حتى (حسن)، صاحب شعار "نحيا لنأكل"، ظل يحدق في الطبق الذي توسّط المائدة دون أن يمد يده للطعام.

فقط (مراد) و(طه) هما من كانا يتفاعلان خارج أنفسهما. فالأول كان يلتهم الطعام بنَهَم لم أشاهده عليه من قبل حتى إنه أكل أنصبتنا جميعًا. أما الثاني فقد كان يرمقني ووجهه الدائري الأبيض قد تحول إلى اللون الأحمر.

ماذا تريد مني يا (طه)؟ كان سؤالي غير المنطوق وأنا أبادله النظر. هل تريد مني أن أطرده ليذهب كل ما فعلته سُدى؟

- فِكرك عايزين إيه يعني؟ عايزيني أمشي طبعًا. عايزينك ترجع ضعيف زي زمان.

صعقت حين خرجت تلك الكلمات من (مراد) دون أن يتوقف عن حشو فمه. كيف عرف ما كنت أفكّر فيه؟

- أيوة عايزينك ترجع زي زمان. يعني فكرك إحنا مبسوطين بحالك ده؟

قالها (طه) ليرمي (مراد) الملعقة في الصحن وينهض قائلًا:

- رجعنا للكلام المايع بقى بتاع صحابك. أنا داخل أوضتي.

أطرقت متفاديًا نظرات (طه) الذي ضمَّ قبضتيه غيظًا قبل أن يترك السفرة و(حسن) في ذيله. كل ما كان يهمني لحظتها هو ألّا يلاحظ (طه) أن يد (مراد) اليسرى قد صار بها أربعُ أصابع معقودة برباطٍ واحد. لكنه توقف قبل أن يدلف إلى حجرته والتفت إليّ. تسارعت نبضات قلبي وحاولت الابتسام في وجهه لكن ما قاله كان أكثر إيلامًا مما توقعته:

- الْحق نفسك قبل ما يفوت الأوان.

أعتقد أنني لا أحتاج أن أقول إننا تركنا الطعام كما هو، لم يُمسّ، كأنه قد وُضِع لتوّه. لكن لا يهم، فقد تبقى أربعة أيام أخرى. وطالما لا يستطيع (طه) الإمساك بشيء مادي ملموس فسوف تمرُّ في سلام. فقط أربعة أيام، اصبروا معي يا أصدقائي.

"قبل ما يفوت الأوان". هل فات بالفعل؟

***

بعد تدريبٍ قاسٍ آخر عدت متأخرًا لأجد أن (طه) و(حسن) قد خلدا للنوم مبكرًا. ثم فوجئت (بمراد) يجلس إلى مائدة الطعام ويبتسم لي.

- لسّه صاحي ليه؟

سألته وأنا أغلق الباب خلفي وأجول ببصري في أنحاء الصالة، حتى تأكدت من خلوّ الشقة من الأصوات والأشياء المريبة.

- مستنّيك، تعالَ ناكل مع بعض.

- مش عايز.

- تعالَ.

قالها بكل بساطة وهو يمد يده إليّ مبتسمًا كأنه لا يتوقع الرفض. انضممت إليه على المائدة دون مقاومة وأكلت من ذلك الطبق الممتلئ بما يشبه اللحم الذي لم أستسِغْ طعمه. وما إن انتهيت من هذه الوجبة المريبة حتى انطفأ التوتر الذي كاد يصيبني بالجنون، واختبأت كل الأسئلة في جحورها لأنام بعدها كالطفل الرضيع.

لم أدرِ كَمْ مرَّ عليّ وأنا في غفوتي قبل أن أفتح عينيّ عن آخرهما، من دون أي مقدمات. أصغيت بكل حواسّي بعد أن سمعت صوتًا لم يكن في حلمي، أنين حيواني يأتي من خلف الجدار، من جهة غرفة (مراد). في محاولةٍ لفهم ما يحدث حولي جُلْتُ ببصري في غرفتي لأجدها معتمةً إلا من ضوء الشارع الأزرق الباهت الذي انعكس على الكؤوس والميداليات. دعكت عينيّ وتثاءبت في كسل لكن قبل أن أغمضهما مرة أخرى تكرر الأنين.

ببطءٍ اعتدلت جالسًا وحاولت التركيز في الصوت لكن لسبب ما كان وعيي يتفادى الظهور. ما الذي أطعمتنيه يا (مراد)؟ سَبَبْتُه في قرارة نفسي. وما الذي يفعله هذا اللعين في عتمة الليل؟ هل جاء بكلب آخر ليعذبه؟

طَرَقات خافتة على باب غرفتي قطعت حبل أفكاري وجعلت شعر يدي ينتصب. ثم جاء همس:

- إنت صاحي؟

كان صوت (حسن) لكني لم أرُدّ.

- سامع الصوت ده؟ إنت صاحي؟

لم أرد تلك المرة أيضًا. حاول فتح الباب لكنه كان موصدًا. من الذي أغلقه بالمفتاح؟ حتمًا لم يكن أنا في حالتي تلك.

ثوانٍ قصيرة مرت ثم سمعت خطوات خافية تبتعد تلاها صوت باب يغلق ويوصد بالمفتاح. حاولت النوم مجددًا لكن النوم ظل يجافيني. الدقائق طالت لساعات صاخبني خلالها هذا الأنين الذي كاد أن يُفقدني صوابي.

قُرب الفجر، أو ما يطلق عليه ساعة الذئب، الوقت الأكثر سوادًا في الليل، توقف الصوت. تصورت أنني سأهنأ أخيرًا بسويعات من النوم لكن هيهات. فضيفنا العزيز كان في قمة نشاطه.

كان يتكلم.

سكن بعدها كل شيء لدقائق سقطت جفوني فيها رغمًا عني لكنها فُتحت على آخرها، حين صدي نُباح هيستيري لكلب تخيلت حجمه لا يقلُّ عن حجم الحصان البالغ. نباح كلب يصرخ من الألم أطار النوم من عيني وجعلني أهبّ لأفتح الباب وأخرج لأقف في الممر الصغير.

نظرت عن يساري، إلى غرفة (حسن) و(طه)، لأجدها موصدة. كيف يستطيعان النوم في هذه الضوضاء؟

وجدت نفسي مضطرًا أن أقترب من غرفة (مراد) لأتحقق من الأمر. هناك حركة ما بالتأكيد لكنني لم أستنتج منها إلا أن هناك من يتحرك في الغرفة بأقدام خافية أمام الباب مباشرةً لكنني لم أرَ أحدًا. انبطحتُ أرضًا لأنظر من تحت الباب.

الغرفة مظلمة تمامًا. لماذا يقبع في الظلام؟

أين هو؟

ثم احتبست أنفاسي حين تناهى إلى مسامعي صوت السلسلة... يأتي من خلفي. دُرتُ كالملسوع لكن الشقة كانت الخاوية.

"مراد!!".

هكذا ناديت قبل أن أسمع الصوت مرةً أخرى، كأن هناك مَنْ أو ما يزحف في الصالة أمامي دون أن أراه، رغم أنني كنت أنظر للاتجاه الذي يأتي منه الصوت. نفس الصوت الذي كنت

أسمعه في الغرفة. رأسي كاد أن ينفجر من الحيرة وأنا أجول ببصري في المكان. هل أصبت بالجنون؟

من أين يأتي هذا الصوت؟

ثم قمت بما أصفه الآن بأذكى ما فعلته في حياتي.

أغلقت عيني وأنصتُ.

لحظتها حددت اتجاه صوت الحفيف.

كان فوقي.

فتحت عيني ونظرت. وقد كان ما رأيته على السقف أشد هولًا من كل ما رأيت قبلها.

على سقف الشقة كلها تنتشر آثار أقدام حافية وكفوف متسخة.

يا إلهي، صرخت بها بداخلي. كيف لم نلحظها من قبل؟

بكل جنون اللحظة، التقطت قطعة قماش بالية من المطبخ ثم قفزت على المائدة لأمسح آثار الأقدام والأيادي التي بدا لي أنها بدأت في غرفة (مراد) قبل أن تنتشر في الشقة كلها. آثار آدمية وأخرى تبدو لكلب ضخم بدت لي ليست من الطين بل من غبارٍ أسود كالرماد

ثم فتح أحدهم بابًا ورائي.

تسمَّرت يدي بالقماشة وتَخَشَّب معها جسدي كله.

التفتُّ ببطء لمصدر الصوت.

استقبلني وجه (طه) الدائري فتنفَّست الصُعدَاء حتى تنبَّهت أنه لم يكن ينظر إليّ أو إلى السقف الذي أصبح لوحة مخيفة، بل إلى أسفل مني. ظهر (حسن) خلفه وسأل بنَفَس مقطوع:

- إيه اللي إنت غفلُه في الكراسي ده؟

نظرت لما يحدق به وصعقت عندما رأيت الكراسي في وضع مائل على المائدة.

تسجد لي.

***

كان الموقف أقوى من أن يطرح أيًا منهما أسئلة. ساعدني (طه) في إزالة آثار الأقدام

والايدي من السقف في صمت، بينما شاركنا (حسن) بوجدانه فقط من فوق الأريكة. لكنه انتفض فجأةً كالملسوع ليهتزّ جسده البدين في عنف واستدار لينظر للأريكة وقد تذكر موقفه معها. التفت إلينا محرجًا وقال:

- معلش أصلي افتكرت.

ثم استطرد وهو يشير للسقف:

- أصل هو يا إمّا حد طبع الآثار دي بحاجة يا إما - بِسم الله الرحمن الرحيم - كان فعلًا بيمشي على السقف.

رمقني (طه) بنظرة سريعة ثم نزل فوق المائدة قائلًا:

- كده خلاص. لو حد جه مش هيحس بحاجة.

التفتُ بعدها لغرفة (مراد) لكنني أمسكت ذراعه لأمنعه قبل أن يقترب منها فنظر لي بغضب وهمس:

- فيه إيه؟ هتقولّي إنه مش هو اللي عمل كده؟؟

أشرت له كي يلحق بي في غرفتهم. دخلنا وأغلقنا الباب خلفنا لنتشاور همسًا. بدأ (طه) قائلًا:

- ممكن أعرف فيه إيه؟ مش عايز تدخل أوضة الزفت ده ليه؟ هو اللي شفناه دلوقتي على السقف حاجة يتسكت عليها؟

- اتفاق. مالناش دعوة باللي بيحصل في الأوضة دي لغاية الميعاد اللي حدده الشيخ (بدر).

ضيّق عينيه وقال بنبرة حازمة:

- اتفاق؟ اتفاق إنك تخليه يجيب كلب في البيت؟ والله أعلم بيعمل فيه إيه.

أطرقت دون رد.

- قولّي اتفاق إيه يا صاحبي، مش هنحكم عليك. قولّي علشان أساعدك.

ثم أخفض من نبرة صوته قبل أن يضيف بكلمات اختارها بعناية:

- هل كل ده ليه علاقة بأبوك وأمك؟ عايز تثبت إيه من ده كله؟

هنا صرخت في وجهه بكل عنف:

- ملكومش دعوة بأهلي يا (طه)!!! بُص بقى يا ابن الناس، دى حياتى وده بيتي وأنا حر فيهم!!

اسودّ وجه (طه) وتجلت الصدمة عليه بأقوى صورها عند سماعه الجملة الأخيرة، ثم نظر إلى (حسن) الذي انكمش على فراشه وعيناه تتنقّلان بيننا في ذعر. سيطر (طه) على مشاعره بسرعة ثم قال وهو يحدق في وجهي:

- عندك حق، ده بيتك، أنا نسيت معلش. اعتبرني مشيت من بكرة. علشان أسيبك تعمل اللي أنت عايزه في "بيتك". بس عايز أقولّك حاجة أخيرة؛ دي مش حياتك لوحدك واللي بيحصل ده بيمسّنا كلنا. والغلبان ده أول واحد هيتأذي.

قالها مشيرًا إلى (حسن) الذي ابيضّ وجهه تمامًا.

لوحت بيدي وانصرفت تاركًا أصدقائي مصدومين وأنا أصيح:

- يووووه!!!

"أنا حر فيهم!!"

"أنا حر فيهم!!"

اللعنة على هذا الصدى اللعين.

***

رغم أن كلماتي التي صرخت بها ظل صداها يتكرر حولي كأنها تنوي الاستمرار للأبد، فإنني خلدت للنوم في اللحظة التي وضعت فيها رأسي على الوسادة. استيقظت بعدها بصعوبة شديدة متأخرًا ساعتين كاملتين عن ميعادي لاعنًا ما أطعمنيه (مراد) للمرة الثانية. ثم فوجئت بـ (حسن)، الذي تغيب عن المعهد يومها، يخبرني أن (طه) قد نَفّذ تهديده وذهب إلى بيت الطلبة الذي يبعد كيلومترات عن البلد.

مرّ اليوم بسلام نسبي مع غياب (طه). لم يعانِ إلا (حسن) الذي شعرت أن معاملة (مراد) له مع غياب (طه) سيتركان أثرًا غائرًا فيه لأعوام طويلة. فقد حبس نفسه في حجرته طيلة اليوم وأوصد الباب بالمفتاح كأن هناك قنّاصة يربضون أسفل السُفرة وفي الأركان ينتظرون لحظة خروجه. لم أستطع أن ألومه، فقد كنت أنا نفسي أشكّ في نوايا (مراد) خصوصًا أنه خرج أكثر من مرة خلال النهار على غير عادته، وحام حول غرفة (حسن) للحظات قليلة قبل أن يتقهقر إلى ظلمة عربته.

يومان فقط يا (حسن)، اصمد أرجوك.

***

ملحمتي الكبري غدًا.

البطولة غدًا.

(رزق).

المنتخب.

المستقبل الباهر الذي كان ينتظرني.

سأجعلك فخورة بي يا أمي.

وأنت يا أبي، ستندم.

إعصار من الأفكار عصف بذهني فشلت الشوارع الهادئة ذات البنايات القصيرة المتباعدة والشواطئ الفيروزية أن تحدّ من قوته. مشّطت المدينة بحثًا في رمالها البيضاء التي تحدد جميع شوارعها وفي الشرفات الخاوية لكني لم أجد ما كنت أبحث عنه.

وكيف أجد ما لم أعرف ما هو؟

لساعات طويلة، لا أذكر متى بدأت ولا أين انتهت، أتيت مرسى مطروح من أطرافها وسط عاصفة شتوية مفاجئة. عاصفة هدرت داخل جسدي الذي صارت قوة سوداء خبيثة تحركه كما يحلو لها، قوة شيطانية أيقظت شعورًا واحدًا فقط وسحقت ما عداه: ذلك الوحش الكاسر الذي يُسمَّى الغضب.

لا بُدَّ أن أفوز، لا بُدَّ. لا بُدَّ أن ينجح ما وعدني به (مراد) مهما كان ما سيكسبه من ورائه. لقد اقتربت من تحقيق حلمي حتى صرت أشعر بملمس الكأس وأسمع هتاف المشجعين وحماس زملائي. صرت أرى وجه أبي الصارم وابتسامة ضعيفة تشق طريقها بصعوبة بين متاهاته. تظهر بعدها أمي لتزيحه من طريقها وهي تركض إليّ ضاحكة. استحضرت تلك اللحظة بكل جوارحي حتى انفجرت مشاعري وصرخت كالمجنون وسط الشارع حتى نزفت عيوني قهرًا دون بكاء.

في النهاية عدتُ إلى شقتي بعد أن نضب الوقود مني. لا أذكر الوقت بالتحديد لكنها كانت ساعة متأخرة. وقفت أمام الباب أنفض عني بلل أمطار غير حقيقية وأخذت نَفَسًا عميقًا ثم أدخلت المفتاح. تأكدت من عدم وجود آثار أقدام على السقف ومن وجود الكراسي في

مواضعها، ثم بأقل ضوضاء ممكنة دخلت وأغلقت باب الشقة خلفي بهدوء. اتجهت إلى غرفتي على أطراف أصابعي حتى بلغت الممر الصغير ونظرت لغرفة (حسن) فوجدتها مغلقة. تفهّمت موقفه لو كان لا زال مختبئًا أو حتى لو كان قد رحل ليلحق بـ (طه)، فما يحدث كان مخيفًا. ثم لاحظت خدوشًا عند اللسان، خدوش تشي بأنه كان هناك محاولات لفتح الباب عنوةً بأداةٍ ما.

لا يهم، فأنا سأنام. سأنام وأنسى كل شيء. فغدًا البطولة وبعدها سأرى ماذا سأفعل في الكابوس الذي ظل يتجسد أمامي ببطء وثبات حتى صار أقوى من الواقع. لكني تسمّرت مكاني حين سمعت (مراد) يقول بصوت هادئ منهك:

- الوحش الكبير.

كم كنت أكره تلك الكلمة.

استدرت له ببطء لأجده يجلس على الأريكة المتوحشة ينظر إليّ بعينيه المجنونتين الجاحظتين ووجهه المربع العجوز. لمحت في يده اليسرى المربوطة بالخرقة البالية قضيبًا حديديًا، فابتلعت ريقي بصعوبة وخرج صوتي متهدجًا وأنا أحملق في يده:

- لازم أنام يا م... (مراد). البطولة بكرة، معلش.

وبما إن كل ما كان يهمني لحظتها هو ألّا يشعر بخوفي منه فقد تجاهلت يُسراه التي أصبحت مكتملة بخمس أصابع، ونقلت عينيّ إلى وجهه بصعوبة بالغة ثم ابتسمت له. لم يبادلني بسمتي كعادته بل أشار إليّ بوهن يضاهي ما كنت أشعر به قائلًا:

- تعالَ. أنت لسّه ما سمعتش أهم حاجة. لسه متعرفش إيه اللي هيحصل بكرة.

ليلتها أنصتُ كما لم أنصت من قبل.

ليلتها تكلم الغضب، وأطاعه كل شيء آخر.

الفصل الثالث

وكان من دواعي سروري... أن أحترق

(1)

أقيمت البطولة في الإسكندرية وضمّت الكثير من أصدقائي وزملاء اللعبة القدامى. لا أدري ما الذي دهاني يومها، فلم أرحب بأحد ولم أردّ سلام أحد. ظللت طيلة الوقت محدقًا في هذا الخرتيت الفسفى (رزق) وأهمس لنفسي بالأشياء المريعة التي سأفعلها به، بينما ظلت أصابعي تتحسس القرص المعدني ذا الوجه المقلوب في جيبي. أفكار كابوسية صرخت في رأسي كأن هناك مَنْ كان يوسوس لي بها، حتى إنني كدت أشعر بالشفقة على (رزق) وأنا أشمُّ رائحة توتره من مكاني.

"كدت أشعر بالشفقة"، لكني لم أفعل، لأن ما حدث كان العكس تمامًا. فقد شعرت أن بداخلي أتونًا مُستعرًا يزداد لهيبًا في كل ثانية تمرُّ وعيني مثبتة عليه، إعصارًا يدمدم من بعيد مُنذرًا بتحطيم كل شيء في طريقه.

المباراة تلو الأخرى والفوز تلو الآخر لتضيق المسافة بيني وبين (رزق) حتى شعرت بيدي تلتف حول عنقه... وتخنقه.

المسكين، سوف أنسفه.

ثم حانت اللحظة الحاسمة. كل ما تدربت من أجله، مجهود سنوات وسنوات، يقترب من الإثمار. مخزوني الهائل من الغضب والصدمات التي مررت بها، كل آلامي وآمالي.. كل ما تعلمته على يد (مراد) وما حفظته عن ظهر قلب.

هذه هي لحظتي، وسأجعل صداها يتردد للأبد.

أنا الأفضل.

أنا البطل.

وقفت أمام (رزق)، الأقصر مني طولًا والأعرض كتفًا، وعيناي تكادان تخترقان مقلتيه وتنتزعان البقية الباقية من أعصابه انتزاعًا. التمعت جبهته بالعرق وهو ينظر إليّ، حتى قبل أن نبدأ اللعب. رأيت صدره يعلو ويهبط ويديه تخفقان مرارًا في ربط حزامه الأسود من شدة التوتر.

انتظرت صافرة البدء كأني وحش جائع لم يأكل منذ أسابيع.

وحين سمعتها انفجر الإعصار.

خرجت مني صيحة رسمت الذهول على وجوه جميع مَنْ بالصالة المترامية الأطراف.

فليذهبوا إلى الجحيم.

من كان يهمني هو (رزق) وتأثير الصيحة عليه: الهلع التام. حتى إنه انزلق دون أن ألمسه وبات فريسة سهلة... أسهل من اللازم.

كانت لحظة قصيرة، وهذا ضايقني. لذا لم أكتفِ باستسلام (رزق).

وجدت نفسي لا إراديًا أبحث عن أبي وسط الجمهور كي يشاهد ابنه وهو يكتب اسمه بأحرف من ذهب في التاريخ.

لكنه لم يكن هناك.

التفتُّ بعدها إلى (رزق) وغضب الدنيا كله يطلُّ من عينيَّ ليهرب الدم من وجهه ويصيح مستسلمًا. لكن لتدقَّ جميع الأجراس في رأسي كما تشاء ولتصرخ كل الكلمات.

همست بالكلمة المعكوسة كنئين ينفث غضبًا.

بعدها قمت بحركة بسيطة وأنا أصرخ بداخلي: أنا الملك المُتوَّج على مملكتي وليظل هذا اليوم، يوم تتويجي، محفورًا في أذهان الجميع.

ولتصدح أجراس النصر حتى تصل إلى أذن أبي وقبر أمي.

تعالَ. إنت لسه ما سمعتش أهم حاجة.

ويا ليتني لم أسمعها.

(2)

في طريق عودتنا إلى مرسي مطروح، لم نتبادل أنا و(حسن)، الذي جاء معي يؤازرني، أي نوع من أنواع الحوار. لو تحرّيت الدقة فأنا لم أتبادل مع أحد الحوار، كما بالكاد أذكر، لكني شعرت أن الفُقّاعة التي كنت أحيا بها الأيام السابقة قد انفجرت من دون صوت. كأن الأعصار قد عبر من فوقي مخلفًا وراءه حطامًا سأدرك فداحته حين أراه.

جلس صديقي بجواري لكنه تعمد عدم النظر إليّ. كذلك فعل أعضاء الفريق والجهاز الفني والمدرب نفسه. رغم أني حصلت للأخير على الميدالية الذهبية والكأس فإنه لم يهنئني. كان الصمت ضيفًا ثقيلًا على الأتوبيس وظل الجميع يرمقونني في حيرة واستنكار و... خوف.

كان وداعي لهم مقتضبًا، على الأقل من ناحيتي. حالة غريبة من البرود والشرود انتابتني. ثم ازدادت مع مرور الوقت حتى شعرت بالانفصال التام عمّا يحدث حولي.

كان أول شيء أشعر به هو (حسن) الذي أيقظني في العاشرة مساءًا...

- هتفضل نايم لغاية إمتى؟

لم أستطع أن أفتح عيني لكني عرفته من صوته. لا بُدّ أن ما نطقت به كان غير مفهومًا فقد سألني هامسًا:

- أنا مش فاهم بتقول إيه. أنت نايم من المغرب وأنا محبوس معاك من ساعتها. قوم متسبنيش لوحدي.

حاولت بلّ شفتيّ فوجدت فمي جافًا تمامًا وشعرت بطعم غريب. فتحت عيني بصعوبة لأجد وجه (حسن) الممتلئ الملتاع. نظرت حولي فوجدت أنني في غرفته وعلى فراشه بردائي الرياضي الأسود.

- مين اللي جابني هنا؟ هو أنا أغمي عليّا ولّا حاجة؟

- لا. إنت اللي جيت لوحدك وطلعت لوحدك ودخلت اترميت على سريري. كنت زي اللي نايم مغناطيسي.

لم أكن منصتًا إليه في حقيقة الأمر. وجدت عيني تبحث في ظلمة الغرفة عن شيء بعينه.

- فين الكاس بتاعي؟

- كاس إيه دلوقتي؟ إنت لسه مركّز في الموضوع ده؟ ما إنت كسبت وخلاص. مش كفاية اللي عملته في (رزق)؟

استندت على يدي لأجلس وترنّحت وأنا أنهض لأبحث عن جائزتي في لهفةٍ وانزعاج.

- ماتخفش. الكاس لسّه في شنطتك.

انقضضتُ على حقيبة تدريبي وعانيت لأفتحها متجاهلًا ذلك الدُّوار العجيب. أخرجت كأسي ورفعتها في فخر ثم استدرت لصديقي فوجدته ينظر إليّ بريبة. خرجت من شرودي مستفسرًا:

- هو (رزق) حصلُه إيه؟

أغلق الباب وأجابني بصوتٍ منخفض:

- إنت كسرت رجله. وغالبًا هيبقى مُعاق بقية حياته. أينعم محدّش يقدر يثبت عليك التعمُّد بس الكل شاف. الناس كلها قالت إنك تعمدت تضغط عليها بطريقة معينة لغاية ما ركبته اتكسرت رغم إنه كان استسلم خلاص. إنت اتعلمت الحاجات دي إزاي؟ هو ده اللي كان بيعلمهولك الزفت اللي بزّه ده؟

فتحت عينيّ عن آخرهما غير مصدق ما سمعته.

هل فعلتُ كل ذلك حقًّا؟

أنا بطلًا وليس وحش.

ثم انحنيتُ فجأةً لأتفادى شيئًا خرج من الركن المظلم وطار في وجهي حتى اصطدم بالحائط خلفي، شيء له رنين معدني. جفل (حسن) وانبطح مذعورًا بمنتهى الرشاقة رغم حجمه.

- إيه؟ فيه إيه؟

أسرعت لزرّ النور وأضأت الغرفة ثم تلفّتُ حولي كالمجذوب، لكني لم أرَ العُملَة المعدنية اللعينة التي توقعت أن تكون راقدة على أرضية الغرفة. جال (حسن) بنظره في الغرفة قبل أن يهمس بصوتٍ مبحوح:

- إيه اللي طار في وشّك؟

وللمرة الثانية لم أعطِه إجابة وإن ظللت أتلفّت حولي في توجُس. نظرت للركن الذي كان مظلمًا قبلها بثوانٍ فلم أجد أحدًا بينما اقترب مني صديقي الغطوف وربّت على كتفي قائلًا:

- الكاس من حقك يا صاحبي بس ماعرفش ضميرك راح فين. وعلى فكرة، (طه) عرف

اللي عملته ومرضيش يجي. وإنت عارف كل اللي إحنا فيه ده سببه مين. (طه) مش هيرجع طول ما هو موجود.

عدت للجلوس على الفراش وأغمضت عينيّ لوهلة قبل أن أفتحهما لأجده يرمقني في قلق.

- خلاص يا (حسن)، بكرة هخلّيه يمشي.

وكم كنت ساذجًا!

***

انتظرنا حتى طلوع الشمس ثم تحسّسنا خطواتنا للباب وأنصتنا. مددت عنقي من فتحة الباب الضيقة لكني سحبت رأسي بسرعة وأغلقته حين صدي صوت (مراد):

- إيه يا وحش؟ قافلين الباب عليكم ليه إنت والشوال؟

نظرت إلى (حسن) ورأفت بحاله المزري وعينيه الحمراوين، ثم استجمعت شجاعتي وفتحت الباب على مصراعيه ليستقبلني وجه (مراد) الأسمر بابتسامته العريضة. صعقت من تلك الخصلات البيضاء التي انتشرت في رأسه وذقنه وتلك التجاعيد التي جعلته يبدو في الخمسين من عمره. لكني تجاهلت كل ذلك قائلًا:

- فيه إيه يا (مراد)؟ ما تخِفّ على (حسن) شوية.

- أوبًا. ده في تحالف ضدّي بقى.

- تحالف إيه بس؟ بقولّك إيه، تعالَ عايزك.

قلتها وأنا أومئ لـ (حسن) قبل أن ألتقط حقيبتي وأتجه إلى غرفتي. تقدم الأخير ليغلق الباب عليه لكنه قفز للوراء حين تحرك (مراد) ناحيته وهمس بشيء في غضب.

- (مراد)!!

صحت محذرًا الأخير الذي رفع قدمه كأنه سيركل (حسن) وضحكته تجلجل في المكان قبل أن يتركه ويأتي خلفي. أغلقت باب غرفتي علينا والتفتُّ إليه فوجدته يُخرج الكأس من حقيبتي ويتأملها.

- جامد الكاس، مبروك. أظن أنا وعدتك وطلعت قد كلمتي. مش كده؟

توترت للحظة وأنا أمدُّ يدي لآخذ الكأس فأعطاها لي ببساطة واستلقى على الفراش.

- ها؟ عايز إيه؟

- عايزك تمشي من هنا.

قلتها بهدوء رغم دقعات الأدرينالين التي كانت تكفي لتحريك فيل نائم والتي اندفعت في عروقي.

تجمّد الموقف على هذا الوضع: أنا أقف في منتصف الغرفة ويبدي الكأس و(مراد) مُستلقٍ على الفراش واضعًا ذراعيه الغليظتين المشعرتين خلف رأسه الأشيب. لم أشعر أنه فوجئ بما قلت بل علت ابتسامة وجهه كعادته، لكنها كانت ابتسامة مختلفة، ابتسامة صفراء مَقِيتة لم تظهر معها غمازتاه.

- للمرة الأخيرة، اتفاقنا مينفعش ترجع فيه. ولا حتى أنا.

قالها ببرود ومن دون أدنى تغيير في تعبير وجهه. ابتلعت ريقي بصعوبة وخرج صوتي مبحوحًا:

- اتفاقنا كان إنك تفضل هنا لغاية ميعادنا مع الشيخ (بدر) علشان لو نزلت من البيت هيبهدلوك. البدوي اللي قاعد أوصاد البيت بيراقب بس، مفيش خطورة عليك. وبعدين أنا شفتك بَرَّه البيت، إيه مشكلتك بقى؟ عايز تقعد هنا ليه؟

- لأ. ده ماكانش اتفاقنا.

قالها بنفس البرود وقد بدأت أفقد إحساسي بالمسافة التي تفصلني عنه. بدأت ملامحه تبتعد وفي الوقت نفسه تزداد حجمًا بينما يخفت الضوء عليها تدريجيًا.

- يعني إنك تجيب جثة الكلب بتاعك هنا كان من اتفاقنا؟ معرفش يمكن كمان جبت كلب صاحي وقعدت تعذبه في أوضتك. ولّا اللي إنت بتعمله بالليل في الشقة؟ أو اللي بتعمله في أصحابي؟ لو سمحت، إحنا مش عايزينك هنا.

شعرت بعد تلك الكلمات الجريئة برعشة قوية تجتاحني ونظرت لباب الغرفة كأني أؤمّن طريق الهروب.

- اتفاقنا كان إني أعلمك اللي يخلّيك تكسب والمقابل إني أفضل هنا لغاية ميعاد البشعة. عمومًا...

قالها وانتفض بمرح مفاجئ من الفراش وأمسك كتفي بقوة هائلة حتى كاد أن يسحقها.

- مش هزعل منك يا وحش. أنا عارف بعد الفوز الواحد بينسى. هعتبر إني مسمعتش

حاجة.

ثم خرج من الغرفة صائحًا:

- إنت فين يا شوال!!

التفت بعدها إليّ وقال بنبرة مرعبة خالية من المشاعر:

- إحنا هنروح للبشعة، حطّ ده في دماغك. وخلّي بالك، إنت كسبت البطولة بس فيه اللي أهم منها ألف مرة. وممكن تخسره كله في لحظة.

***

- هتجنّن، الواد ده عايز إيه مننا؟ بيعمل كل ده ليه؟

سألني (حسن) وأنا مطرق الرأس محدقًا في أرضية الشرفة.

- طب هنعمل إيه دلوقت؟

همس بها وهو يتلفت حوله فأسندت مِرفقيّ على إفريز السور متأملًا الأرض الرملية التي تفصلنا عن سور المعهد ثم قلت:

- نصلّيه بالعافية.

- بس ده ممكن يأذينا. أنا خايف.

قالها وهو ينكمش في نفسه فأجبته بصوت رفيع:

- يأذي مين يا (حسن)؟ ده ما يخدش في إيدي غلوة.

أخذ نَفَسًا عميقًا ووضع يده على كتفي بينما تذكرت أنا مشهد (مراد) وهو يرفع الأريكة بمنتهي السهولة بيد واحدة فخفت حماسي بغتة. شعر (حسن) بي فخرج صوته حزينًا وهو يقول:

- المسألة مش هتيجي بالدراع. الواد ده يا مخاوي يا ممسوس، مش هتقدر عليه.

تذكّرت ما كان (مراد) يعلمني إيّاه. لا ليس ممسوسًا يا صديقي، والأمر ليس له علاقة بالجن ولا العفاريت، بل هو أخطر من هذا. لكني لن أستسلم، ليس بعد كل ما حققته.

فكرت أن أذهب لإحضار (طه) لكني رأيت أنه من المستحيل أن أطلب من (حسن) البقاء مع (مراد) وحدهما. ما كان (مراد) يخطط له كان يتضمن شيئًا كابوسيًا لصديقي المسكين.

- روح إنت قول لـ (طه). مش هينفع أسيبه لوحده بعد ما عرف إني عايز أمشّيه.

نهض (حسن) من دون حماس وفتح باب الشرفة. وجال بنظره في الشقة متوجسًا ثم التفت إليّ وهمس:

- إنت اتفقت مع (مراد) على إيه؟ لو عرفنا اللي حصل بالظبط يوم حادثة (مروان) ممكن نعرف هو عايز إيه بالظبط من كل ده وساعتها نديهوله ونخلص.

أغمضت عينيّ بقوة وسيطرت على أعصابي بصعوبة كي لا ينتبه (حسن) إلى ما أنظر إليه وراءه، إلى آثار الأقدام التي عادت مرة أخرى لتغطي السقف كله.

***

لم يكن أمامي إلا الشرفة. تركت الشقة وسقفها لساكنها المخيف وانتظرت صديقيّ هناك، بعد أن أخذت معي ما يكفي من الطعام والشراب كي لا ألجأ للدخول إلا للضرورة القصوى. خرج (مراد) من غرفته أكثر من مرة كان يذهب فيها للمطبخ لملء آنية بلاستيكية بالماء، يدخل بعدها الحمّام ليبقى فيه دقائق طوالًا قبل أن يعود سريعًا إلى غرفته.

من مكاني خلف الشيش تأمّلت اللوحة المخيفة التي ملأت السقف كله. هالني منظر الأقدام البشرية الحافية والأخرى المخلبية، لكن أكثر ما أثار ذعري هي تلك الكفوف التي تخللت الأقدام. ليس لأنها تبدو لبشري يمشي على السقف على أربع بل لأنها لم تكن ثابتة الشكل. ففي بعضها رأيت إبهامًا وسبّابة فقط وبعضها وجدت الوسطى واضحًا معهما وأخرى افتقدت الإصبع الصغيرة فقط. هناك أيضًا القليل من الكفوف المكتملة لكنني لم أستطِع تحديد نمط ولا تفسير لما كنت أراه.

انتبهت إلى (مراد) الذي خرج من غرفته ليقف في الصالة وينظر إلى السقف كأنه يطمئن إلى وجود آثار الأقدام والكفوف عليه. في كل مرة كنت أتوقع أن ينظر إليّ، بل إني أعدت ما سأرد به عليه، لكنه لم يفعل. كأنه لا يشعر بي من الأساس. كرر رحلته أكثر من خمس مرات في كل مرة يزداد حماسًا وانهماكًا فيما يفعل عن المرة السابقة لها.

هنا تأكدت أنه يفعل شيئًا ما في الغرفة تصورته أبشع مما سبق. وتلك الرائحة العجيبة، شيءًا ما كان يحترق.

ثم توصلت إلى نقطة مهمة: يجب أن أعرف ما يفعله قبل أن ينتهي منه. لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك فالنهار كان قد قارب على الانتهاء، ولم أكن أتمنى أن أصدم بما في غرفته في ظلمة الليل.

فأنا كنت شبه متأكد من أني سأصدم.

لعنت غبائي وعنادي. كيف لم أرَ ما رآه (طه)؟

نظرت من خلال فتحات الشيش لأرى (مراد) يدخل المرحاض. تلك كانت فرصتي. ما إن أغلق الباب خلفه حتى تسللت داخل الشقة. أسرعت إلى غرفته ووقفت مذهولًا على أعتابها أتأمل محتوياتها.

كيف فعل كل هذا بهذه السرعة ودون أن أشعر به؟

كان أول شيء لاحظته هو الرائحة. رائحة قوية تحمل عبقًا مميزًا، مزيجًا من المسك والعود مع الخشب المتفحم واللحم المحترق.

متى ظهرت تلك الرائحة؟ لم تكن موجودة منذ ساعات قليلة.

رأيت أن (مرادًا) قد فرش الأغطية والوسادات والمراتب على الأرض تاركًا ألواح فراش أبويّ نفسه مكشوفة. على الألواح وجدت الآنية المعدنية الفارغة بجوارها أكياس بيضاء استنتجت مما هو مكتوب عليها إنها كانت مليئة بالملح. في منتصف الغرفة رقدت آنية بلاستيكية كبيرة بها سائل ورغوة تشبه زَبَد البحر. استطعت تمييز الأقراص المعدنية المنقوش عليها الوجه ترقد في القاع.

كل هذا كان مثيرًا للقلق بالفعل لكن ما أثار فزعي هو ذلك الفرو الرَّمادي الأجرب الذي خرجت أطرافه من الآنية.

لهولي تأكدت من استنتاجي: إنها قدم حيوان... للدقة قدم كلب رمادي.

ما الذي يفعله هذا المخبول ببقايا الكلب؟؟

تسمَّرت مكاني للحظاتٍ لا أدري هل أعود من حيث أتيت أم أهرب من الشقة أم أتقدم لرؤية ما يفعله ببقايا الكلب.

حسمت رأيي وتقدمت باتجاه الآنية. لاحظت وجود عيدان محترقة لنبات لم أتبين نوعه لكنني استنتجت أنه المسئول عن تلك الرائحة والتي نجحت في إخفاء رائحة الجثة. تجاهلته وصببت جُلَّ اهتمامي بمحتوى الآنية.

يا إلهي!

لقد حلق شعر كلبه الرمادي وسلخ جلده. لا يمكن أن يصادف وجود كلبين متماثلين في النوع واللون والحجم في نفس المنطقة. حتمًا هو كلب (مراد) والسلسلة الغليظة ما زالت

تحيط بعظام رقبته. ثم لاحظت بقايا كلاب أخرى ملقاة أمام المرآة في كومة كبيرة، أقدام وألسنة وأعين... يا للبشاعة!

ما الذي أقحمته في حياتي؟ أيّ مسٍّ شيطاني أصابني كي أقبل بكفرٍ بيّنٍ مثل هذا؟

كان خوفي أقوى من أية محاولة لفهم ما يحدث في الغرفة. فليفعل (مراد) ما يشاء فالليلة هي الأخيرة له هنا. استدرتُ مغادرًا قبل أن يخرج من المرحاض وهممت بغلق الباب خلفي، لكني سمعت الصوت الذي سوف يؤرّق منامي طيلة حياتي:

صوت الأنين.

تجمدت يدي على مقبض الباب وازداد تدفق الدم في عروقي، حتّى شعرت أن رأسي سينفجر لكني لم أجرؤ على النظر ورائي.

مرة أخرى جاء صوت الأنين ذاته مصحوبًا بحركة سلسلة.

أنين حيوان جريح.

أغمضت عيني بقوة وقد استنتجت شيئًا مستحيلًا: إنه أنين كلب...

كـ.. كيف؟ إنه فقط فرو وليس حتى كلبًا كاملًا.

حركت رأسي لليمين قليلًا حتى ألمح الآنية بطرف عيني.

ويا ليتني ما فعلت.

في لحظة واحدة حدثت ثلاثة أشياء:

سمعت زمجرة غضب خافتة.

تحرك رأس الكلب المسلوخ في الآنية ونظر إليّ.

لمحت شيئًا في المرآة يقف على السقف فوقي.

هنا سَببتُ الكلب و(مراد) واليوم الذي رأيته فيه ثم خرجت وأغلقت الباب بكل قوتي.

***

حلّ الليل عليّ وأنا منكمش في ركن الشرفة خلف الشيش. للمرة الثانية خلال ساعة واحدة لعنت غبائي بعدم ترك الشقة عندما كان في المرحاض. وبعد أن خرج وأخذ يتجول في البيت كما يحلو له فلم يكن أمامي سوى الاختباء. لولا أن مصيري كان سيئول إلى الشارع لكنت تركت الشقة لضيفي المجنون ونفدت بجلدي. لكن حتى لو أردت الهروب عن

طريق تسلّق شجرة الليمون مثلًا، فلم يكن باستطاعتي تحريك عضلة واحدة بعد أن أصابني الذعر بالشلل التام وأنا في انتظار الصدام الحتمي معه.

كنت أسمعه يتكلم في غرفته ثم يخرج مسرعًا لجلب المزيد من الماء الساخن. في أحيانٍ أخرى كنت أسمعه يضحك بملء فمه وهو يركض في أنحاء الشقة، قبل أن ينطلق للحمّام ويغلقه بمنتهى العنف خلفه ضاحكًا.

ما هذا الرعب يا ربي؟ أين أصدقائي؟ لماذا تأخر (حسن)؟؟

إن (مراد) حتمًا مجنون، قلت لنفسي، وأنا وحدي معه.

في إحدى المرات خرج من الحمام وتوقف في طريقه إلى غرفته. بقي في مكانه لأكثر من دقيقة وبيده الآنية الممتلئة بالماء التي لم يبدُ لي أنه كان يشعر بثقلها. ثم التفت ناظرًا إلى غرفتي وبهدوء شديد وضع الآنية على الأرض ثم اتجه إليها. لم أتحقق جيدًا بسبب زاوية رؤيتي من خلال فتحات الشيش، لكني لمحت كتفه واستنتجت أنه يقف أمام باب غرفتي مباشرةً.

ثم طرقه بعنف.

شعرت بالذعر من قوة طرقاته وسددت أذني حين صاح:

- إنت فين يا وحش؟؟؟

ثم فتح الباب.

تلا ذلك سكون مُطبِق، لا بُدَّ أنه قد عرف أني لست هناك.

راقبته حتى اختفى كتفه خلف الحائط ثم نظرت خارج الشرفة متمنيًا أن أرى (طه) كي ينجدني، لكني لم أرَ إلا الشوارع الخالية وأعمدة الإنارة الكئيبة. نظرت مجددًا للصالة فوجدت (مرادًا) أمامي مباشرةً وعيناه على الشيش الذي أختبئ خلفه؛ فرجعت بظهري لأستند على الحائط بجوار الشيش حتى لا يراني. حبست أنفاسي وأغمضت عيني لكني كنت متأكدًا أنه كان يشعر بي. سمعته يأخذ خطوة أقرب.

ثم من دون أية مقدمات أخذ يضحك.

لست أبالغ إذا قلت إنني في تلك اللحظة كنت أقرب ما يكون للسكتة القلبية. فقد استمرَّ في ضحكه الذي كان يطلقه بنغمات إيقاعية متكررة لأكثر من نصف دقيقة حتى كدت أبكي من الذعر. ثم توقف بغتة. أخذ بعدها خطوةً أخرى حتى وصل للشيش ودفعه ببطء. من بين

الفتحات رأيته يقف عاري الصدر في بنطاله الرياضي الأسود ليظهر شعر صدره الكثيف الذي صار كالزُغب الأبيض.

- إنت مستخبي ولّا إيه يا وحش؟ مبقاش ليك غيري، اطلع يلّا علشان نتعشى.

قلت لنفسي إنه يعرف مكاني فالأفضل الظهور واصطناع الحيرة. نهضت من مكاني بعد أن قال تلك الجملة وتثاءبت بصوت مسموع. ثم قلت محاولًا ألا يخرج صوتي ضعيفًا:

- فيه إيه يا (مراد)؟ صحّيتني يا أخي.

دفع الشيش كي يراني وقال:

- هتقولّي كنت نايم؟

- أيوة كنت نايم. فيه إيه؟

لثوانٍ طويلة ظل ينظر إليّ بعينيه البنيّتين الواسعتين وابتسامة عريضة تشق وجهه المربع القوي الذي ظهر العجز عليه جليًا.

- طيب يلّا.

- يلّا إيه؟

قلتها وأنا أسترق النظر إلى الشارع. أين هؤلاء الملاعين؟

- هنتعشى. إوعى تكون فاكر إني زعلان منك، بالعكس. وعلشان أثبت لك إني مقدّر موقفك جهزتلك عشا عمرك ما هتنساه. يلّا.

- مش جعان.

قلتها بصوت ضعيف ليمحو ابتسامته ويقول بنبرة قوية لا يمكن تجاهلها:

- مش لازم تكون جعان. يلّا، ده آخر عشا هعملهولك.

في هذا الجزء من الأحداث كنت كالفسيّر مسلوب الإرادة. تركت لـ (مراد) الدفة راجيًا من الله أن يرسل إليّ أصدقائي كي ينقذوني من هذا المجنون، وقد تأكدت تمامًا من أن مواجهتي له لن تنتهي لصالحي، يكفي الهلع الذي كنت أشعر به. إن كان قد سلخ كلبه واحتفظ بفروته في غرفته، هذا بعد أن حاول أن يجعل نفس الكلب يلتهم طفلًا صغيرًا، فما بالك بما سيفعله بي؟

جلست إلى المائدة أرتعد وقد فقدت التحكم في جسدي تمامًا؛ لدرجة أني شككت في

قدرة ساقي على الاستجابة لي لو فكرت في الهروب. لذا قررت عدم المجازفة بالمحاولة وظللت أراقبه من مكاني وهو يطهو شيئًا ما في الآنية المعدنية.

إنه نفس اللحم الذي أطعمنى إياه قبلها بليلتين.

حاولت أن أتكلم كي أثنيه عما يفعله فلَو دفع لي مال الدنيا لن آكل من هذا اللحم لكني لم أستطع النطق. انتظرت حتى خرج من المطبخ وبيده صينية عليها ما كان يطهوه، وتظاهرت بالانشغال بأرغفة الخبز المرصوصة أمامي.

- مستعد؟ لسه مش جعان؟

قالها وهو يضع الصينية على المائدة ويعطيني أحد الأطباق الفارغة. أخذته وعيني على الآنية المعدنية التي تصاعد منها البخار. إنه حقًا نفس اللحم، أراه مستقرًا في قاع الآنية مطهيًا بشكل جيد.

- هو... هو ده لحم إيه؟

قلتها بصوت مبحوح وابتسامة مهزوزة.

نظر إليّ وهو يجلس أمامي وفتح عينيه عن آخرهما وقال بلهجة مسرحية ونبرة بطيئة:

- الكلب بتاعي.

انتفضت واقفًا وعيناي على محتوى الآنية. أشرت إلى اللحم المطهو بعناية وخرجت مني الكلمات غير مفهومة. أطلق ضحكة عالية وقال:

- يا نهار أبيض. إنت صدقت؟ طيب اقعد يا نجم. أنا بهزّر معاك.

- لأ إنت مش بتهزر. إنت سلختَه وطبخت لحمه. إنت مجنون. مجنون.

قلتها واستدرت حول المائدة لأقف خلف (مراد). لا أدري من أين أتيت بهذه القوة، ربما من الرعب، لكني وجدت نفسي أقول بمنتهى الحزم وأنا أنتفض من الإثارة:

- مراد، لو سمحت، اتفضل بزّه.

لم يتحرك من جلسته. الأدهى من ذلك أنه أخذ قطعة لحم ووضعها في الطبق الذي استقر في منتصف المائدة وبدأ يقطعها. وقفت مكاني لحظة طويلة وشعرت بتلك القوة التي جاءتني منذ لحظات تختبئ في جُحرها مرة أخرى. حدّقت في ظهره وجال بخاطري أن أنقضّ عليه وأطرحه أرضًا. لكني جبُنت.

- أنا مش هاكل من اللي إنت عامله ده.

- مش مهم.

قالها ووضع قطعة لحم في فمه وبدأ يمضغها.

إن صوت مضغه عالٍ حقًا.

- مش مهم إزَّاي؟ أومَّال إنت عايز إيه؟

قلتها وأنا أتحرك لليسار كي أرى وجهه من زاوية أفضل فتوقف عن المضغ.

- قلتلك قبل كده، مش أنا اللي عايز.

لكن صوت المضغ لم يتوقف.

جحظت عيني وأنا أنظر إلى وجهه وبالتحديد إلى فمه المبتسم وعقلي يصرخ مُحاولًا تفسير هذه الظاهرة.

من أين يأتي صوت المضغ هذا؟

بالكاد خرج صوتي وأنا أسأله:

- هو... هو مين اللي بياكل معانا؟

- اسأل نفسك، أنت اللي بتأكله.

هنا فقدت أعصابي تمامًا. انقضضت على المائدة وأوقعت كل ما كان عليها أرضًا وقد تحول خوفي إلى غضب عارم. ثم التفتُّ إلى (مراد) صارخًا:

- اطلع برّه بيتي!!!

أمسكت بذراعه وصرخت بأعلى صوتي حتى إنني شعرت بالفوريلًا تزأر معي من وراء أذني:

- براااه!!! براااه!!!!

بدأت أجرُّه جرًا وهو لا يقاومني حتى وصلت لباب الشقة حينها نطق قائلًا بمنتهي البرود:

- مش هتعرف تطلعني.

صحت في وجهه دون أن أترك ذراعه:

- يعني هتعمل إيه يعني؟ قولّي هتعمل إيه. ده أنا هموّتك!!!

- زي ما خلّيتك تكسب الكاس هاخده تاني.

تسمّرت مكاني ونحن على هذا الوضع وقد هربت مني الكلمات. ثم استدركت بنبرةٍ أقلّ جدّة:

- طب وزيني كده هتاخده إزّاي. أنا تعبت علشان الكاس ده ومحدش هايقدر ياخده مني. حتى لو سرقته أنا بطل الجمهورية!! سامع، أنا بطل الجمهورية!!!

- كده؟

قالها ببساطة جعلتني أهتز وقد لاحظت أن صدى الصوت لكلماتي قد عاد وكأنني أصرخ من فوق حافة وادٍ عميق. لكني تجاهلت تلك الظاهرة وأردفت بحزم:

- أيوة كده.

اختفى صدى الصوت حين تكلمت بهدوء لكنه أمسك أصابعي بأطراف أنامله ليزيحها عن ذراعه، وقال بابتسامة غامضة:

- براحتك. سلام.

قالها ملوّحًا لي واتجه لباب الشقة وفتحه. راقبته بأنفاس مبهورة ودفعات الأدرينالين تكاد تفجر قلبي وكل أملي أن يفعلها، لكنه توقف عند باب الشقة وقال دون أن يستدير لي:

- خلّيك فاكر، اتفاقنا مفيهوش رجوع.

- ده كان اتفاق عيال. خلاص؟ ارتحت؟ ورجعت فيه. أنا ماكنتش عارف إنك هتخليني أعمل كده.

لم أصدق نفسي حين رأيته يخطو خارج الشقة ويلتفت إليّ:

- عيال؟ طيب هنشوف مين فينا اللي هيكسب في الآخر.

انقضضتُ عليه وجرجرته خارج الشقة ثم استخدمت وزني كله وكتلتي العضلية الهائلة لأدفعه من فوق السلم بكل ما أوتيت من قوة. راقبته وهو يتدحرج على الدَرَج من دون أن يقاوم حتى استقرّ أسفله.

احتبست أنفاسي وأنا أراقبه منتظرًا رد فعله لكنه ظل راقدًا على ظهره لوهلة. ثم، وبكل هدوء، نهض ونفض التراب عن صدره العاري ورماني بابتسامة ساخرة، قبل أن يتقهقر ويختفي في ظلمات السلم بينما يتردد صدى صوته:

- سلام يا وحش. أشوفك لما تبقى راجل.

حين لوّح بيده وسقطت الخرقة عنها تيقنت مما كنت أشك فيه؛ إن أصابع يده اليسرى ليست خمسة، بل ستة.

***

ظللت محدقًا في الظلام الدامس وقلبي يكاد يقفز من صدري من فرط الإثارة والذهول لكنه كان قد تقهقر كثعبان يدخل جُحره. ببطء بدأت أستعيد أنفاسي التي كانت قد احتبست منذ برهة لكن دون أن أترك حذري. فقد كان من الصعب أن أصدق أن الكابوس قد انتهى بهذه السهولة.

وقد كنت محقًا. فقد تناهى إلى مسامعي خطوات، هناك من كان يصعد السلم... بكل سرعته. تصاعدت دقات قلبي مع صوت الخطوات حتى أصمّت سمعي وأنا أحاول اختراق الظلام الدامس. جهّزت نفسي للصدام الحتمي وصم تدفق الأدرينالين سمعي.

اقتربت الخطوات ورنّ صداها بين جنبات السلم بعنف لتتماشى مع خفقات قلبي المرتعد.

ثم ظهر أخيرًا... وجه (طه) الدائري.

(3)

- يعني إنت ماشفتش إيه اللي عمل كده في السقف المرة دي برضه؟

كان سؤال (طه) وهو يساعدني في إزالة آثار الأقدام والأيدي الآدمية والحيوانية من السقف للمرة الثانية. أجبته دون أن أتوقف عن التنظيف:

- أنا عارف إنكم استحملتوني كتير.

- بلاش هبل. أنا مكنش المفروض أسيبكم لوحدكم. اقفل بقى الأوضة دى ومن بكرة تشوف حتة تانية تقعد فيها. متقعدش لوحدك.

كان رد (طه) الذي أنهاه مشيرًا إلى غرفة (مراد) وهو ينزل من فوق المائدة. هنا مال (حسن) ليصبح في مرمى الغرفة المعنية ويحدق في محتواها المظلم قبل أن يؤكد ما قاله (طه). التقط الأخير الآنية التي تحتوي على اللحم من فوق المائدة ولوى شفتيه مشمئزًا، ثم أسرع بها إلى غرفة (مراد) ليدفعها بقدميه دون أن يخطو داخل الغرفة نفسها. انضممت إليه عند الباب ووقفنا نتأمل تفاصيلها.

الغرفة نفسها كانت مظلمة، باردة، ظلت محتفظة برائحتها الخانقة التي شبّهها (طه) بالخشب المحترق والعود والشواء. لم نفهم شيئًا من تلك النباتات الغريبة التي أحرقها (مراد) في كل ركن بالغرفة ولا المُكوِّنات التي خلطها معًا في الأواني والأطباق مع الأقراص المعدنية. ثم لمحنا أجزاء من حيوانات استنتجنا أنها كلاب مختلفة الأحجام والأعمار والأنواع، قبل أن أشير إلى السلسلة المعدنية الغليظة الملتفة حول رقبة الكلب الرمادي وأومأت برأسي تجاه (حسن).

هز (طه) رأسه متفهمًا وأشار بدوره إلى تلك الوجوه المقلوبة المنقوشة على أخشاب الفراش والعملات المعدنية:

- أنا مش فاهم هي دي أقراص ولّا عملات قديمة ولّا إيه بالظبط؟

- هو إحنا أصلًا لاقيناها بالصدفة؟ أصل مش معقول (مراد) يظهر في نفس التوقيت ويطلع عارف هي بتستخدم في إيه.

كان تساؤل (حسن) ليجيبه (طه) وهو يغلق باب غرفة (مراد):

- هو إنت عارف هي بتستخدم في إيه؟ كلها تخاريف وخزعبلات ونجاسة وخلاص. إحنا نسيب كل حاجة زي ما هي ونكلم البوليس.

- لأ بلاش البوليس!!

كان تعقيبي السريع فالتفت إليّ وقال:

- ليه؟

- يعني إنت مش عارف يا (طه)؟

- علشان اللي حصل في البطولة واللقب اللي حصلت عليه، مش كده؟

حدق (طه) في وجهي منتظرًا إجابتي التي لم أجرؤ على النطق بها. في النهاية اتفقنا على أن ننهي الموضوع عند هذا الحد وأقسمنا على عدم البوح بما رأيناه لأي مخلوق حتى يستطيع أبي التخلص من الشقة ببيعها و... نستطيع نحن النسيان.

وبطبيعة الحال لم أستطع البقاء في الشقة، وكان (طه) من الشهامة أن ذهب إلى الدكتورة (تهاني) وأخبرها أنني بحاجة لمكان للمبيت. كان العذر الذي قاله لها أن الوحدة قد بدأت تؤثر على نفسيتي.

ولم يكن يكذب في شيء فقد كنت في أسوأ حال. كاد ندمي على ما فعلته يلتهمني حيًا، يحرقني كالنيران التي حلمت بها قبلها بليالٍ قليلة، لم أفِق من صدمة ما كنت شاهدًا عليه وشريكًا فيه إلا بعد مرور أسبوع كامل وقد تركت لي (تهاني) المساحة الكافية لأتعافى ولم تُلحّ عليّ للذهاب إلى المعهد. أما أستاذ (عادل)، زوجها المحامي طويل القامة والبال، فلم يكن أقل عنها تفهُمًا. وغرفة ابنهما المُتوفّى كانت مناسبة لي تمامًا.

فكرت طويلًا في العودة للتدريب وبعد تردد حسمت قراري وذهبت للنادي. هناك وجدت خبرًا سارًا في انتظاري: فقد تمت الموافقة على عقد طويل المدى بيني وبين نادٍ عريق في القاهرة.

وهكذا وجدت أن فوزي على (رزق) كان له صدى أقوى مما توقعت. تدريجيًا تناسى الناس ما حدث له ولم يكن قد مضى أسبوع على البطولة حتى طواه النسيان وصرت أنا حديث الساحة.

مضت الأيام سريعة دون أدنى محاولة من أيٍّ من أصدقائي ذكر (مراد) أو ما رأيناه في غرفته، ثم بدأت أنا و(حسن) ننتظم في الذهاب للمعهد بعد أن أكد لنا (طه) أن (مرادًا) لم يظهر. عادت المياه لمجاريها بيني وبين (طه) والتأم شمل مجموعتنا حتى بدأنا بالفعل ننسى ما حدث. تدريجيًا عاد (حسن) لشخصيته المحببة ولكننا لاحظنا أنه قد فقد جزءًا كبيرًا من بريقه وعفويته.

ثم قمت بأكثر الخطوات شجاعةً في حياتي: الاعتذار لـ (رقية).

لم أختلق عذرًا أو أقم بتأليف حجة واهية، بل صارحتها بما كنت أمرُّ به من ضغط نفسي. توقعت أن يزيد هذا من عرض الفجوة بيننا والتي كانت أوسع من المسافة بين الأرض والشمس لكن، ولسبب لا يعلمه إلا الخالق، صدقتني في كل ما رويته لها وشكرتني لصراحتي.

بدا لى أن حياتى ستعود كما كانت.

ثم جعلتني (تهاني) أهاتف أبي تليفونيًا وأخبره بفوزي باللقب، وكان رده أنه سعيد بهذا الخبر لكنه مشغول ويريد أن ينهي المكالمة. تغاضيت عن جفائه لأنتقل إلى موضوع الشقة. حاولت إقناعه ببيعها بحجة أنها آخر سنة دراسية لي في مرسى مطروح، لكنني شعرت أنه كان ينتظر اللحظة المناسبة ليفاتحني هو في الأمر. وعدني في نهاية المحادثة أنه سيفعل لكن بعد انتهاء العام الدراسي حيث أنه في موسم الصيف ترتفع أسعار العقارات.

كم كان باردًا وعمليًا كالروبوت.

في المساء عادت دكتورة (تهاني) من المعهد متأخرة ومعها خبر صادم. حينها عادت إليّ كل تفاصيل الأسابيع الثلاثة الماضية دفعة واحدة.

لحظتها اكتشفت أن تلك الفترة بكل ما فيها من جنون كانت الهدوء الذي يسبق العاصفة.

***

- إنت رحت لولاد (عيطة)؟

سألتني دكتورة (تهاني) بعد أن انفردت بي في صالة منزلها. مصدومًا تأملت وجهها الطويل وبسمتها التي فشلت في أن تخفي قلقها قبل أن أركز في سؤالها:

- أفندم؟ لا طبعًا.

- فيه حد راحلهم واستفزّهم بموضوع (مروان) تاني. متأكد إنك ماجيتش ناحية حد منهم؟

- أيوة والله. هو أنا مجنون؟ ده أنا هربت من موضوع البشعة دي بالعافية. أقوم أروح لها برجلي.

اللعنة عليك يا (مراد).

اللعنة عليك!!!

صرخت بها في داخلي لكن احتفظت بوجهي جامدًا وعيني ثابتة على وجه (تهاني)؛ خصوصًا أني رأيت باب الشقة وراءها يُفتح ببطء.

تفحَّصت ملامحي لوهلةٍ ثم تنهدت قائلة:

- كده أنا مش هقدر أمنعهم. موضوع (مروان) اتفتح تاني ولازم تروح لـ (البشعة).

- ...

- أنت رحت فين؟ بتبص على إيه؟ مالك بتترعش ليه؟؟

قالتها وهي تدقق النظر في وجهي وثُربِّت على ساقي. كنت قد فقدت إحساسي تمامًا بالموجودات وأنا أتابع ذلك الشكل شبه الآدمي الذي دخل من باب الشقة على أطرافه الأربعة. لم أحوِّل عينيَّ عن وجه محدثتي كي لا تنتبه لما يحدث خلفها، لكن هذا منعني من تحديد تفاصيل هيئته. لم يكن هذا ما ما أصابني بالرعب ولا حتى السرعة غير الآدمية التي كان يتحرك بها، بل لأنه لم يكن يمشي على الأرض. فقد صعد على الحائط فور دخوله من الباب وبدأ يزحف على السقف، في اتجاهنا.

التفتت (تهاني) لتنظر خلفها ودارت بعينيها في أنحاء الشقة قبل أن تلتفت إليَّ.

- فيه إيه؟

حدَّقت في وجهها مُحاولًا ألَّا يظهر الذعر على ملامحي.

رُحماك يا ربي.

هنا وقف من كان يمشي على السقف فوقنا حتى صار رأسه خلف رأس (تهاني) مباشرةً، ورأيت بطرف عيني الابتسامة المجنونة التي لاحت فوق وجهه المقلوب. أدركت لحظتها أنها مُحقَّة... لا مفر. أغمضت عيني وأطرقت قائلًا:

- فعلًا، لازم نروح للبشعة يا دكتورة. لازم نكمل اتفاقنا.

(4)

كان مشوارنا إلى بني (عيطة) طويلًا. جلست مع (حسن) و(طه) في مؤخرة سيارة أستاذ (عادل) بعد أن قرر أن يأتي هو وزوجته معي ليؤازراني في ذلك الموقف الصعب. في الواقع كانت دكتورة (تهاني) الحماية الحقيقية هى وزوجها مما كان ينتظرني في قلب الصحراء. في طريقنا خارج المدينة طلبت منهم نأخذ طريقًا بعينه، فقد تمنيت أن أرى وجه (رقية) الرقيق. وبالفعل ابتسم الحظ لي ووجدتها في شرفتها. ما إن رأتني حتى لوّحت لي ولوحت لها ثم أسندت رأسي على الأريكة وأخذت أردد مقولة أمي:

"بكرة أحلى.. هتعدّي.. هتعدّي".

سرنا لساعات في مدقات صخرية لا تنتهي. صعدنا تلالًا قاسيةً وعبرنا وديانًا جدباء حتى وصلنا للواحة المستترة التي كانت تربض بها عشرات الخيام. كانت الشمس قد قاربت على المغيب؛ لذا فقد انتشرت شُعل متوهجة فوق نخلات قليلة العدد يقفن بخشوع حول عين الماء وسط بساط أخضر ضيق. تتدلّى شعل مشابهة أعلى عروق خشبية منصوبة أمام خيام زاهية الألوان في تناسق دافئ مع النجوم فوقها.

رَبّت (طه) على كفّي ليشعرني بالأمان، وقد نجح بعض الشيء. ثم توقفنا عند خيمة كبيرة يصطفُّ أمامها رجال من البدو الغلاظ. ترجّلنا والتوجس يملؤنا بعد أن لاحظنا التوتر على وجوه الجميع. تبادلت مع صديقيّ نظرات القلق وانتظرت حتى دلف الجميع للخيمة قبل أن أهمس لـ (طه):

- أنا خايف يكون (مراد) قال حاجة.

تعلق (حسن) بذراعه وهمس له في أذنه الأخرى:

- الموضوع شكله مش هيعدي على خير يا (طه).

همس بدوره لكلٍّ منا كي يُطمئننا وأشار إلى (تهاني) التي كانت تراقب الموقف في صمت، قبل أن تلتفت إليّ وتقول بصوت مهموم:

- المشكلة مش في البدو. هُمّ ماكانوش هيعملوا حاجة وكل الكلام بتاع (البشعة) كان علشان يخوفوك بس ويئولك درس.

- طيب وأنا مالي بس؟

قلتها عن غير اقتناع ثم ابتلعت ريقي واستدرت لأواجه مدخل الخيمة، وكلي يقين أني

على أعتاب أهم وأخطر لحظات حياتي؛ خصوصًا بعد جملة تهاني التالية:

- المشكلة في اللي مستنينا جوّه الخيمة دي.

***

خطوتُ داخل الخيمة بسيقان مرتعشة. نظرت حولي فوجدت أكابر القبيلة يجلسون في شكل دائري حول الشيخ (بدر) ويلتف حولهم بقية رجال العائلات الأخرى. وقف (عبد العظيم) حارس المعهد بجوار الشيخ (بدر) بينما خدّق الجميع في ثبات في هذا الذي الذي دخل لتوّه: شخصي الكريم.

مشهد مَهيب قادر على بث القلق في قلب أشجع الرجال.

أما أنا، فلا أخفيك سرًا، فقد كدت أن أستدير هاربًا بعد أن التصقت عيني بهذا الذي كان يجلس القرفصاء على الأرض في منتصف الخيمة. ذلك الشاب الذي صار كهلًا حافي القدمين عاري الصدر - رغم برودة ليل الصحراء - في نفس البنطال الرياضي الأسود الذي لم يرتدِ غيره منذ رأيته.

ما الذي أتي بك يا مجنون؟ سؤال رجّ كِياني.

وما الذي حدث له؟ ألا يرون كيف شاخ في زمن قياسي؟

ألم يلاحظوا يده اليسرى الملفوفة بالرباط القذر والتي عادت لتصبح بثلاث أصابع بعد أن كان فيها ستة؟

كيف لا يفطنون إلى أن كل ما يحيط بـ (مراد) خارقٌ للمألوف؟

بالطبع لم أكن لأُخبرهم بالطقوس التي كان يقوم بها. لن أفضح نفسي بكل تأكيد.

بغلظة أشار لي عمّ (كامل) العملاق كي أتقدم لمنتصف المكان بجوار العرق الخشبي الغليظ الذي يخترق الخيمة من الأرض الرملية إلى سقفها. امتثلت ووقفت حيث كان يجلس ضيفي السابق. تبادلنا النظرات ثم همست له من بين أسناني:

- إيه اللي جابك؟ إنت اللي روحتلهم واستفزّيتهم؟

انحنى للأمام وهمس مثلي ساخرًا من طريقتي كما يحب أن يفعل ليغيظني:

- قلتلك اتفاقنا مينفعش نرجع فيه مصدقتنيش.

اعتدلت في وقفتي وجُلت ببصري في المكان. مثل (عبد العظيم) مثل باقي الحضور،

حتى الشيخ (بدر)، تخلى الجميع عن عدوانيتهم ورباطة جأشهم أمام ذلك الشاب الهادئ الغامض. حتمًا دار في مُخيلتهم السؤال ذاته:

لماذا جاء (مراد) من تلقاء نفسه هنا؟

رمقت الأخير فرأيت على وجهه ذلك التعبير الخاوي الذي رأيته عليه في شرفتي، عندما اقتحم الأهالي شقتي وسألوه عما فعله بالطفل (مروان). شاردًا هو في نيران الحطب المشتعلة أمامه كأنه يفكر في شيء ما ليس له علاقة بما يحدث حوله. لاحظت طرف شيئًا لامعًا في وسط الخشب المحترق لكن لم أعلق.

أشار لي الشيخ (بدر) بالجلوس بجوار (مراد) ثم وجّه كلامه للدكتورة (تهاني) قائلًا:

- ماتقلقيش يا أستاذة.

لم يكن هناك أحاديث جانبية كثيرة فقد استحوذ المشهد الذي توسط الخيمة على الجزء الأعظم من اهتمام الجميع. ثم تقدمت (تهاني) لتقف بين (مراد) والحطب المشتعل وتكلمت بصوتٍ قويٍ واضح:

- أنا مديرة المعهد وأظن الكل عارفني. النهارده أنا جاية شاهدة زيّي زيّ الباقي، بس لازم تعرفوا إني مش هسمح بإن الولد ده يتأذي.

تقدم عم (كامل) ليقول مزمجرًا:

- إنتي ضيفة يا أستاذة زيّك زيهم، والضيوف ليهم ضيافتهم وبس.

(تهاني):

- أنا كنت فاكرة إن حكاية البشعة دي كانت علشان نخوّف الولد مش نحرقه بجد. إيه اللي جابه؟

- هو جه بنفسه.

كان رد (عبد العظيم) فهتفت (تهاني) بـ (مراد):

- طيب يلّا. لو عايز تمشي امشي.

التقت العيون مرةً أخرى على المشهد في المنتصف بينما ظل الأخير محتفظًا بهدوئه. ثم رفع عينيه لينظر للشيخ (بدر) وابتسم.

من تحت الفُترة البيضاء حدّق الكهل الفسنّ في عينَي (مراد) ثم قال:

- عايز إيه يا ابن الناس؟

- عايز حقي.

قالها (مراد) بمنتهى الثقة لترتفع الهمهمات مرة أخرى لكنها كانت همهمات غاضبة حتى صاح (كامل):

- حقك إيه يا وَلَه؟؟ الواد ده لازمن يتربّى!!

لوّح الشيخ (بدر) بيده ليحثّ الجمع على الصمت وقال مخاطبًا (مراد):

- مين اللي عايز ياخد حقه من مين؟ إنت ناسي عملت إيه؟

حانت من (مراد) نظرةٌ خاطفةٌ لي، وقد كنت أقف على يساره تمامًا. أطرقت متفاديًا عينيه ليستطرد هو مشيرًا إليّ:

- يعني من الآخر كنتوا بتقولوا أي كلام. طَلّعتوا عليّا شفقة وقلتوا إنكم هتثبتوا إني كنت متعمد، قلتوا عليّا همجي وبلطجي. كلام وخلاص. لو عايزيني أمشي يبقى تعترفوا إنكم غلطانين في حقي.

تصاعدت هتافات الغضب في الخيمة وهَمّ البدو أن يمزقوا (مراد) لكنه ضحك بملء فيه ليتجمّد الجميع مشدوهين. أما الشيخ (بدر) فقد كادت نظراته أن تخترق جمجمة (مراد) لعله يفهم غايته من هذا الاستفزاز المتعمّد. ثم هز رأسه لأحد الرجال عند مدخل الخيمة كأنه أعطى موافقته على أمرٍ ما.

خرج الأخير من الخيمة وبعد ثوانٍ طويلة، قضيتها كمراقب قَلِق للحدث المَهيب، سكت الجميع بغتةً واتجهت الأنظار إلى مدخل الخيمة. اهتزت القماشة المسدلة عليه وانفتحت كاشفةً عن صندوق نُحاسي عتيق انطفأ بريقه منذ زمن. ثم دخل البدوي المُلثّم الذي كان يراقب بيتي حاملًا الصندوق على لوح خشبي يناهز الصندوق نفسه في القِدَم.

telegram: @alanbyawardmsr

انطلقت همهمات بين الحضور لكني لم أستطع التقاط معلومة مفيدة منها. كل ما سمعته هو أن ما بداخل هذا الصندوق شيء لم يتصوره بعض الموجودين حقيقيًا. ثم تقدم حامل الصندوق، البدوي عظيم الهيبة، ببطء إلى منتصف الدائرة ووضعه أمام الشيخ (بدر) ثم تراجع ليقف في وقار عاقدًا ذراعيه أمام وسطه. مد الجالسون أعناقهم لينظروا للصندوق وسمعت أحدهم يهمس "إنها" جاءت خصيصًا من عند قبيلة تعيش في قلب الصحراء اسمها "جهام".

ثم انتصب شعر رأسي حين سمعت اسم تهامس به الحضور:

"البشعة".

تقلّصت معدتي وزامت معترضة. إن ما بداخل هذا الصندوق هو (البشعة) إذًا؟ ذلك الشيء الذي لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة ما يكون.

- إنت ممكن تمشي يا بني. مش لازم تثبت حاجة. خلاص إحنا مصدقينك.

قالتها (تهاني) بقلق.

- مش أنا اللي عايز أثبت حاجة، هُمّ اللي لازم يثبتوا كلامهم. هم المتهمين، مش أنا.

كان رد (مراد) دون أن يتخلى عن نظرة التحدّي التي كان يرمي الشيخ (بدر) بها. رفع الأخير كفّه ليشير إلى الصندوق فقام الملثم بفتحه. احتبست الأنفاس وكل العيون بلا استثناء على حامل الصندوق الذي مد يده داخله.

"يا بطل الجمهورية".

هه؟ من نادى عليّ؟

لقد جاء نداء من خلف أذني اليسرى.

تلَفّت حولي لأنظر في وجوه الحضور حتى التقت عيناي بعينين (مراد).

ما الذي تفعله بالضبط أيها المخبول؟

انتبهت حين علَت همهمات وهمسات الاستنكار لحظة ظهور حروق جَليّة على يد حامل الصندوق. ثم تحولت الهمهمات إلى شهقات انبهار حين أخرج من الصندوق غِفدًا جلديًا قديمًا يخرج منه ذراع معدني طويل. بإجلال أمسك البدوي بالذراع المعدني بكلتا يديه واستدار ليواجه الشيخ (بدر)، ثم تقدم ليناوله إيّاه وهو يهمس بأشياء لم نسمعها.

"لسّه فاكر إن كل ده بيحصلّك بالصدفة؟".

تلَفّتُ حولي مرةً أخرى وأنا أكاد أُجَنّ.

- مين اللى بيتكلم؟؟؟!!

صحت وأنا أتلفّت حولي كالمجذوب. سكت الجميع والتقت العيون عليّ في نفس اللحظة التي لمحت فيها وجوهًا مقلوبة تظهر كالأطياف بين الأكتاف والرؤوس.

- أنا مش مصدق اللي بشوفه وبسمعه ده.

قالها (طه) ثم انحنت (تهاني) لتهمس إلى زوجها الذي ظهر التوتر جليًا على وجهه:

- (البشعة) اللي أوصادنا دي هي أقدم واحدة في مصر وغالبًا هي الأصلية والباقي كله تقليد اتعمل على نفس صورتها. دلوقتي هيسخّنوها ويحطّوها على لسانه. لو كدّاب هيتحرق ولو صادق مش هيحصلُه حاجة. تفسيرها العلمي إنه لو كداب ريقه هيبقى ناشف من التوتر.

لم أرَ رد فعل أصدقائي لكني كنت متأكدًا أنه كان شبيهًا بردّ فعلي: مزيج من الذعر والانبهار. غمغم (حسن) بكلمات مبهمة فقطّب أستاذ (عادل) حاجبيه وقال:

- خلّونا نتفرج من سُكات. ولو حد عايز يطلع يقول من دلوقتي.

- أيوة أنا هطلَع، قالها (حسن)، مش هقدَر أستحمل.

لم يكن تركيزي معهم بقدر ما كان على الشيخ (بدر)، الذي أمسك بالذراع المعدني الطويل وأخرجه من الغمد الجلدي ليظهر في آخره قرص حديدي مخيف. كانت حافة القرص المعدني سوداء تمامًا من كثرة تعرُّضه للنيران بينما كان قلبه يلمع، وهذا كان عجيبًا.

أعطى الشيخ (بدر) البشعة إلى (عبد العظيم) الذي أخذها منه في وَجَل وعيناه لا تغادران (مراد). لم أرَ في ملامح (عبد العظيم) الغضب الذي كان متجليًا في المرة السابقة، فقط هناك الحيرة المطلقة. لا بُدَّ أنها المرة الأولى في التاريخ التي يسعى فيها أحد أن يحتكم للبشعة وهو المتهم.

تقدَّم (عبد العظيم) وانحنى ليضع طرف العصا المعدنية الدائريّ في الحطب المستعِر، ثم تراجع ليجلس أمام (مراد) والنار بينهما.

هنا نهض الشيخ (بدر) وخطا ليقف أمام النار بين (مراد) وخَصمه، ثم تقدم الملثم ليقف بجوار الشيخ. تبادلا النظرات للحظة قبل أن يومئ (بدر) برأسه للملثم، فالتفت الأخير للنيران وعاد للهمهمة بصوت غير مسموع. ثم التصقت عين (مراد) بالبشعة التي بدأ اللون الأحمر يغزو لونها الأسود دون أدنى تغيير في ملامح وجهه. وكم كانت صدمتي عنيفة حين لمحت نقشة الوجه المقلوب يظهر على قرص البشعة.

مرت دقائق طويلة والمشهد على هذا الوضع والعيون تتقافز من (مراد) إلى (عبد العظيم). أومأ الشيخ (بدر) للملثم مرة أخرى فتقدم الأخير وأمسك بالمقبض المعدني الساخن ليُخرج الحلقة الدائرية المتوهّجة من النار. لم أدرِ كيف احتمل أن يمسك الذراع الملتهب لكنه فعل.

صاحت (تهاني) غاضبة:

- أنا مش موافقة على اللي بيحصل ده.

سأل الشيخ (بدر) متجاهلًا ثورة (تهاني):

- (عبد العظيم)، اتهامك إيه للولد ده؟

- كان عايز يموّت ابني.

قالها (عبد العظيم) وقد بدأ يستعيد موقفه القاسي من (مراد).

- وإنت بترد بتقول إيه؟

لم يُجِب (مراد) وإن ظل شارذا في النار وبدا لي أنه كان يتمتم كلماتٍ ما.

استطرد (عبد العظيم) صائحًا:

- أنا ابني نفسيته اتدمرت. إنت عملت كده ليه؟؟

هنا تدخّل الشيخ (بدر) وأشار للملثم فتقدم الأخير لـ (مراد) ومدّ كفٌ يده ليمسك ذقنه المربعة. توقف الأخير عن الهمس لنفسه واستسلم تمامًا للرجل ثم أغمض عينيه في سَكِينة.

في تلك اللحظة توصلت للحقيقة المخيفة: إن هذا سيحدث فعلًا. إن هذا المجنون يسعى دون هوادة للخضوع تحت رحمة الحديد المشتعل.

بدأت الهمهمات تعود لكنها كانت همهمات استنكار وعدم تصديق. أبدى أستاذ (عادل) اعتراضه واتفق معه (عبد العظيم) نفسه الذي نظر للشيخ (بدر) مشدوهًا.

فتح (مراد) فمَهُ عن آخره حين نقر الملثم فكّه بسبابته برفق ثم التفت للشيخ (بدر) منتظرًا أوامره.

تجمّد الموقف في تلك اللحظة وتعلقت العيون بالشيخ (بدر)، الذي بدا لي أن كُرْوتَهُ قد نَفِدَت ولم يعُد يتحكم بالموقف.

كان (مراد) هو المسيطر.

نظر (بدر) إلى (مراد) ثم إلى (عبد العظيم) وقال:

- شكله صادق يا (عبد العظيم). مسامحه؟

- خلاص يا شيخنا اللي تشوفه. أنا مسامح.

هنا أشار الشيخ (بدر) للملثم كي يترك (مراد) فتنفّس الناس الصُعداء وعلت ابتسامات الارتياح الوجوه. سمعت أحد الرجال يقول إن "الشاب" شكله صادق فعلًا. نظر الشيخ (بدر)

إلى الدكتورة (تهاني) التي لانت ملامحها وذهب التوتر منها فأومأت برأسها لتحيي الشيخ الرحيم.

أما أنا فتمنيت أن ينتهي الموقف على هذا رغم أن شيئًا ما بداخلي أخبرني أن هذا لن يحدث.

لكني لم أتوقع، ولا بعد ألف عام، ما حدث بعد هذا.

هنا لا بُدَّ أن أرأف بحالك وأرحمك من تفاصيل أقل ما يُقال عنها أنها ستؤرّق منامك بقية حياتك. فهذا بالضبط ما حدث لي. لذلك سأعفيك من الكثير من الصراخ والذهول والاشمئزاز والذعر وأختصر لك ما حدث.

فقد أمسك (مراد) بيدي ووضعها على الذراع المعدني للبشعة قبل أن يدفع بها في حلقه.

ثم أمام عيوننا المذعورة كسر طرف اليد الملتهب بأسنانه وترك لي الذراع.

... ثم ابتلع البشعة.

"هنشوف مين فينا اللي هيكسب في الآخر يا وحش"، همس الصوت وراء أذني.

وفي نهاية الأمر... نَفَّذ (مراد) خطته.

ومات.

الجزء الثاني

2021

الفصل الرابع

تمنيت يومًا بلا أمسٍ، وقد عشتُ في أمسِي أمَدا ولهثتُ خلف أحلامِي بلا كَلِلٍ حتَّى صرتُ لها عَبدا

(1)

هل كان كل شيء حتميًا فعلًا؟

هل كان ظهور "هذا الذي لم أعُد أريد ذكر اسمه" في حياتي مُدبّرًا فعلًا كما قال (طه) أم مُقدّرًا كما كنت أظن؟ هل كنت قطعة استخدمها كما يحلو له لتنفيذ خطة شيطانية ما؟

هنشوف مين فينا اللي هيكسب في الآخر، هذا كلام ليس له معنى، لقد مات أمام أعيننا ميتةً بشعة. كيف سيفوز بعد كل هذا؟

تعمدت نسيان منظر "هذا الذي لم أعُد أريد ذكر اسمه" بعد أن اقتطع جزءًا كبيرًا من البشعة الملتهبة بأسنانه ودفع به في حلقه. رأيت بعدها حارس البشعة الملثم وهو يسرع خارج الخيمة مع ما تبقى منها... ومنه، قبل أن يختفي في الصحراء.

كل ما أذكره هو أني كنت أصرخ رعبًا مما رأيته وألمًا بسبب يدي المحترقة. بعدها قام أستاذ (عادل)، زوج الدكتورة (تهاني)، بسحبنا أنا وأصدقائي ووضعنا في مُؤخّرة سيارته بعد أن شلّ المنظر تفكيرنا. ثم قامت (تهاني) بلفّ قماشة مبللة حول أصابعي وأدارت بعدها حديثًا قصيرًا مع الشيخ (بدر) بجوار السيارة.

مضمون هذا الحوار، والذي سمعت أطرافه فقط، أن الأخير كان يشكّ في أنه قد خطط منذ اللحظة الأولى كي يأتوا له بالبشعة. اعترضت (تهاني) بشدة على هذا الاتهام وقالت إن التفسير الوحيد هو أنه شاب مضطرب نفسيًا.

لم أدرِ بالضبط ما الذي يدفع الشيخ (بدر) أن يظن هذا الظن وما المميز في قطعة الحديدة المتفحّمة تلك لتحوز على كل هذا الاهتمام، لكنني سمعته يخبرها باعتقادٍ قديمٍ عند (أولاد جِهام) - العائلة التي منها الملثم حارس البشعة - له علاقة بالكذب والخداع والرمز الذي تمثله "البشعة". لم أهتمّ أن أعرف أكثر لأن كل ما أردته في تلك اللحظة هو أن أترك ذلك المكان وأذهب للمستشفى.

كانت آخر كلمة قالها الشيخ (بدر) وهو يرمقني بقوة أنه الآن يخشاه أكثر من السابق.

***

لا أذكر الكثير عن الأيام اللاحقة لذلك الحادث، كل ما أذكره أنها مرت ببطء شديد، كأن عقرب الساعة كان يتثاءب في كسل واستفزاز متعمّد. قضيت القليل منها عند (تهاني) في حالة من الشرود والانفصال التام عن الواقع كالتي انتابتني ليلة البطولة. أذكر أيضًا مشاهد متقطعة لـ (تهاني) وزوجها وهما يعتنيان بإصابتي الجسدية والنفسية، لكن الأخيرة ظلت

تزداد سوءًا حتى أفقتُ يومًا منها لأجد نفسي في شقتي. بالتحديد في غرفة "هذا الذي لم أعُد أريد ذِكر اسمه"... أحدق في الفرو الأجرب والقطع المعدنية المنقوشة التي كانت مبعثرة فوق فراش أمي.

كان من الطبيعي أن أذهب إلى (تهاني) كي أفهم منها ما الذي حدث وكيف انتهى بي الأمر في بيتي مرة أخرى أو حتى ألجأ لأصدقائي، لكني لم أفعل. قضيت ليالي طويلة وحدي في حالة انفصال عن الواقع تخلّلتها لحظات قصيرة من الصحوة. أفيق لأجد نفسي أبكي على أرضية غرفة أبويّ والكأس في أحضاني أو أجد نفسي أضحك بهستيريا في الحمام وسط العملات المعدنية. أحيانًا كنت أجد نفسي فوق المائدة والكراسي تسجد لي، وأحيانًا أخرى أصحو لأجدَ نفسي في الشرفة أحدق في فناء المعهد والفرو رابضٌ أسفل قدميّ.

وهناك لحظات أخرى، لحظات أقصر وأقل نُدرةً من السابق ذِكرها، أرى فيها وجه دكتورة (تهاني) أو أحد أصدقائي على باب الشقة. لكني أذكر أنني كنت أطردهم بمنتهى العنف والغضب حتى توقفت تلك المواقف عن التكرار.

آخر لقاء لي مع (طه)، والذي جاء لزيارتي مع (حسن) في إحدى المرات النادرة التي كنت فيها متصلًا بالواقع، لم يكن سلسًا على الإطلاق.

- عايز إيه يا (طه)؟

قلتُها له بنبرةٍ باردةٍ دون أن أدعوهم للدخول، فتبادل مع (حسن) نظرةً شعرت أن معناها "مش قلتلك؟" قبل أن يجيبني:

- شفت إني كان عندي حق.

- شاطر. عايز إيه بقى؟

هنا تجرأ (حسن) وحاول تهدئة الصدام:

- اعذره يا (طه)، موقف البشعة ده صعب يتنسي والحاجات اللي كانت بتحصل...

قطع كلامه بغتةً فالتفتُ إليه لأجده مُحدقًا في سقف الشقة خلفي في ذهول، قبل أن يشير لـ (طه) كي ينظر هناك. خرجت إليهم وأغلقت الباب خلفي لأقول:

- بقولُكم إيه، الوقت مش مناسب.

سكت (طه) لوهلةٍ تأمل فيها ملامحي بطريقته المستفزة التي يوحي بها أنه يفهم كل شيء فهتفت مُحتدًا:

- بقولّك إيه يا (طه) ماتعملّيش فيها محلل نفسي. أنا زي الفل.

- زي الفل؟ إنت شايف شكلك بقى عامل إزاي؟ بتعمل إيه لوحدك هنا؟ سبت بيت دكتورة (تهاني) ليه؟ رجعت علشان تكفّل اللي كان بيعمله، مش كده؟

- بَجَهّز للمنتخب، معلش، الفترة اللي جاية انسوني شوية.

اغرورقت عينا (حسن) بالدموع بينما تنهد (طه) ولوى شفتيه في تأثُّر ثم أنهى اللقاء قائلًا:

- خلّي بالك يا صاحبي، اللي هو علمهولك ده أكيد مش علشان خاطر عيونك. اوعك تنسى إنه قالّك "هنشوف مين اللي هيكسب في الآخر".

مستفز ومتحذلق، لكنه كان مُحقًّا.

ترك (طه) و(حسن) المعهد والتحقا بآخر خارج المحافظة. ثم نما إلى علمي أن الأخير قد تغير كثيرًا وأصبح أكثر انطواءا بعد تفرق مجموعتنا، حتى إني سمعت أنه بدأ يتردد على طبيب نفسي. وبعد معرفة ما دار بيني وبين (زقيّة)، جعلها أهلها تكمل السنة من منزلها ليصبح كل شيء بلا معنى.

رغم أني لم أعترف بذلك لكن (طه) كان هو أكثر من أثّر فيّ بابتعاده.

بعد رحيله شعرت أني... أعزل.

ثم وجدت نفسي لم أعد أهتم. فليرحلوا جميعًا، فهم ليسوا أول من يفعل ذلك. هذا هو السبيل الوحيد لطيّ هذه الصفحة.

لم أعُد أهتم إلا بشيء واحد: ما تركه لي "هذا الذي لم أعُد أريد ذكر اسمه". لأنه رغم كل ما حدث فالشيء المؤكد هو أن ذلك الشاب المجنون قد رحل بعد أن فتح لي خزائن الأرض وأنه "أنا" من فاز في النهاية.

(2)

خريف 2020...

ثلاثون عامًا مضت كالسهم قضيتُها من نجاحٍ لآخر. أصبحت أمتلك مؤسسة رياضية كبيرة واسمي الرنّان في عالم الرياضة والرشاقة أصبح هو جوهرة تاج ثروتي الهائلة. صرت أبًا لفتى في السادسة عشرة هو قُرّة عيني: (عبد الله)، انفصلت عن أمه منذ عشرة أعوام لكننا، وبطريقة لا يعلمها إلا الله، تخطينا الأزمة دون أن يهشم أحدنا وجه الآخر.

وقبل أن تسأل لقد كان خطأها. فهي، دعني أتذكر كيف صاغتها، نعم تذكرت: فهي لم تعُد تستطيع أن تعيش مع رجلٍ لا يعرف إلا النجاح. أم كانت "لا يعرف إلا الصراعات والصدامات"؟ لا يهم، فالنتيجة واحدة، هو أنها لم تستطع الحياة في ظلي.

أذكر الآن معركتنا الكبرى والأخيرة والتي كان سببها (عبد الله) الذي، رغم أنه كان طفلًا بدينًا وغير مؤهل جسديًا، لكني لم أيأس منه وظللت أدفعه دفعًا بكل الوسائل حتى أصبح بطلًا في رياضة الأمراء: التِنِس.

هل أخطأت في هذا؟

هل كان من المفترض أن أتركه يهمل في نفسه وبدنه حتى يصبح مثل... مثل (حسن)؟

لم أتوقف حتى أصبح كما يجب أن يكون الفتيان. قوي البنية، يماثلني تمامًا عندما كنت في نفس سِنّه، ولولا بعض الاختلافات الطفيفة كلون عينيه العسليتين وذقنه المدبب لظننته استنساخًا لي.

اتهمتني زوجتي بتدمير نفسيته. رغم كل ما كنت أفعله كي أجعل منه إنسانًا أفضل. الحمقاء. وبالطبع لم تكن أمامها أية فرصة في الحصول على حضانة (عبد الله). فقد نسف طاقم المحامين الذين يعملون لديّ المحامي الهزيل الذي وكّلته هي في القضية. مسكينة. لم تتعلم أهم شيء طيلة فترة ارتباطنا وهو أني لا أقبل الهزيمة.

وهكذا بعد أن صار العالم في يدي وأصبحت أحلامي كلها حقيقة، تصورت أن تلكم الأيام التي قضيتها مع "هذا الذي لم أعُد أريد ذكر اسمه" هي أكثر أيام حياتي جدلًا.

لكنني كنت مخطئًا.

فبعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا انكشف أكبر أسرار حياتي.

***

في طريق عودتنا من الغردقة دار بيني وبين ابني حديث طويل أنهيته قائلًا:

- أنا مش عايزك تبالغ يا (عبد الله). ده مانش زي أي مانش. هتكسبه وتمسح اللي هيلعب أوصادك.

- مانش زي أي مانش إيه يا بابا؟ ده مانش النهائي. ومع (خالد حسيب) اللي دايمًا بيكسبني.

- ما هو التنس زيّه زي أي رياضة يا حبيبي. فيها العكسب... والمكسب.

قلتها ضاحكًا لكن لم تزق لابني الدعابة. زفر بعدها بغضب ونظر خارج النافذة فرميته بنظرة ساخرة والتفتُّ للطريق. لم تمرّ دقائق حتى انتبهت لشيء فقلت:

- استنى... مش ده (خالد) ابن (شريف حسيب)؟

- أيوة.

كانت هذه المعلومة كافية لتجعل اهتمامي بمباراة (عبد الله) يأخذ شكلًا مختلفًا.

***

هل قلت لك إني لا أحب الخسارة؟

علاقتي مع شريكي السابق (شريف حسيب) هي خير مثال على ذلك.

ربما يجب أن أنوّه أيضًا أنه، عكس ما يدّعي بالطبع، كان السبب في انقسام شركتنا لأخذ أنا المؤسسة بفروعها وعلامتها التجارية وتوكيلاتها والمنتجع الصحي بالغردقة، ليستحوذ هو فقط على النادي الرياضي في القاهرة. وهذا هو كل ما استطاع أن يفوز به.

عنيد هو وغبي، لا يفوّت فرصة إلا ويحاول استغلالها لإثبات انتصار زائف عليّ، سواء أكان ذلك في صفقة رياضية أم تجارية أم حتى حوار بسيط. "يحاول" فقط. فأنا، كما لا بُدّ أنك تعرف الآن جيدًا، ليس فقط لا أقبل الخسارة، لكني أصبحت لا أعرفها.

***

أودعت ابني قيلتي في مدينة العبور وأسرعت إلى مكتبي في مصر الجديدة حيث وصلت في حالة مزاجية سيئة. مجرد معرفتي بقرب نهائيات بطولة (عبد الله) كان كافيًا لكنه كان سيلعب أمام ابن خَصمي اللّدود. كان هذا كفيلًا بالإطاحة بمؤشر التوتر لديّ خارج حدوده.

لم يتعجب طاقم الموظفين من ظهوري في تلك الساعة المتأخرة؛ فلم أكن ممّن يؤمنون

بمواعيد العمل لأن كل وقت هو وقت للعمل. رغم اعتيادهم توتري خصوصًا أثناء إحدى بطولات (عبد الله)، فإنهم تعجبوا من عصبيتي الزائدة. لم أنتظر حتى أستقر خلف المكتب لأصيح في السكرتيرة أن تأتيني بآخر التقارير عن (شريف حسيب).

أعلم أنه أمرٌ عجيبٌ أن أحتفظ بملف عن تحركات شريكي السابق، لكنه ليس الوحيد، فقد كان لديَّ ملف عن جميع المنافسين به كل تحركاتهم ونشاطاتهم و... أسرارهم. وقد كنت أستمتع برؤية القلق على وجه ضيوفي حين يصدمهم ذلك الوجه ذو الملامح المعكوسة، حيث العين مرسومة مكان الفم، والذي يزيِّن سقف مكتبي كله، ذلك الوجه الذي كانوا يرونه مقلوبًا من كلا الاتجاهين. وهذا بالضبط سبب جعلي لمهندس الديكور أن يزين به سقف مكتبي.

تصفَّحت التقرير سريعًا بعد أن أرسلته السكرتيرة لبريدي الإلكتروني حتى وجدت ضالّتي. قمت بالاتصال بمسئول التعاقدات لديَّ وأمرته بالدخول في مناقصة كبيرة يسعى (شريف) للحصول عليها بكل قوة. وأضفت أني سوف أتابع الصفقة وأنهيها بنفسي.

ما إن أنهيت المكالمة حتى بدأت أهدأ وعرفتِ الابتسامة طريق شفتيّ. أنا خُلِقت للتنافس والمعارك.

الأحمق. كيف يسمح لابنه أن ينافس ابني؟

سوف أسحقه.

أقصد... سوف يسحقه.

***

جلس (شريف) أمامي بوجهه البيضويّ السخيف وشاربه الخفيف الذي يحيط بشفتيه الغليظتين. ينظر إليَّ بعينيه الضيقتين عبر المائدة والعرق يتصبَّب على رأسه الأصلع كأن به حمّى. أكثر من مرة سأله المدير المالي للشركة التي كنَّا نسعى للتعاقد معها إن كان بخير، ليجيبه بعصبية بالغة أنه كذلك.

كانت لديَّ خُطة بالتأكيد. لكنها خطة لا تعتمد على الدراسة المالية ولا الفنية للصفقة، فقط تحتوي على كلمة واحدة: اسم بلدة. دعابة من جملة واحدة هي كل ما قلته. تجمَّد بعدها (شريف) في جلسته كأنه أصبح تمثالًا لا حياة فيه، ثم طأطأ رأسه واستأذن مغادرًا المكان.

ابتسمت في ظَفَر.

فحتمًا لا يريد خَصمِي الضعيف أن يعرف العالم ما فعله بالضبط في الولايات المتحدة

الصيف الماضى.

صُدم كل من كان بالغرفة من رد فعل (شريف) فقد كان كل ما قلته:

"ما يحدث في ڤيجاس، يبقى في ڤيجاس، أليس كذلك يا شريف بك؟".

في طريق العودة توقفت فوق كوبري أكتوبر لأتخلص من قطعة معدنية منقوش عليها وجهٌ مقلوب.

(3)

نعم لقد ترك لي "هذا الذي لم أغذ أريد ذكر اسمه" كنزًا لا يُقدر بالمال، مفتاحًا يصلح لكل الأبواب، استخدمته بالقدر المناسب كي أصل لفرادي دون أن أثير التساؤلات. تعلمت منه في الأيام القليلة التي قضيناها معًا ما أستطيع به أن أقهر خصومي حتى قبل النِّزَال. علمني طقوسًا، كلماتًا، أفعالًا يشيب لها الولدان ويخجل منها أكثر المُدنّسين هرطقة، أشياء ضحّى بحياته كي أدرك قيمتها الحقيقية.

"وكما يُقاس الفشل بقدرتك في العثور على أعذار لخسارتك يُقاس النجاح بعدد أعدائك"، مقولة صادمة أنا معك، لكن هذا هو المقياس الواقعي للعظمة، مقياسي أنا.

أليس هذا ما يؤمن به الجميع لكنهم لا يريدون الاعتراف به؟ نحن نعلم جيدًا أن السُّلّم الحقيقي للمجد هو أكتاف منافسينا، وأنا كنت مؤمنًا بهذا تمامًا.

أو اكتشفت أنني كنت مؤمنًا بها بعد أن تذوقت نشوة النصر.

بالطبع (شريف حسيب) ليس هو غريمي الوحيد. أضف إليه العشرات من المنافسين والشركات ومديري التعاقدات ممن أقعدتُهم عن العمل. حينها سيصبح لدينا قائمة طويلة من زملاء "الكار" الذين أصبحوا لا يتمنون لي خيرًا. لذلك أظنك ستلتمس لي العذر في عدم قدرتي على التمييز بين العدوّ والصديق. وبما أنني ليس لديّ وقت ولا ذهن لإضاعته في التفرقة بينهم فقد وجدت حلًا عبقريًا.

الكل عدو إلى أن يثبت عكس ذلك.

***

- (سليم محمود).

هكذا عرّف نفسه. شاب أسمر في الثلاثينات ذو وجه دائري بَشُوش وملامح واضحة لا تخفي شيئًا. لم يهمني في هيئته شيءًا إلا تفصيلة واحدة: لقد كان رشيق البنية بادي الصحة، فقد كنت أنظر لمن يهتمون ببناء أنفسهم وصحتهم البدنية بعين الرضا. فرغم أنني كنت قد تعديت الخمسين لكني كنت ما زلت أحتفظ ببنيتي الرياضية وكتفي العريضتين دون تغيير يُلحظ في ملامحي. ولولا بعض الشيب الذي تسلل إلى مؤخّرة رأسي وبعض الصلع في مقدمته لظننتني ما زلت في العشرين. كل ذلك كان ضروريًا فمظهري هو عنوان نجاحي في عالم الرياضة.

جلست على الكرسي أمامه واضعًا ساقًا فوق الأخرى. وقف هو عبر المائدة الأنيقة في

المطعم ذي النجمات الخمس الذي اعتدت تناول الغذاء فيه، يحاول بكل طاقته ألّا يبدو عليه الارتباك.

- خير يا أستاذ (سليم).

سألته بغلظة فارتبك وفتح حقيبته ليخرج كل ما بها من أوراق:

- خير يا فندم. لو حضرتك تعرف بقالي قد إيه بحاول آخد الميعاد ده. إحنا سيادتك "براند" أحذية رياضية جديد صناعة محلية حضرتك بجودة عالمية. بُص سيادتك.

تلت ذلك دقائق طويلة من الملل المُركّز وكان من الطبيعي أن أنهي الاجتماع عند هذا الحد وأصرفه لأكمل وجبتي. رغم كل ذلك لم أصرفه. والسبب كان ملحوظة أخرى: حذاؤه. فالذي يتنعل حذاءً من نفس النوع الذي يحاول بيعه لهو شخص مؤمن بما يبيعه ويرى أنه أفضل ما يمكن ارتداؤه في مقابلة بهذه الأهمية. لذا لك أن تتخيل سعادته حينما طلبت منه ترك الكتالوجات والأسعار. مد يده ليسلم عليّ لكنه تسمّر حين رأى القفاز عديم الأصابع الذي كنت أرتديه في يدي اليسرى، قبل أن يبتسم بصعوبة وهو يلملم أشياءه ويغادر المطعم.

تجاهلته وتأملت الأرقام. وابتسمت. لم يخُنّي حَدسِي.

كانت فرصة حقيقية، لكنه ما زال عدوًا حتى يثبت العكس. يجب عليّ أولًا أن أدرس الأمر جيدًا فهناك دائمًا منتصر ومنهزم في أي صفقة وكانت نيّتي أن أكون أنا الظافر.

حتى لو كان الثمن سحق الطرف الآخر.

(4)

ولأنني أتنفس توترًا وقلقًا فقد تجددا مع اقتراب يوم مباراة (عبد الله). لم أربط بين الأمرين في بادئ الأمر؛ خصوصًا بعد فوزي على (شريف) في الصفقة الأخيرة، لكن عندما جاء اليوم الموعود تيقنت أن تلك المباراة اللعينة هي السبب. عادت إليّ ذكرياتي الأليمة مع (رزق) وشعور القلق الرهيب الذي كان يأتيني قبل المباراة ويتضاعف بعد أن أقف أمامه.

عندما رُزقت بـ (عبد الله) أقسمت أن أكون مختلف عن والدي، أن أكون له خير مُعين طيلة حياته. أقسمت أن أكون مثل أمي، أدفعه دومًا للأمام مهما كانت العقبات. ولم أكن لأُغَيِّر هذا تحت أي ظرف؛ لذا فقد تركت أعباء عملي كلها وذهبت لمشاهدة المباراة ومؤازرة ابني في هذا التحدي الصعب. لكنني قمت بإجراءٍ احترازي.

في اتجاهنا للاستاد مررت بمقرّ شركتي وصعدت إلى مكتبي لثوانٍ قليلة. أغلقت الباب وفتحت إحدى ضُلَف الدولاب الخشبي الفاخر الذي كان يحتل الحائط الأيمن وابتسمت حين رأيت كأس الچودو القديم. التقطت ضرّة جلدية قديمة منكمشة في ركن الضلفة وتأملت القطع المعدنية القليلة المتبقية فيها قبل أن أخرج إحداها. وضعت بعدها كل شيء مكانه وغادرت مسرعًا.

طيلة الطريق أخذت أشحذ من همّة (عبد الله) وأشجعه في محاولةٍ منّي للسيطرة على قلقي أنا. ما زاد الطين بِلّةً أنني وجدت (شريف حسيب) نفسه هناك يراقبني في تكبُّر. اللعين كان أنفه في السماء وعلي وجهه ابتسامة واثقة كأنه فاز بالفعل وانتقم لخسارته الصفقة.

بدأت المباراة ومنذ اللحظة الأولي ظهر تفوق (خالد) على (عبد الله) بعد أن فعل التوتر بالأخير ما فعل.

وكأنه ينتقى أسوأ الأوقات فقد هاتفني (سليم محمود) هذا وسط المباراة ليسألني عن الخطوة التالية. لذلك فقد اعتبرته هديةً أرسلتها السماء كي أُفرغ عصبيتي وتوتري فيه.

- الحقيقة الوقت مش مناسب خالص يا أستاذ (سليم). أنا في الإستاد مع ابني.

- يااااه. آسف جدًا. بَعتذر. آسف جدًّا. ربنا يوفقه. عنده بطولة ولّا إيه؟

- هو إنت جبت نمرتي منين يا أستاذ (سليم)؟

- حضرتك إديتني كارتك. أنا بس كنت عايز أسأل على الميعاد اللي...

- هو إنت برضه مصمم؟!! بقولّك مش فاضي!!!

صحت فيه بكل عنف وأنا أتابع ابني الذي كان ينهزم أمامي شر هزيمة. صمت محدثي للحظةٍ ثم قال بنبرةٍ باردة:

- بعتذر. بالتوفيق.

أنهيتُ المكالمة وقذفت بالهاتف بجواري لأتابع المباراة. ظل (عبد الله) يلتفت إليّ بين حينٍ وآخر كي أمدّه ببعض الأمل والهدوء. لكني كنت في حالة أسوأ منه. أرمي شريكي السابق بنظراتٍ خاطفةٍ لأجد على وجهه ابتسامة وددت سلخها من فوق شفتيه، وقد ازدادت عصبيتي بسبب مكالمة (سليم) المستفزة.

انتهى الشوط الأول بهزيمة ساحقة لـ (عبد الله). لم أستطِع الجلوس ساكنًا وأنا أرى ابني يُجلَد أمام أقرانه، فقررت التدخل.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عما يجب أن أفعله لكني ذهبت إلى (عبد الله) في استراحة ما بين الأشواط وحاولت تشجيعه وبث الروح القتالية فيه. لكنني كنت أكثر توترًا منه بعد أن حاولت تجاهل (شريف) وابتسامته السخيفة دون جدوى.

- بقولّك إيه يا (عبد الله)، اجمد بقي!

- مش عارف يا بابا.

قالها وعينيه تتلألأ فيهما الدموع فنهرته قائلًا:

- استرجل يا ولد!!

احتبست دموعه أمام ثورتي التي لم أستطيع كبتها. ثم انتهت الاستراحة وطلب مني الحكم مغادرة الملعب. نظرت إلى منافس ابني لأجد ابتسامة أبيه اللزجة تعلو شفتيه واحدة مثلها، ثم نظرت لابني فوجدته على شفا الانهيار.

هنا وضعت يدي في جيبي وأمسكت بالقطعة المعدنية القديمة وضغطت عليها بأطراف أصابعي بكل قوة، ثم همست لنفسي:

أنا... لن أهزَم!!!

- (عبد الله)!!

نظر إليّ بوجه هرب منه الدم فأردفت بحزم:

- تعالَ ثواني.

اقترب مني فانحنيتُ عليه وأمسكت كتفه بقوة لأهمس في أذنه بما جعله ينظر إليّ في ذهول. هززت له رأسي مؤكدًا ما أوصيته به قبل أن أتركه ليذهب ويستأنف اللعب.

وعدنا لمنزلنا بالكأس.

***

كيف فاز (عبد الله)؟

كان أمرًا هينًا فبعد أن أطاحت الكرة بإحدى عينَي (خالد) كان الانسحاب هو الحل الوحيد أمامه. لم أسعد بهذا فأنا لست وحشًا لكني لا أنكر أنني انتشيت بمجرد رؤية الهزيمة على وجه شريكي السابق ونظرة اللوعة خوفًا على ابنه.

كيف تجرأ على محاولة هزيمتي؟

(5)

لم يستغرق الأمر إلا ساعاتٍ قليلةً وكنت قد نسيت الأمر برُمَّته ودخلت بسرعة في دائرة انشغالاتي. إن كنت قد بالغت في سحق منافسي فهو في النهاية مجرد فوز آخر ينضم لقائمة انتصاراتي، والمغالاة في تأكيد فوزي أصبحت عادة تعلمت ألّا أقاومها وأن أتعايش معها.

بل وأستمتع بها.

رجعت متأخرًا لمنزلنا في منطقة "عرابي" الراقية بعد أن توقفت فوق كوبري أكتوبر لأتخلص من القطعة المعدنية التي استخدمتها وألقها في النيل. دخلت البيت حيث كان في استقبالي مجموعة صغيرة من الكائنات اللطيفة التي أخذت تموء وتتمسح في ساقي بدلال. انحنيت لالتقط القطط الثلاث وأخذت أداعبها حتى وصلت إلى المطبخ لأعد لنفسي عشاءً باردًا سريعًا قبل أن أصعد إلى غرفتي بالطابق الثاني.

ثم دق هاتفي المحمول.

عندما قرأت اسم زوجة أبي أدركت الخبر الذي ستزفُّه إليّ، فهي لم تهاتفني إلا مرة واحدة قبلها بأعوام لتخبرني بإصابته بالمرض. استمعت لها بوجه جامد دون أن أبدي أي تفاعل وفي النهاية أجبتُها بكلمة واحدة: البقاء لله.

لا أعرف كَمْ مَرَّ عليّ من الوقت وأنا واقف مكاني كالتمثال بعد أن أنهيت المكالمة، ربما لساعة كاملة. محاولات بائسة لاستيعاب الخبر.

كيف كان شعوري لحظتها؟ لم يكن واحدًا بل العشرات من الأحاسيس المتضاربة.

كنت أرفع حاجبيّ وأمطُّ شفتيّ باستغراب ثم أغمض عيني وأضمُّ قبضتيّ بقوة. جاءت بعدها تلك الابتسامة العجيبة التي ارتسمت على وجهي والدموع التي تسللت من أسفل جفوني الجاحظة دون أن أشعر بها.

بهدوء وضعت الهاتف على الطاولة بجانبي ثم ازدادت الابتسامة عرضًا حتى بدأت أضحك دون أن تتوقف دموعي لحظة. وضعت يدي على فمي كي لا يسمعني ابني واستندت بظهري على الحائط حتى جلست أرضًا. ثم جاء الغضب ليطرد باقي المشاعر ومن دون مقدمات بدأت أضرب الجدار.

كيف فعلها؟ كيف سمح لنفسه أن يموت دون أن أريه ما وصلت إليه؟

والآن الفرصة ضاعت!!

ضربت الحائط بقوة متزايدة.

لقد مات أبي دون أن يندم على ما فعله معي!!!

تركت دموعي تسيل دون أن أحاول المقاومة واستلقيت على الأرض.

لقد مات وتركني للمرة الأخيرة.

"بكرة أحلى.. هتعدّي.. هتعدّي"، كيف يا أمي؟

كيف بعد أن فقد كل شيء معناه؟

وفي اللحظة التي ضربت فيها الحائط بكل قوتي وغضبي سمعت ضربة مماثلة على الجانب الآخر، ضربة لا تقلُّ عنها قوةً... ولا غضبًا.

***

استيقظت قرب الفجر على صوت مُواء ونهضت لأكتشف أني نمت في مكاني على الأرض في الردهة. بحثت عن مصدر الصوت وترنَّحت وقوفًا لأتجه إلى غرفتي كي أستأنف النوم وقد بات جليًا أنني قد استنفدت طاقتي كلها. لكني توقفت حين رأيت القطط الثلاث تقف عند باب غرفة (عبد الله) تحدِّق بمحتواها في صمتٍ وتركيز. تأملتهم للحظةٍ متعجبًا ثم هززت كتفي ودلفت إلى غرفتي، فصعدوا إلى الفراش.

telegram: @alanbyawardmsr

لكنني لم أستطع النوم بعد أن هجمت عليَّ مواقف مؤلمة لفترة تمنيت أن تُمحى من ذاكرتي، هذا بالإضافة إلى أن القطط ظلت تموء بطريقتها المعروفة حين تشعر بعدم راحة. سَبَبْتُ اليوم الذي أتيت بها ونهضت من فراشي بلا حماس ثم ذهبت لأوقظ (عبد الله) ليستعدَّ للمدرسة. لم أعِر القطط التي ظلت في مكانها طيلة الليل أي اهتمام ودخلت مُباشرةً لأوقظه.

لكنني لم أكن مستعدًا للمفاجأة التي كانت تنتظرني في غرفته.

***

اقتحمتُ مكتبي كالإعصار وأغلقتُ الباب في وجه سكرتيرتي التي كانت تركض خلفي. أسرعت إلى الدولاب الذي يحتلُّ الجانب الأيمن لغرفة المكتب الهائلة وفتحت ضلفة على أقصى يساره.

تخشَّبت مكاني كالتمثال.

من أبدل بكأس التنس التي فاز بها (عبد الله) كأسي القديمة؟ وكيف خرجت كأس الجودو من هنا واستقرت بجواره في فراشه؟

صحت مناديًا السكرتيرة فأتت مسرعة ووقفت أمامي بوجهٍ هرب الدم منه.

- خير يا فندم؟

- في حد دخل مكتبي؟

- لا والله. ليه يا فندم؟

- في حد فتح الدولاب.

- يا نهار أبيض!!! وفيه حاجة اتسرقت؟

تأملت في محتويات الضلفة وحدقت في كأس التنس التي احتلت نفس مكان كأسي القديمة ثم تنهدت قائلًا:

- لا خلاص روحي مكتبك.

أمسكت الكأس وهززت رأسي رافضًا الموقف بزمّته. انتظرت حتى خرجت السكرتيرة لأضع الكأس مكانها والتقطت الصُرّة الجلدية التي خرج منها صليل عملات معدنية. ذهبت لأجلس على كرسي المكتب وفتحتها بحرص. نظرت لرسمة الوجه المقلوب على السقف ثم تأملت محتوى الصرّة لوهلةٍ قبل أن ألتقط منها قطعة أخرى، وأخذت أديرها لأرى الوجه الذي يظل مقلوبًا مهما غيرت اتجاهي. أغلقت البقجة ووضعتها في الدرج ثم انتبهت للإنتركم الذي خرج منه صوت السكرتيرة:

- أستاذ (سليم محمود) وصل حضرتك.

- خلّيه يدخل.

قلتها قبل أن أهمس للقطعة المعدنية وأضعها في جيبي ثم اعتدلت في جلستي لأستقبل ضيوفي. ضغطت بقوة على القطعة المعدنية بأطراف أصابعي المختبئة في القفاز، وتنهدت مفكرًا وأنا أبتسم للشاب الأسمر الذي دخل مكتبي وكله أمل ولهفة.

لكني لم أستطع تجاهل ذلك الشعور: هناك غيمة ما كانت تتحرك في الأفق.

***

مرت الأيام سريعًا وذهبت في زيارة للمنتجع الرياضي استمرت ثلاثة أيام. لم أتابع

تحركات ابني خلالها إلا عن طريق الرسائل والمكالمات المقتضبة. لكنه كان في أيدٍ أمينة مع مربيته (زينب). ثم فوجئت بـ (سليم) أمامي في المنتجع بحماسه المبالغ وطريقة كلامه السريعة التي كنت أفهمها بصعوبة. أخبرني أنه جاء خصيصًا لإنهاء إجراءات الصفقة بعد أن علم بسفري الذي قطع عملية التفاوض.

في حقيقة الأمر كانت رحلتي تلك هروبًا من إجراءات الوفاة والجنازة والوِرث ومحاولات زوجة أبي اللانهائية للوصول إليّ. فلم أكن أريد شيئًا إلا طيّ تلك الصفحة والبحث عن سببٍ آخر للحياة بعد أن ذهب أبي ليلحق بأمي دون عودة. ربما سيكون ابني، أو مؤسستي أو حتى ذلك المشروع العملاق الذي ظل (سليم) يطاردني من أجله. فطالما كنت أحلم بأن أملك "براند" رياضيًا مصريًا وأنطلق به للعالمية.

- سيادتك الأوراق معايا... والملف... العقد أصله...

طوفان من التلعثم والإخفاق والحركات الخرقاء انهال على نظري المسكين وأنا جالس في مكاني المعتاد على التراس. ممتعضًا صرفت نظري للشاطئ بينما ظل ضيفي غير المدعوّ يحاول لملمة شتات نفسه والعثور على الكلمات الصحيحة. بعد أن فقدت الاستمتاع بفترة الترفيه تلك رحمته من عذابه وأشرت له بالجلوس.

لم تمرّ ثوانٍ حتى ندمت على هذه الخطوة؛ فقد وجدت نفسي أمام المزيد من التُرّهات. لولا أنني قد تأكدت من أنها فرصة لا تُعوّض - وهذا بطريقتي الخاصة - لكنت طردته شر طردة. استمررت في تمنُّعي عن المُضي في الصفقة حتى قال ما جعلها تكتسب مذاقًا مختلفًا تمامًا.

لحظة معرفتي أن (شريف حسيب) يسعى هو الآخر للحصول على ذلك التوكيل قلت له أن يجهز العقد لنمضيه في القاهرة.

- مش سيادتك هتزور المصنع لسه علشان تشوف بنفسك؟

قالها لي مذهولًا من تغيير موقفي المفاجئ.

- ما تقلقش. لو لقيت حاجة مش زيّ ما أنا عايز إنتو اللي هتطلبوا إن العقد يتفسخ.

- مش فاهم قصد حضرتك.

- اسأل عليّا في السوق وإنت تعرف.

رفع حاجبيه مصدومًا من تهديدي المستتر لكنه لملم أشياءه واستأذن بالرحيل قبل أن أتراجع عن قراري.

راقبته وهو ينصرف كالطفل الذي أعطته ناظرة المدرسة بقية الأسبوع إجازة. استقبله رجلٌ أعرج كي يساعده في حمل أوراقه التي كادت أن تقفز من يده، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التعجُّب حين اكتشفت أنه سائقه.

صرفت بصري للبحر في وجوم وشعرت حينها أن هناك فصلًا آخر من معركتي لم يُكتَب بعد. لكنني لم أدرك أنها لن تكون مع (شريف حسيب) بل خَصم آخر لم أتوقعه.

(6)

وصلت القاهرة الخميس مساءً ليستقبلني (عبد الله) بسلوك عجيب. تقبلت تقلباته المزاجية بتفهُّم بعد أن أصبح يطبّق التعريف العلمي لسن المراهقة بحذافيره. قررت أن ننام امعًا في غرفته بعد مشاهدة فيلم أجنبي لتحسين حالته المزاجية.

انتظرت حتّى خلد إلى النوم وخرجت لأجلس في صالة المعيشة، حيث أخرجت الكمبيوتر المحمول لإلقاء نظرة على المستندات التي أرسلها (سليم). لم أذركم مر عليّ من الوقت قبل أن ألحظ القطط الثلاث وقد عادت لموقعها أمام غرفة (عبد الله). هنا تذكرت كأسي القديمة التي ظهرت من العدم في أحضان ابني، فأغلقت الحاسب ووضعته على المائدة ثم ذهبت إلى غرفته. تفرقت القطط فور عبوري بجوارها ثم عادت كما كانت أمام الغرفة حين دلفتها.

اتجهت مباشرةً لمكتب (عبد الله) حيث يحتفظ عادة بجوائزه فوجدت كأس الجودو تقبع فوقه. أمسكت بها وتأملتها بقلبٍ غلّفه الشجن. لقد احتفظت بهذه الكأس لسنوات طويلة بعد أن كانت السبب في كل ما أنا فيه. لقد كانت لحظة فاصلة، تلك التي حصلت فيها عليها، لحظة فوزي على (رزق). كل نجاحاتي وثرواتي جاءت بعد حصولي على لقب بطل الجمهورية ودخولي المنتخب لأمثل مصر أمام العالم. بعدها انطلقت كالسهم في عالم الرياضة.

وقد حان وقت (عبد الله) ليختبر هذا الشعور.

تأملت ملامحه ولجزء من الثانية شعرت بالغيرة. نفضت الفكرة المقيتة وتنهدت مستسلمًا قبل أن أضع الكأس مكانها ثم ذهبت لأنام في غرفتي. اندسَسْتُ في فراشي ومددتُ يدي لأغلق النور بجانبي.

كيف لم يلحظ (عبد الله) أن كأسه تم استبدالها؟

لا يهم. المهم هو تلك القطط اللعينة.

يبدو أنها سَئِمت المكان أمام غرفة ابني وقررت تمضية الأمسية أمام غرفتي. نظرت إليها لأجدها تقف أمامها وعيونها على محتواها.

ما بال هذه القطط البلهاء؟

***

انقضت العطلة سريعًا وعدت بعدها لدائرة أعمالي كالنحلة. ثم جاء ميعاد جلسة إمضاء

عقد الشركة المصرية التى يمثلها (سليم) كي أصبح أنا الموزع الوحيد لها إقليميًا وعالميًا. ذيّلت العقد بإمضائى ثم التقط مصوّرى الخاص صورة لي مع الحاج (سلمان) الفلاح الثريّ مالك المصنع ووعدته بزيارة مصنعه قريبًا. راقبتهم يغادرون مقرّ الشركة من نافذتى العالية ولوّحت مودعًا الحاج (سلمان).

لماذا فعلت هذا؟

لماذا خرجت لأودعهم من النافذة؟

لنقُلْ حدْس ما.

ذلك السائق الأعرج... هل كان ينظر إليّ؟

***

لم يكن الأسبوع قد انقضى نصفه حين بدأت ألحظ سلوك (عبد الله) العدواني مع طاقم الخدم. تكلمت معه بهدوء وطلبت منه تحسين سلوكه لكنه كان لا يحتمل. ظل يحدق بى كأنه لا يسمعنى ووجهه خالٍ من أي تعبير.

سِنٌّ سخيفة!

وجدت أن أفضل حل هو أن أجعله يلزم غرفته بقية الليلة. وفي ميعاد النوم جاءت (زينب) المربية العجوز لتتمني لي نومًا سعيدًا لكنها فاجأتني بردٍّ عجيب:

- معلش حضرتك أنا مش زعلانة من (عبد الله). هو بيعمل كده غصبٍ عنه.

- تقصدي إيه؟

- أصله من ساعة ما كسب وبقى بيتعصب كتير. معلش ممكن تكون البطولة كانت ضاغطة عليه حضرتك.

ابتسمت لها متفهّمًا ثم تمنيت لها ليلة سعيدة.

- معلش. تصبحي على خير.

ذهبت بعدها لأطمئنّ عليه لأجده يغطّ في نوم عميق. ما إن جاء دوري لأنام أنا الآخر ووضعت رأسي على الوسادة حتى جاءت القطط لتقف أمام غرفتي بنفس الطريقة. زفرت حنقًا وأعطيتها ظهري واضعًا الغطاء فوقي فلن أسمح بشيء تافه كهذا أن يحرمني من النوم.

وبما أن لا وقتي الضيق ولا انشغالاتي العديدة كانت تسمح لي بإضاعة الوقت في كأبس

ظهرت مكان الأخرى أو قطط أصابها البلَهُ، فقد فعلت ما كان أي عاقل سيفعله لو كان مكاني: تجاهلت ما يحدث تمامًا.

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.

استمر (عبد الله) في سلوكه السيئ حتى تم استدعائي لمدرسته بسبب عراكه المستمر مع زملائه وعدم احترامه لأساتذته. على نهاية الأسبوع كان قد تسبب في كدمات لأحد التلاميذ وحبس الآخر في الحمّام وأخذ إنذارًا بالفصل. أما سلوكه في البيت فلم يكن أفضل؛ لدرجة أني اضطررت أن أمنعه نهائيًا من الاحتكاك بالخدم، بعد أن كاد يتسبب في وقوع (زينب) مُربيّته العجوز من الشرفة في إحدى المرات.

خلال تلك الأيام لم تتخلَّ عائلة القطط عن سلوكها المريب. في كل ليلة وفي نفس الميعاد - تقريبًا الثانية فجرًا - تأتي لتجلس بوقار القطط المعهود وفي نفس المكان أمام غرفتي.

وقفت أتأمل فيها وأتعجب.

إن هذه القطط الثلاث تراقبني.

***

الفصل الخامس

صنعتُ قلبًا لا يعرفُ الخوفِ، قلبًا لا يعرفُ الهونَ وها قد صارَ يومي بلا أمسٍ، وصارَ غدي بلا معنى

(1)

كان صرحًا عملاقًا بحق، ذلك الكيان الذي بناه الحاج (سلمان) من الصفر. وقفت في منتصف المصنع أحاول ألّا تفضحني عيناي ويظهر التشكّك جليًا على وجهي. كنت أشك في كل شيء، فقد كانت فرصة جيدة أكثر من اللازم. وقد تعلمت أن لو كان هناك شيء أفضل من اللازم فهو في أغلب الأمر ليس كذلك.

هؤلاء العمال لا يبدو عليهم أنهم فعلوا ما كانوا يقومون به من قبل. وأفراد الأمن، نظراتهم مريبة. بينما ظل أحد الموظفين يراقبني طيلة الوقت. حتى ظهر السائق الأعرج بجوار سيارتي ليهمس في أذن (سليم) دون أن يحيد ببصره عني لحظة.

هنا استأذنت وغادرت متحججًا بعذرٍ واهٍ.

لقد تعلمت أن أثقَ في حَدسي. وفى تلك اللحظة بدأت أربط خيوطًا رفيعة ببعضها.

خيوطًا يصل أولها لثلاثة عقود مضت.

***

في الصباح التالي بدأت تحرياتي عن (سلمان) وأمرت مُخبِريّ بالبحث عن أي شيء يربطه بمرسى مطروح ونفس الشيء لمندوبه المثير للشفقة (سليم). شغلني هذا الأمر لبرهة حتى جاءت الليلة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب وأنستني (سليم) و(سلمان) ومصنعه الخارق.

قُبَيل الفجر بسُوَيعاتٍ استيقظت على مُواء القطط المزعج. نهضت من فراشي مغتاظًا وذهبت لأغلق الباب، لكن قبل أن أفعل جاءني هاجس أن أطمئن على (عبد الله). وجدته نائمًا في سلام فدثرته جيدًا وأخذت الكأس التي كان تشاركه الفراش ووضعتها على المكتب. تأملتها للحظة وتحسست تفاصيلها قبل أن أتركها مكانها وأعود إلى غرفتي.

لكن ما إن ابتعدت عن غرفته حتى سمعت صوت شيء يقع على الأرض. عدت لغرفته متوقعًا أن أجد الكأس قد وقعت من مكانها أو شيء من هذا القبيل لكنه لم يكن ما وجدته على الأرض... بل (عبد الله) نفسه، الذي كان في وضع أصابني بالفزع. ليس لشيء إلا أن وضع السجود هذا يُذكّرني بمشهد حاولت نسيانه بكل الطرق مع أسبوعين كاملين من حياتي.

وأظن أنني لست في حاجة أن أقول إنه كان يسجد عكس اتجاه القبلة.

انكفأت عليه لأرقعه وقد بدا لي أن وضع رأسه وخدّه الأيسر على الأرض يضغط على

رقبته ليجعل من عملية التنفس شيئًا صعبًا. وضعته على الفراش ووقفت بجواره أراقب تنفُّسه. ظلَّ صوت نَفَسه يخرج عاليًا فمكثت بضع دقائق أخرى عاد خلالها التنفس لطبيعته. وضعت الغطاء عليه واستدرت خارجًا لكني تسمَّرت مكاني حين صدر منه صوت حشرجة كأنه لا يزال يعاني ضيقَ التنفُّس. ذهبت لأفحصه وما إن وضعت يدي على جبهته حتى سعل بقوة.

- (عبد الله)... حاسس بإيه يا حبيبي؟

سعل مرة أخرى لكنها خرجت خشنة كأن هناك ما يعوقها.

- (عبد الله)!! اصحي قولّي مالك.

لم يُجِبني وظلّ يعاني صعوبةً في التنفس. انطلقت خارجًا من غرفته لكني تسمَّرت أمام مشهد القطط الثلاث التي عادت لمكانها المعتاد أمام غرفتي. ما إن بدأت أخطو باتجاهها حتى بدأت في الفواء بعصبية. العجيب أنها لم تكن تنظر إليَّ بل إلى الغرفة نفسها وبالتحديد إلى فراشي.

سعل (عبد الله) مرةً أخرى ليذكّرني بما خرجت من أجله فأسرعت بالتقاط هاتفي وعدتُ إليه.

بحثت في محمولي عن رقم أي طبيب من معارفي لكني لم أجد من يمكنني الاتصال به في تلك الساعة. لحظتها اكتشفت أنني لم أهتمّ قطّ بالحفاظ على أصدقاء حقيقيين. فكرت في الاتصال بالإسعاف لكنها كانت خطوة مخيفة ولم أرِد أن أصيب نفسي وابني بالهلع.

ثم جاءت في ذهني فكرة. ولجت لتطبيق تواصل اجتماعي شهير وطفقت أمُرُّ على الأسماء سريعًا، إلى أن قرأت اسم طبيبة كنت قد نسيتها تمامًا ونسيت كل ما يربطني بها: (رقية).

لم أتصور أن تظهر (رقية) مرة أخرى في حياتي؛ خصوصًا أني لم أتذكر متى أصبحنا أصدقاء على شبكة التواصل تلك. لكن رغم كل شيء قمت بالاتصال بها عن طريق التطبيق دون لحظةِ تفكيرٍ وأنا شبه متأكد أنها ستسبُّني وتُنهي المكالمة.

رغم استيائها بتلك المكالمة المتأخرة فإنها سرعان ما تبدَّل حالها إلى الاستغراب الشديد حين عرفت هوية المتصل. لم يكن الموقف يسمح بمقدمات لذلك أرجأت تفسيراتي ومبرراتي لسنوات الجفاء ودخلت مباشرةً في الموضوع.

أنصتت بتركيزٍ حين أخبرتُها بما يحدث لابني وأعطتني بعض التعليمات والوصفات وطلبت

مني أن أطمئنها. لكن لو ازدادت حالة ابني سوءًا يجب عليّ الاتصال بالإسعاف ثم بها. فعلت ما وصّت به ووضعت بعض الأدوية المسحوقة في ماء مغلي وجعلت ابنى يستنشق أبخرتها بعد إعطائه دواءً للسعال.

لكن حالة (عبد الله) ظلت تسوء وبدأ الذعر يتملّكني فاتصلت بالإسعاف كما أوصتني (رقية). جاءت سيارة الإسعاف وفحصه الطبيب ثم ارتسمت على وجهه أعتى آيات الهمّ وكان هذا بداية رعبي الحقيقي. ألقى إليّ بنظرة لم أفهمها قبل أن يقول الجملة التي جعلت ساقيّ لا تقويان على حملي:

- لازم ننقله المستشفى بسرعة.

***

فجأةً اسوَدّت الدنيا أمام عيني ولم يعُد لثروتي ولا لسطوتي أي معنى حتى أصبحت أشعر كالطفل التائه. طفقت أراقب باب غرفة العمليات بعيون مرهقة وكلما فُتِح البابَ، انتفض قلبي بين ضلوعي ليسكن بعدها بصعوبة حين أرى ممرضًا أو طبيبًا ليست لهم علاقة بالعملية التي تُجرى بالداخل لابني الوحيد.

استمر الحال على هذا المنوال حتى الصباح وأنا على أريكة الانتظار. هممتُ بالنهوض لإحضار مشروب ساخن يساعدني على الصمود لكني رأيت (رقية) تخرج من غرفة العمليات. وقفت الأخيرة عند الباب وأحكمت البالطو الأبيض حول هيئتها التي لم تعُد رشيقة كما كنت أتذكّرها. نظرت حولها باحثةً عني قبل أن تظهر خلفها إحدى الممرضات وتشير إليّ فأسرعت إليها.

- طمنوني إيه الأخبار؟

- تعالَ ادخل.

قالتها والإعياء يطلُّ من وجهها الدائري المنير، الوجه الذي ظل محفورًا في ذاكرتي لأكثر من ثلاثين عامًا ثم أشارت لي كي أتبعها. تبعتها مذعنًا إلى غرفة تفصل صالة الانتظار عن غُرف العمليات لأجد مجموعة من الأطباء ينظرون إليّ في صمت.

- (عبد الله) ماله يا دكاترة؟

نظرت (رقية) لأحد زملائها، أربعيني شديد الشبه بالفنان "محمود المليجي". لم يكن يرتدي بالطو الأطباء الأبيض لكني شعرت أن له مكانة خاصة، فكررت عليه سؤالي ليجيب:

- سيادتك سمعت أو شفت حاجة إمبارح في أوضة ابنك؟

- لأ. ليه؟ ما تقولوا في إيه؟؟

تقدم إلى مائدة معدنية يرقد عليها كيسًا بلاستيكيًا طبيًا والتقطه قائلًا:

- الحاجة دي طلّعناها من بطن عبد الله.

***

توقف الزمن في تلك اللحظة.

لم أعد أسمع ولا أرى شيئًا إلا محتوى ذلك الكيس. حتى يد الطبيب شبيه "محمود المليجي" التي وضعها على كتفي لم أشعر بها إلا وهو يضغط عليه بها برفق. لم أسمع ما قاله ولم أستطع أن أحيد بنظري عن ذلك القرص المعدني غير المكتمل الذي يمسك به. حدقت ببلاهة في القطعة المتفحمة الغارقة في دماء ابني والتي تظهر واضحةً في الكيس الشفاف وخرجت مني الكلمات غير مفهومة:

- مش.. إزّاي؟ مش دي..؟ مش ممكن.

عادت لذهني تلك اللحظة الكابوسية التي مرّ عليها ثلاثون عامًا، دفعة واحدة. تجسّد أمامي حلق "هذا الذي لم أعُد أريد ذكر اسمه" المحترق وفكّه السفلي المنفصل عن العلوي وعيناه المجنونتان الجاحظتان. سمعت صراخه الممزوج بضحك هستيري وتذكّرت دموعه التي لم أفهم أكانت دموع ألم أم نشوة.

لكنها كانت هي، آثار أسنانه واضحة تمامًا عليها.

انتبهت إليهم حين سألني شبيه "محمود المليجي":

- يعني ما كانش فيه حد في البيت غيركوا؟

- قلتلك لأ.

تبادلوا نظرات الارتياب فحوّلت دفّة الموضوع إلى حالة ابني، فأجابت (رقية) أن حالته ليست مستقرة وجهازه الهضمي بالكامل ليس على ما يُرام. أنهت كلامها بأن (عبد الله) سيظل تحت المراقبة حتّى إشعارٍ آخر.

(2)

عدت للمستشفى في المساء بعد أن جهزت نفسي لتمضية ليلة طويلة وأتيت بكل ما قد أحتاجه. طيلة اليوم لم يكن في تفكيري غير تلك القطعة الحديدية اللعينة، ورغمًا عني عادت أدقُّ تفاصيل تلك الليلة لذاكرتي بكل قوة.

ثم تذكرت أصدقائي.

كم كنت أحتاجهم في تلك اللحظة. لقد تعمّدت إبقاء مسافة بيني وبينهم وتجاهلت محاولات (حسن) العديدة للِمّ الشمل. لم أحاول الاطمئنان عليه حتى بعد أن نما لعلمي حالته المادية الصعبة. أما (طه)... فما زلت حانقًا عليه.

يغيظني أنه دائمًا على حق. حتى بعد كل هذه السنين أثبت أنه على حق.

استقررتُ على أريكة الانتظار وأخرجت الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على "البشعة" لأتأمل في نقشة الوجه المقلوب غير المكتمل.

كيف ظهرتِ داخل ابني أيتها اللعينة؟

كنت أحفظ تلك الوجوه المقلوبة عن ظهر قلب وأعلم معناها، فقد عشت أعوامًا طويلة ليست معي صحبة إلا تلك القطع المعدنية. وجوه من كانوا على علم بأسرار الكلمات واستخدموها لتحقيق أمانيهم، تلك الأسرار التي كان يخبئها أولاد جِهام في قلب الصحراء، كما كان "هذا الذي لم أغذ أريد ذِكر اسمه" يدّعي. والمفترض أن وجهي كان سينضم إليهم حين يأتي دوري، لكنني لم أغد أذكر كيف... ولماذا.

نفضت الموضوع من ذهني سريعًا قبل أن أصل للسؤال الذي سيقضي على صحتي العقلية في يومٍ من الأيام... سؤال عن "الأغراض والنوايا". أغراض ونوايا مَنْ وهبني القوة والمعرفة، من أعطاني القدرة على ترويض الوحش وتطويعه ليميني، قبل أن يُنهي حياته دون أن أعرف هدفه من وراء كل هذا.

"ده أنا جايلك مخصوص"، هذا كل ما قاله.

تحسّست النقوش من خلال الكيس ومررت بأصابعي فوق الوجه غير المكتمل. أخذت نَفَسًا عميقًا قبل أن أنظر إلى الساعة المعلقة فوجدتُها الحادية عشرة.

ثم بدأ الوقت يمر بطيئًا.

الثانية عشرة... الواحدة... الثا... مهلًا...

إنها ما زالت 1:57... 1:58... 1:58...

هل يُبطئ عقرب الدقائق من سرعته؟

قمت من جلستي واقتربت من الساعة لأتفحّصها.

ما لهذه الساعة الحمقاء؟

نزعتها من مكانها وقلبتها لأخرج البطاريات وأضعها مكانها مرة أخرى كإجراء روتيني فذّ. بالطبع لم يغيّر هذا من الأمر شيئًا فنظرت إلى ساعة يدي كي أعرف الوقت الصحيح.

ما هذا؟

إنها ما زالت 1:59.

هززتُ يدي كي أحرك العقرب - كإجراءٍ فذٍّ آخر - لكن هذا لم يثمر أيضًا.

نظرت حولي في الردهة الطويلة بإضاءتها الهادئة الكئيبة علّي أجد من أشاركه ما يحدث. لكنني لم أجد أي مخلوق إلا... إلا هذا الذي يجلس في آخر الردهة ضعيفة الإنارة. بدا لي أنه نائم فقد وضع على رأسه قماشة بيضاء وأراحها على الحائط خلفه. تجاهلته ووضعت الساعة مكانها ثم عدت لأجلس وعيني لا تغادرها. هاجمني إحساس خانقٌ وشعرت بصعوبة في التنفس.

نحن لا نشعر بمرور الوقت علينا فهو ليس له بعدًا ماديًا ملموسًا. لذا فمن الصعب تخيل "عدم" وجوده، كأن نعمة الوجود نفسها قد سُلِبَت منّا.

نفضت هذا الشعور واستمررتُ في مراقبة الوقت حتى بدأت أشعر بشيء آخر.

هل هناك تيار هواء يأتي من مكان ما؟

نظرت خلفي لعلّي أري مصدر هذه الريح الخفيفة التي هبّت على أذني اليسرى لكني لم أرَ إلا حائطًا أصمًّا. عدتُ مجددًا للنظر إلى عقرب الدقائق الذي كاد أن يصيبني بالجنون.

لماذا لا يتحرك هذا اللعين؟

إن هذا لإحساس خانقٌ حقًا. كأنك غارقٌ في بحرٍ من الرمال المتحركة حيث الهواء ليس حاضرًا ولا غائبًا. تسمع صدى أنفاسك كما لو كان رأسك سجينَ وعاء مُصمَت، لا ترى إلا من خلال فتحة ضيقة تخفي أكثر مما تكشف.

ثم يأتي تيار الهواء هذا ليتحسس أذني اليسرى كأن هناك مَن ينفخ بجانبي ولا أراه.

هل كنت تُعِبًا إلي هذه الدرجة أم بدأت أفقد صوابي؟

انتفضتُ واقفًا ونظرت خلفي للحائط المصمت، ثم مسحت الصالة الطويلة التي أجلس بها بنظري. لاحظت أن الرجل النائم قد ترك مكانه وأن الصالة قد أصبحت خاوية تمامًا قبل أن أعود لأجلس مكاني.

استدرتُ كالملسوع مرةً أخرى لأنظر ورائي حين سمعت صوت النَّفَس للمرة الثانية. هناك من يتنفس خلف أذني كأنه صدى لصوت أنفاسي في هذا الوعاء الخانق.

تذكَّرتُ لحظةً مماثلة، ذكرى مر عليها عقود وطواها الزمن حتى اقتنعت أنها لم تحدث. ثم تأتي لحظة كهذه ليضيع مجهود السنين سُدى ويعود كل شيء لذاكرتي بكل قوة وقسوة. حاولت السيطرة على أعصابي وأغمضت عيني لعلِّي أتمكن من العثور على السَّكِينة حتى أصل لتفسير منطقي لما يحدث.

ويا ليتني لم أفعل.

لحظة أن أغمضت عيني حتى دارت بي الدنيا كأني فوق حصان روديو جامح وضربت بيدي في الهواء باحثًا عن ذراع الأريكة. ما إن أمسكته حتى جلست وصدري يصعد ويهبط باطِّراد.

خطوات أقدام خفيفة وسريعة كأن صاحبها يخشى أن يلمس الأرض أتت من بعيد متجهةً ناحيتي.

حاولت أن أفتح عيني بمقدار بسيط كي أرى من يقترب، لكن ما إن فعلت حتى أخذني الحصان الجامح على ظهره مرةً أخرى. أغمضت عيني بسرعة كي أسيطر على هذا الإحساس وفي تلك اللحظة طغى عليَّ شعور آخر: الخوف. فقد كان صوت الأقدام يقترب بسرعة رغم أن في ذلك الجزء من الثانية الذي فتحت فيه عيني رأيت الردهة خاوية تمامًا.

لكنه لم يكن صوت حذاء، بل أقدام حافية.

ثم توقفت خطوات الأقدام عندي.

- لو سمحت ممكن تنادي دكتور؟

لم يُجِبني بل ظل واقفًا أمامي لا يتحرك.

- ممكن تجيب حد من التمريض؟ أنا تعبان شوية.

لم يحتفظ بصمته تلك المرة ويا ليته فعل. فقد خرج منه صوت نَفَس محشرج كأن أحدهم

يجرُّ لوحًا خشبيًا ثقيلًا على أرضية خرسانية مُغطّاة بالرمال الخشنة.

حاولت النهوض لكنى فقدت التحكم في عضلاتي حتى أصبحت رِخْوةً تمامًا.

- مين اللي واقف أودّامي؟

ثم انتبهت لملحوظة مخيفة، مصدر الصوت. فلا الخطوات ولا صوت النَّفس المحشرج يأتيان من أمامي...

- إنت مستخبي ولّا إيه يا وحش؟

ناجيت ربي، يا رحيم...

لقد جاء هذا الصوت... من فوقي.

***

- ألو. (حسن)؟

- أيوة أنا. يااااه. أخيرًا كلمتني.

- (حسن)، الحقني.

***

جلست أمام ذلك الرجل مفرط البدانة وتأملت ملبسه المتواضع وذقنه النابتة. أنزل أصابعه التى كان يقرضها بنهم وابتسم لي، وهذا كان يكفينى كي أتأكد أنه صديقي الذي أمضي معي صباي وشبابي. لم يسألنى عن السنين التى مرت ولا على الجفاء والبُعد ولم يجعل من نفسه محورًا للنقاش، بل دخل مباشرةً في مشكلتي.

"إنى مخطئ في حقك يا (حسن)"، قلتها في سريرتي.

- واحدة واحدة. يعني كان واقف على السقف؟

- ولا أعرف. كل ما كنت أفتح عيني الدنيا تلف بيّا واضطر أقفلها تاني.

كانت إجابتي وأنا أنقل عيني من السقف للممر لغرفة الرعاية المُركّزة. مطّ (حسن) شفتيه الدقيقتين اللتين كادتا تختفيان داخل ثنايا وجهٍ صار منتفخًا كالكرة وتردد لحظة قبل أن يقول:

- زيّ اللي حصل زمان وقت بطولة الجمهورية؟

هززتُ رأسي بالإيجاب فالتفت إلى الكيس الشفاف الذي ترقد فيه البشعة المبتورة.

- والبتاعة دي، يعني عايز تفهمني إنها ظهرت في بطن ابنك من الهَوَا؟

- لو مش مصدقني اسأل (رقية).

- (رقية)؟؟ إنت وصلتلها؟

- ما لقيتش حد غيرها يسعفني في الظروف دي.

- والله البنت دي جدعة. مش عارف إنت ماتجوزتهاش ليه. كلنا كنّا عارفين إنك بتحبها. إنت عارف في مرة كنّا...

استمر في الثرثرة المبرحة لكني لم أكن أسمعه في الحقيقة، ولهذا سبب بسيط: منذ ليلة أمس لم يتوقف النَفَس الفوازي عن الهبوب في أذني. ويمكن أن أقول بكل ثقة غنه قد بدأ يرتفع ليحيلني إلى كتلةٍ من التوتر المتحرك. وما زاد الطين بِلّةً ظهور هذا الرجل الذي كان يمشي على السقف في صمت وكاد أن يصيبني بسكتة قلبية ليلة أمس.

هل ما سمعته كان حقيقيًا أم هلاوس؟ هل قال يا "وَخش" فعلًا أم خدعني الإرهاق وساعده في ذلك رؤيتي لتلك الغفلة المعدنية المشئومة؟ وما سوف يدفعني للجنون حقًّا هو أنه تبخر في الهواء حين ذهبت مني تلك الحالة الغريبة؛ وكذلك آثار قدميه الحافيتين المتسختين من السقف.

كنت على وشك البوح لـ (حسن) بكل هذا لكن منعني صوت (رقية) وهي تناديني. لوّح لها (حسن) في سعادة ثم زبّت على ساقي وقال:

- تعالَ نشوفها عايزة إيه. بعد كده عايزك تحكيلي أخبارك كلها.

***

وقفت أمام فراش (عبد الله) أغالب دموعي بينما وضع (حسن) يده على كتفي وهو يطلق عبارات من نوعية: "هيبقى كويس ما تقلقش" أو "حاجة بسيطة إن شاء الله" أو "كلها يوم ولّا اتنين ويرجع بيته بالسلامة". كنت أعلم أني سأدفع ثمن ما فعلته وجنيته إن سابقًا أو لاحقًا، لكنني لم أكن أتخيل أنها ستكون من خلال ابني.

- طمّني يا (رقية) والنبي. ابني هيبقى كويس؟

أخذت (رقية) نفسًا عميقًا وأمسكت بخصلة شعر ذهبية تائهة بها بعض الشعيرات البيضاء ووضعتها خلف أذنها قائلة:

- مانقدرش نعرف دلوقت. المشكلة كمان إن الجهاز الهضمي من أول الفم فيه التهابات وإصابات كتير بسبب دخول الحديدة دي. شكلها كانت سخنة و...

ثم توقفت عن الكلام لتُقطّب حاجبيها وعيناها عالقتان على وجه ابني الذي كان يرقد في سباتٍ تام. ما إن مدت يدها لتفتح فمه حتى تراجعت مذهولة.

- فيه إيه يا (رقية)؟

سأل (حسن) في لوعةٍ بينما لم أستطع أنا النطق.

- إيه ده؟؟ بسرعة نادوا الممرضين. ده مستحيل.

قالتها (رقية) والتفتت لتعطيني نظرة قضت على البقية الباقية من أعصابي.

***

- إيه اللي بيحصل بس؟؟ فهّمني.

سألني صديقي البدين وهو يجاهد للحاق بي في طريق عودتنا من قسم الأشعة. هززت رأسي غير مصدق ما يحدث ثم وضعت كفي على أذني، وقد عاد صوت النَّفَس اللعين أقوى مما كان ليصبح أعلى من صوت أنفاسي أنا.

- لسّه الصوت ده مضايقك؟ شكل الإرهاق عامل عمايلهُ فيك. أنا رأيي...

- مش مهم الصوت دلوقتي. ومش مهم رأيك!!

قلتها بعنف فأبطأ من مشيته وقال:

- عندك حق. خلّينا في (عبد الله).

توقفت والتفتُّ إليه لأجده يلهث خلفي...

- معلش يا (حسن). سامحنى. أنا في ظروف ما يعلم بيها إلا ربنا.

توقف ليلتقط أنفاسه ورد عليّ بنبرة صادقة:

- أنا مقدّر.

أمسكت كتفه السميكة قائلًا:

- هو أنا كنت بشع قوي وإحنا صغيرين؟ كنت سخيف ومتسلط زيّ دلوقتي كده؟

هرب بعينيه بعيدًا للحظة ثم عاد بهما ليحدق في وجهي بنظرة أخوية:

- ذكرياتي عنك مقسومة جزءين: قبل بطولة الجمهورية بتاعة الچودو وبعدها. قبلها كنت نِعم الصديق والأخ.

- وبعدها؟

هنا لاحظ القفاز الذي كنت أرتديه في يدي اليسرى والذي كان أقرب لجراب أنيق، لكن قبل أن يسألني عنه قطع حديثنا صوت (رقية):

- جبتوا الأشعة؟

التفتنا لنجدها قد خرجت من غرفة العناية المُركّزة لتستقبلنا. أعطيتها الملف فأخرجت الأشعة منه وتفحّصتها.

- غريبة جدًا. ده جنان.

- هي دي أشعة إيه؟ دي معدته. هو إنتو عملتوا أشعة غلط كمان؟؟ فيه حد يعمل أشعة على المعدة؟؟

سألتها وقد بدأت عصبيتي تنال مني.

- أيوة. دي أشعة على المعدة. كان ردها بثقة.

- تانى؟ إيه ده مش دي البتاعة اللي...

كانت تلك الجملة من (حسن) الذي اختفى صوته تدريجيًا وهو يشير للأشعة. شعرت بالدُوار وأنا أحدق في تلك الدائرة غير المكتملة التي ظهرت بشكل واضح في الأشعة. تراجعت للوراء بخطوات مترنحة ثم التفتُ لأنقضّ على متعلقاتي وأُخرج الكيس البلاستيكي.

سمعتها بوضوح حين فتحت الكيس... تلك الهمسة الغاضبة التي خرجت منه كالهواء المضغوط.

- لاااا.

صرخت بها بكل حرقة وعيني الجاحظة تنظر للكيس الفارغ.

لقد عادت البشعة إلى معدة ابني.

(3)

أجبرتني (رقية) على الذهاب للمنزل بعد أن أقنعتني أن وجودي ليس له طائل؛ خصوصًا مع تدهور حالتي العصبية. لم أمتثل لها إلا بعد أن رأيت بعيني فرد أمنٍ يجلس أمام باب غرفة (عبد الله) وشبيه " محمود المليجي" يعطي أوامره بتشديد المراقبة وهو يرمقني في شك.

طوال الطريق للمنزل كنت صامتًا أحاول أن أشغل تفكيري عن هذا الهواء اللعين الذي لا ينفك يهب خلف أذني.

- مكلّمتش (طه)؟

- لأ.

- ليه؟

- معرفش.

لاحظ (حسن) إجاباتي المقتضبة فلزم الصمت وأخذ يقرض أصابعه مفكرًا. لم أرِد أن أكون ناكرًا للجميل فسألته محاولًا أن أكون لطيفًا قدر استطاعتي:

- وإنت؟ عندك عيال إيه؟

- معنديش. الحقيقة ما اتجوزتش. بدوّر لسه.

قالها (حسن) وعلى وجهه ابتسامة مهزوزة حاول أن تبدو طبيعية؛ لذا حاولت إنقاذه من الإحراج:

- طول عمرك ليك مواصفات خاصة يا أبو علي.

- ولا مواصفات خاصة ولا نيلة. هو ده شكل حد يقبل بيه؟

لعنت نفسي وسَبَبتُ غبائي. الآن يجب أن أستمع إلي شكواه وأنا بي ما بي. لكنه لم يستمر. فقط التفت لينظر من نافذته إلى الشارع الذي أطويه طيًا. الحق يُقال أنني بدأت آسَفُ لحاله.

- إنت ما جاوبتنيش. حصلّي إيه بعد بطولة الجمهورية؟ اتغيرت كتير؟ قول ما يهمّكش، أنا متخيل.

صمت وأطرق للحظة كانت كافية لتعتصر قلبي يدٌ باردة. مر شريط ذكرياتي في رأسي

بأكمله ولم أجد به شيئًا جيدًا فعلته لـ (حسن). بحثت عن شيءٍ أقوله لكن ما وجدته كان الندم فقط.

والندم لا لسان له، فقط صورة رمادية لك وأنت تنظر وراءك.

لم تمرَّ دقيقة حتى التفت إليَّ قائلًا:

- خلينا في ابنك. فكرك الدكاترة وأمن المستشفى هيوصلوا لحاجة؟ دي عايزة ساحر مش دكتور.

- كلامك صح.

قلتها بذهن شارد فتردد (حسن) قبل أن يسألني بغير فهم:

- كلامي صح؟ اللي هو إيه؟

وصلنا لمنزلي في العبور ودخلت بالسيارة. التفتُّ لرفيقي فرأيته فاغرًا فاهُ على مصراعيه.

- بِسْم الله ما شاء الله. ربنا يزيد.

- اتفضل يا أبو علي.

نزل صديقي البدين من السيارة وقبل أن يغلق بابها لمحته ينظر إلى بقعةٍ سوداء في الحديقة ويسألني:

- إنت كنت بتشوي في الجنينة؟ دي آثار راكية نار مش كده؟

حاولت أن أتفادى الرد فقلت من بين أسناني مُرحِّبًا للمرة الثانية:

- نورت يا أبو علي.

صرف عينيه لنقطة أبعد وقال:

- وهناك برضه، دول كتير. إنت كنت بتحرق حاجة ولَّا إيه؟

أغلقت باب السيارة بعنف فجفل واستدار لي لكن قبل أن ينطق بالسؤال عما حل بي رفع عينيه إلى نقطة عالية خلفي وشهق:

- وإيه ده كمان؟ تاني؟؟؟؟

استدرت لأنظر لما يشير إليه ليقع قلبي في قدمي.

لقد كان فروًا رماديًا يتدلى من النافذة.

***

هنا لا بُدّ من الاعتراف والتوضيح.

لقد كنت محتفظًا بالفرو في مكانٍ آمن طيلة تلك الأعوام، فقد كان أهم جزء في الطقوس. لكن بكل تأكيد لم أكن أنا من وضعه على النافذة. ولماذا أفضح نفسي على الملأ؟

حتى هذه اللحظة لم أكن قد تأكدت من الفرضيّة التي توصلت أنت إليها منذ برهة. لكن حين رأيت الفرو على إفريز النافذة بدأت أنظر لها بعين الاعتبار. هناك مَن يعبث في الخفاء.

وبالتالي قررت مشاركة (حسن) بعض المواقف التي حدثت في الفترة الأخيرة، دون أن أنطق بالاسم الذي تمنيت لو مُحِيَ من مفردات اللغة العربية للأبد. لكنني بالطبع لم أذكر له أنني كنت محتفظًا بفرو الكلب الخاص بـ "ذلك الذي لم أعد أريد ذكر اسمه" طيلة تلك الأعوام.

فبدأ يحلل لي الموضوع:

- طب الكاس وممكن تكون بذلته بالغلط، معلش استحملني للآخر. والقطط ممكن يبقي فيه فار ولّا حاجة في أوضة (عبد الله) أو أوضتك. والحديدة ممكن يكون بلعها. إنما الفرو ده إيه تفسيره؟ إيه اللي جابه عندك وحطه على الشباك؟ ده هو بالظبط.

أنهى (حسن) كلامه وهو يشير للفرو الملقى على فراش (عبد الله). تفاديت نظراته المتشككة فالتفت إلى الفرو ليتأمل وجه الكلب المتحلل، ثم أضاف باشمئزاز:

- متأكد إن مافيش حد هنا؟

تجاهلت سؤاله لإجابتي عليه خمس مرات قبل ذلك والتفتُّ له قائلًا:

- يبلعها بأنهي طريقة يا (حسن)؟ (رقية) بتقول إنها كان لازم تتحشر في بُقّه غلشان يبلعها وساعتها حالته كانت هتبقى أسوأ بكتير. حتى لو ده حصل، وبلعها بأي طريقة، أنا مسكتها في إيدي دي. رجعت تاني في بطنه إزّاي؟

هز رأسه وكتفه وكل ما يمكن أن يهتز في جسده ثم نظر إليّ.

كلانا كان يفكر في نفس الشيء، نفس الاسم، لكننا لم ننطق به.

***

جاءتني مكالمة من (سليم محمود) يطمئنُّ فيها عليّ. ثم ذكّرني في نهاية المكالمة أنني لم أكمل الزيارة السابقة وأنهم ينتظرون "تشريفي" لهم لأرى خط الإنتاج. اعتذرت وأرجأتها

للأسبوع التالي وتقبّل هو عذري متمنيًا لابني الشفاء.

كيف عرف؟

إنه حتمًا يراقبني.

***

- مالك؟ سألني (حسن).

لم أخبره بشيء فما كان ينضج في ذهني هو سيناريو صعب التصديق. ثم قررت أن نأخذ قسطًا من الراحة قبل أن نعود للمستشفى. انتهزت فرصة دخوله المرحاض كي ألتقط الفرو وأذهب لغرفتي. أخرجت الكيس الجلدي القديم وأغلقت على نفسي باب الغرفة؛ فما نويت أن أفعله لم يكن شيئًا أفتخر به.

خرج (حسن) من المرحاض وطرق باب غرفتي ثم انتظر.

- هو إنت بتكلم مين جوّه؟

سألني من وراء الباب. عضضتُ على شفتي السفلى دون أن أرد فما كنت أفعله لا يجب أن يقطعه شيء.

- هو فيه حد معاك؟

استمررت في تجاهله وتجاهل محاولاته في فتح الباب حتى استسلم وتركني. تأملت الأقراص المعدنية الملقاة أمامي على الفراش، وحدّقت في الوجوه والطلاسم المنقوشة عليها دون أدنى فكرة عمّا يجب أن أفعله.

لسببٍ ما لم أغد أذكر أي شيء، كأن الخطوات والطقوس التي علمني إياها "ذلك الذي لم أكن أريد ذكر اسمه" قد مُحيت من رأسي وسقطت في هوّة سحيقة.

كيف حدث ذلك؟

ارتعدت أوصالي من الفكرة.

هل أصبحت أعزلَ مرةً أخرى؟

هل فقدت مصدر قوتي؟

في نهاية الأمر استسلمت والتقطت الأقراص ووضعتها في الكيس الجلدي مرة أخرى، ثم خبأته في مكانه أسفل الفراش.

***

بدا لي أن (حسن) قد بدأ يسترجع ذاته مع مرور الوقت وكأن مجرد وجوده بجواري يساعده على ذلك. ولا أخفي عليك لقد رحبت بوجوده معي أنا أيضًا. شعرت بجزء مني يلتئم، بتصالُحٍ مريحٍ مع خوفي وضعفي.

جلس على الأريكة في غرفتي يناقش معي سلوك (عبد الله) الذي تدهور الأيام السابقة، وذكّرني بأنفسنا في نفس سِنّه وكيف كنا قنابل متحركة. دقائق دافئة قضيناها في رحلة ذكريات سريعة نهض بعدها (حسن) ضاحكًا ووقف على سجّادة الصلاة التي كانت مفروشة بجوار الفراش ورفع يديه مكبرًا!

- استنّى!!

صحتُ به فالتفت إليّ متسائلًا. نهضت من فراشي وذهبت إليه لأزيحه من فوق سجادة الصلاة فأطاعني على مضض، قبل أن يتحول استغرابه إلى تشكّك حين عدّلت اتجاه السجادة مائة وثمانين درجة.

- هو إنت كنت بتصلّي عكس القبلة؟

ذهب مني المرح دفعة واحدة وتجاهلت سؤاله لأعود لفراشي مرةً أخرى. ضبطت هاتفي المحمول كي يوقظني بعد خمس ساعات واستلقيت مستعدًا لقسط من النوم العميق. لم أرَ ما كان (حسن) يفعله لكنه حتمًا كان يضرب كفًّا بكفٍّ.

يا الهي! منذ متى وأنا أصلي عكس القبلة؟

***

أين ذهب صوت النَّفَس؟

ليس لأني كنت أهتم بمعرفة هذا بقدر ما كان لغيابه دويًّا عجيبًا. تذكرت صدى الصوت الذي كنت أسمعه وأنا صغير وقت تفاقم مشكلة "هذا الذي لم أعد أريد ذكر اسمه" لكني لم أستطع تذكر متى توقف. لكنه كان مختلفًا عما كان يحدث لي الآن، على الأقل هذا ما أذكره. عامةً سوف يجعل اختفاؤه من ذهابي في النوم شيئًا سهلًا، هذا لو لم تأتِ القطط اللعينة لتعيدني لحالة التوتر السابقة.

وكأنها سمعت أفكاري جاءت كرات الفرو الثلاث لتصطفَّ أمام باب غرفتي وتراقبني. ثم جاء إليّ خاطر مُؤرّق: هل هناك شيء ما في الغرفة يُخيفها؟

- امشووووواا!!!! هششششش!!

صرخت في القطط لتقفز في مكانها من الذعر وتنطلق كثلاث دراجات نارية.

كان هذا ليسعدني لولا شيء بسيط.

طار شيء في هواء الغرفة وكاد يصطدم برأسي.

فزعت وتدحرجت خارج الفراش كأن ملابسي قد أمسكت بها النيران والتفتُّ لأحدِّقَ في الفراغ الذي يعلو الفراش.

لا شيء.

انتفضت كالملسوع وأنا ألوِّح بيدي كأني أطارد النحل من حول رأسي بعد أن عاد صوت النفس مرة أخرى. لكنه كان أعلى من السابق و... مختلفًا. أصبح الهمس فيه واضحًا.

نظرت مرةً أخرى للفراغ فوق فراشي. أنا لم أتخيل، لقد طار شيئًا فوق رأسي. وصوت النفس الذي كاد أن سيصيبني بالجنون، لقد أصبح أجشًا خشنًا كأن صاحبه يعاني ضيقَ تنفس أو... أن به إصابةً ما.

يا إلهي! أرجوك لا تجعل ما أفكِّر به حقيقة.

- بتعمل إيه؟ إنت اللي صرخت كده؟

جفلت حين سمعت هذا النداء والتفتُّ لأجد (حسن) في منامتي الضيقة عليه يحدق بي في تعجب. نفس مشهده وهو صغير، لكن بصورة كاريكاتيرية أكثر.

نهضت من مكاني وذهبت إليه قائلًا:

- القطط أصلهم... وكمان فيه حاجة طارت... النَّفَس رجع تاني.

- إنت كنت بتحلم؟

- بَحلَم إيه بس؟؟؟

صحت فيه وأغلقت عيني ثم أخذت شهيقًا عميقًا وشرحت له ما حدث للتوِّ وكيف أنه ما كان يحدث لي في مرسى مطروح. أنهيت روايتي ونحن نحتسي مشروبًا دافئًا في المطبخ بالطابق الأرضي بينما انتظر (حسن) حتى أنهيت كلامي ليقول:

- يعني زمان كنت بتسمع صوت حد بيتنفس ورا ودنك ولما كنت بتزعِّق أو تتوتر بيكرر نفس كلامك؟ وده بيحصل دلوقتي؟

هززت رأسي فأطرق مفكرًا قبل أن يحسم تردده ويقول:

- طيب... ممكن تقولّي "هو" كان عايز منا إيه أنا و(طه)؟ كان عايز يأذيني ليه؟ وليه استمر في الصدام مع (طه) لغاية ما نجح إنه يخلّيه يمشي ويسيبنا؟

- (حسن)!! إحنا في إيه ولّا في إيه؟؟؟

هز رأسه متفهمًا ثم قال بمرح وهو ينفخ جسده بالهواء كي يبدو أضخم حتى تخيلت أنه سوف يرتفع كالمنطاد:

- طيب أنا عندي فكرة جهنمية: هنام معاك في الأوضة. يمكن القطط يخافوا مني.

- وحشتني والله يا (حسن).

***

أمضينا بعض الوقت نتسامر في غرفتي حتى بدأ النوم يغلبنا. تمنيت لـ (حسن) نومًا هانئًا وفردت جسدي على الفراش بينما استلقى هو على الأريكة.

ما إن فعلت حتى بدأ صوت النَّفَس يعلو مرةً أخرى كأنه يتعمّد الظهور حين يصبح محيطي هادئًا. أغمضت عيني بقوة واستعذت بالله من الشيطان الرجيم و...

- بِسْم الله الرحمن الرحيم. إيه ده؟

همس (حسن). فتحت عيني لأجده ينظر لباب الغرفة.

لقد عادت القطط اللعينة.

أردف بذات النبرة الهامسة:

- دول باصّين عليك إنت.

- ما أنا عارف. بس المرة دي في حاجة مختلفة.

هنا اختلفت القطط.

واحدة منها أخذت تراقبني في قلقٍ والآخر ظلت عيناه تتنقلان بيني وبين الردهة إلى يمينه. أما الثالث فكان يموء بعصبية ويهزُّ ذيله في غضب وهو ينظر للردهة بكل تركيز دون أن يطرف له جفن. كان هناك شيء ما في الردهة معها.

ابتلع (حسن) ريقه وقال:

- هو القط بتاعك بيبص على إيه؟ مش بقولّك في حَدّ هنا.

همس (حسن) فأزحت الغطاء من فوقي وذهبت إليها. في اللحظة التي وصلت فيها لباب الغرفة صرخت القطط الثلاث وقفزت مكانها كأن ثعبانًا انقضّ عليها ثم انطلقت هاربة. هرب الدم من وجهي وتخشّب صديقي في نومته ونحن نحدق في الردهة التي أضاف لها نور الصالة البعيد طابعًا كابوسيًا.

هناك صوت يأتي من الخارج.

أنين خافت.

هذا حيوانٍ يئنّ.

- سامع؟

لم يُجبني (حسن) ولم ألمه.

أتى بعدها صوت كأن هناك شيئًا يزحف على أرضية الردهة الخشبية.

لا أدري من أين أتيت بالشجاعة كي أذهب على أطراف أصابعي وأغلق الباب ليتوقف الصوت. ثوانٍ طويلة مرت والوضع كما هو حتى سمعت شيئًا آخر.

- حسن، سامع؟

زمجرة غاضبة خافتة كانت تقترب بسرعة. لم يُجبني (حسن) هذه المرة أيضًا. لا بُدّ أنه استرجع موقفًا كابوسيًا مشابهًا. انتصب شعر رأسه الأسود الناعم بغتةً وأمسك بذراعي على حين غرة.

- إيه اللي واقف بزّه الأوضة؟

قالها والخوف يطلّ من عينيه فألصقت أذني بباب الغرفة لكن صوت الزمجرة كان قد توقف.

أشار (حسن) إليّ كي أنظر إلى الباب نفسه، الذي كان يتحرك. هناك من كان يفتحه برفق. كانت اللحظة التي دفعت فيها باب الغرفة لأغلقه بكل عنف هي اللحظة التي رأيت فيها طرف الفرو الرمادي يحاول الدخول.

رغم أنني لم أخبره بما رأيت لكن ذعري انتقل إلى (حسن) بكل قوته؛ خصوصًا وأن الباب قد بدأ يدفعني للوراء بقوة غير آدمية. ثم توقف للحظات فأشرت إلى الفراش وأسرعت إليه على أطراف أصابعي بأقل صوت ممكن. راق هذا التصرف لـ (حسن) فلحق بي وانسلّ تحت

الغطاء الخفيف بجواري دون أن يترك حتى فتحة للتنفس.

ثم فُتِح الباب على مصراعيه لينتفض من صوت ارتطامه بالحائط.

شعرت بعدها بعينين تتفحّصانِنا، ثم تقدم صاحبهما حتى أصبح داخل الغرفة وهمس بنغمة ساخرة بكلمة لم أحددها بدقة بسبب بُحّة صوته.

شعرت بالفراش يهتز بسبب (حسن) الذي كانت كل أوصاله ترتعد. ببطء، وبحركة حاولت أن تكون طبيعية لشخص نائم، أمسكت يده وضغطت عليها لأطمئنه.

وقف الزائر الغامض بجوار الفراش. صوت أنفاسه كان عاليًا حقًّا.

حاولت التماسك لكني سمعت ما جعل خوف (حسن) ينتقل كاملًا إليّ: "يا شواااال"، سمعته بدقة هذه المرة، هذا النداء الساخر، رغم الحشرجة.

انفجر (حسن) في بكاءٍ صامتٍ وشعرت أن البناية كلها تهتزُّ مع ارتعاشاته. جال بخاطري أن أنتفض صائحًا لأفاجئ من كان يقف بجانب الفراش، لكن يبدو أنني كنت أرتعد أنا الآخر. ثم شعرت أنه جلس على ركبتيه بجوار الفراش يحدق في (حسن) لكني كنت لا أراه من موقعي بسبب حجم الأخير الذي كان يسد مجال الرؤية. أغلقت عيني بسرعة عندما وقف بغتةً ثم شعرت بشيء يزحف فوق الوسادة، شيء له حفيف معدني خافت.

telegram: @alanbyawardmsr

هنا استنتجت شيئًا مرعبًا، إنها السلسلة، وهي تزحف باتجاه (حسن).

انتفض الأخير مذعورًا بعد أن التفّت حول رقبته.

أنا لا أحب الخوف.

لا أحب هذا الشعور المقيت الذي كنت قد نسيته منذ أن جاء "هذا الذي لا أريد ذكر اسمه" إلى حياتي الرتيبة ويُحيل كل مشاعري إلى غضب عارم. أكره ذلك الشعور الذي يسلبُ منك إرادتك وسيطرتك على تفكيرك. لذا ففي اللحظة التي شعرت بـ (حسن) يقع بجسده الهائل من فوق الفراش وهو يعاني ليحرر نفسه من السلسلة، اتخذت قراري وأزحت الغطاء من فوقي صارخًا بأعلى صوتي.

توقعت، بل كنت موقنًا، أنني سوف أرى شيئًا مخيفًا.

كنت أتمنى أن أرى "هذا الذي لا أريد ذكر اسمه"، حتى لو كان في هيئة هيكل عظمي متآكل وفي يده سلسلة تنتهي حول رقبة كلب "الشير بروس" ساكن الجحيم ذي الرؤوس الثلاثة. ولو كان هذا ما حدث لارتحت؛ لأنه كما قلت آنفًا فإن بدء زوال الخوف هي لحظة

الحقيقة، لحظة الاستيعاب.

اللحظة التي أفهم فيها ما الذي كان يحدث في حياتي.

لكن ما رأيت كان أقوى تأثيرًا مائة مرة.

فلم أرَ أحدًا...

علي الإطلاق.

ما رأيته هو السلسلة الغليظة التي التفّت حول رقبة (حسن) حتى كادت تسحقها وامتدت خارج الغرفة، كأنها ثعبانًا جهنميًا هائلًا يخرج من إحدى حُفَر الجحيم المظلمة.

كان أول شيء فعلته بعد رؤيتي الغرفة الخاوية هو الإمساك بـ (حسن) كي لا يسحبه مَنْ كان عند الطرف الآخر من السلسلة، ومساعدته في تحريره منها قبل أن تخنقه. أدخلت يدي بين رقبته وبين حلقاتها وحاولت انتزاعها لكنه أخذ يركل بساقيه وجحظت عيناه ألمًا، فتركتها وذهبت إلى الباب لأمسك بها هناك ثم بدأت أسحبها إلى الداخل.

لكن النتيجة ظلت واحدة. أيًا كان من يمسك بطرف السلسلة الآخر فقوته جَهنَّمِيَّة. تناهى إلى سمعي صوت حشرجة (حسن) وشعرت بمقاومته تخور وجسده يستسلم لمن يسحبه للظلام بالخارج كأنه خِرقة بالية. خشيت أن يسحبني من يمسك بالسلسلة معه إلى ظلمة الرَّدهَة التي لم تكن أبدًا بهذا السواد فانتفضت صارخًا:

- سيبه!! سيبه بقولّك!!! أنا مش هتخلّى عنه المرة دي. لو هتاخده هتاخدني معاه!!

ما إن صرخت بهذه الجملة حتى تراخت السلسلة من حول رقبة (حسن) وسمعته يسعل. التفتُ إليه لأجده يزحف على مُؤخَرته مبتعدًا عن الباب حتى التصق بالفراش، فتركت السلسلة وهُرِعت إليه. ما إن فعلت حتى تقهقرت السلسلة كلسان ثعبان إلى ظلمة الردهة التي عاد النور إليها وسكن كل شيء بعدها.

أسرعت إلى الباب وأغلقته ثم أسندت ظهري عليه لألتقط أنفاسي. تناهى إلى مسامعي أصوات في الهيلًا كأن هناك مَنْ كان يركض في أنحائها وأبواب تُفتَح وتُغلَق بجنون.

اتصل بـ (طه).

هكذا همس (حسن) بصوتٍ متحشرجٍ ووجهٍ أحمر قانٍ قبل أن يُغشَى عليه.

(4)

لقد راهنت على شهامة (طه) وكسبت.

لم يُكذِّب الأخير خبرًا وأتى على الفور بعد مهاتفتي إيّاه. راقبت من موقعي أعلى السلم الرجل الضخم الأصلع أشيَب الفودَين، وابتسمت حين رأيت وجهه الدائري البشوش لحظة دخوله من باب الفيلا. لكن هذه البشاشة لم تدم طويلًا فبمجرد دخوله الصالة حتى تسمَّر مكانه واختفت الابتسامة من وجهه.

- إيه ده؟ إيه اللي جاب الفرو ده هنا؟

قالها ثم التفت إليّ. نهضت من جلستي على درجات السلم وبدأت في النزول.

- إنت كان عندك حق يا (طه).

- إيه اللي بيحصل؟؟

سألني للمرة الثانية لكن جاءه الرد من (حسن) الذي كان لا يزال تحت تأثير الصدمة. بنبرة منخفضة نطق بالاسم الذي تفاديت ذكره طيلة ما يزيد على الثلاثين عامًا:

- (مراد) يا (طه).

- بتقول مين؟؟؟ ماله سي زفت؟

- (مراد) رجع.

***

في ردهة المستشفى وقفنا خلف زجاج غرفة الرعاية المُركَّزة صامتين نتأمل (عبد الله) الغارق في شباتٍ عميق. لمحت (طه) ينظر للقفاز الذي لا يفارق يدي اليسرى لكنه لمْ يعلق بينما نقل (حسن) بصره بيننا في توجُس. وقد كان على حق في توتره هذا، فآخر فراق بيني وبين (طه) لم يكن سلسًا على الإطلاق.

أما أنا فقد كنت أصارع شياطيني وقد صرت أتخيل أشياء ليس لها وجود، بعد أن عاد النَّفَس الذي كان يهبُّ خلف أذني ليأخذ شكل همس غاضب غير مفهوم.

- أهوه على كده من إمبارح. بيقول فيه هوا بيحس بيه ورا ودنه. معلش استحمله يا (طه).

قالها (حسن) فكرر (طه) سؤاله الذي لم أسمعه:

- بقولّك مكلمتنيش ليه على طول؟

أجبرت نفسي على الابتسام وقلت:

- كنت خايف إنك تقعد تلومني كعادتك وتحمّلني مسئولية كل حاجة يا (طه).

- يا بني إحنا كنا بناكل من طبق واحد. وبعدين هو أنا يعني ببقى مبسوط لما نتخانق؟ فيه حاجات إنت الفلام الوحيد فيها وفي حاجات لا. المشكلة مش في كده. أنت اللي خلقت الوحش وإنت الوحيد اللي ممكن تصرفه. لازم تعترف بالخطأ الأول علشان تعرف تعالجه.

- خطأ إيه تاني؟ تقدر تقولّي أنا غلطان في إيه في اللي حكيته ده؟

- أنا مش بتكلم على (عبد الله)، أنا متأكد إنك حاولت بكل طاقتك إنك متكررش غلطات والدك، أنا بتكلّم على اللي حصل زمان. إنت اللي دخّلت الشيطان ده حياتك، إنت اللي سمعت كلامه، وإنت اللي مشيت وراه لغاية ما حوّلك لبني آدم...

- (طه)!! أنا ابني بيضيع منّي والدكاترة مش هيقدروا يفتحوا بطنه تاني. جسمه مش هيستحمل عملية تانية ولا هيستحمل البتاعة دي تفضل جوّاه. والله أعلم لو طلّعناها من بطنه هترجع تاني ولّا لا. مش وقت مواعظ.

أطلق زفيرًا حارقًا قبل أن يقول:

- طيب الدكاترة فين دلوقت؟

- شكلهم ابتدوا ييأسوا وأنا شاكك في تصرفاتهم بصراحة.

- شاكك ليه؟

- تصرفاتهم مش طبيعية كده وفي واحد شبه "محمود المليجي" شكله مش دكتور أساسًا بيتدخل في الموضوع وبيسأل أسئلة غريبة.

مطّ (طه) شفتيه وفكّر للحظة قبل أن يقول:

- و(رقية) فين؟

- (رقية) وعدتني أنها هتاخد رأي دكاترة من جامعة في أمريكا وحطوا ابني تحت المراقبة أربعة وعشرين ساعة.

اعتدل (طه) ليواجهني ويقول:

- عمومًا اللي بتقوله ده مستحيل. حتى لو هي بتقول إن الحديدة دي رجعت تاني مش ممكن (مراد) يطلع من قبره. إلا بقى لو مكنش مات من أساسه.

هنا قررت البوح بشكوكي وغمغمت:

- أو لو فيه حد تاني بيحاول يقنعنا بده.

قطّب (طه) حاجبيه وخفض صوته مثلما فعلت:

- حد تاني؟ مين؟

قطع حديثنا صوتُ جرسِ عالٍ صادرٍ من غرفة (عبد الله). فالتفتُ لأنظر عبر الزجاج في جزع وصحت:

- ابني!!! يا ممرضة!! يا دكاترة حد يلحق ابني!!

انفتح الباب المزدوج المؤدي إلي الردهة التي نقف بها وارتسمت على وجه (حسن) أعتى آيات الهلع، بينما قطّب (طه) حاجبيه بقوة ونحن نراقب طاقم التمريض الذي اقتحم المكان ودلفوا إلى غرفة (عبد الله). لم أسمح للباب أن ينغلق خلفهم ودفعته بيدي كي أدخل وراءهم، رافضًا الانصياع لتنبيهاتهم أن أبقي بالخارج. وقف صديقاي على أعتاب الغرفة بينما أمسك بي فرد الأمن الأعرج كي يمنعني من الاقتراب من فراش ابني دون التعقيم الكافي.

راقبت الطاقم وهم يقومون بما في وسعهم كي ينعشوا ابني الذي توقف قلبه وسط صراخي وبكاء (حسن).

فجأة توقف المسعفون عن عملهم وتراجعوا. توقفت أنا أيضًا عن محاولتي الوصول إلى (عبد الله) حين اعتدل جالسًا لينظر إليّ وعلى وجهه تعبير بالذعر جعل قلبي يسقط من بين ضلوعي. ثم حوّل بصره عني وتجمد تعبير وجهه ليصبح خالٍ من أي انفعالات.

لكنه كان لحظتها ينظر إلى شخص بعينه، إلى (حسن).

انحنيت لأتفادى شيئًا كاد أن يرتطم بوجهي في نفس اللحظة التي جحظت فيها عينا (عبد الله) في تعبيرٍ مجنون، وبعد أن شقت ابتسامة ساخرة وجهه قال ما جعلنا نتجمّد في مكاننا:

- إزيك يا شوال؟

***

كان هذا كافيًا لتأكد من النظرية المخيفة: كان (مراد) مرعبًا بما يكفي وهو حي يُرزق فما بالك بعد أن عاد من الموت. ارتميت على أريكة الانتظار وأنا على شفا الإغماء من الإرهاق

والتوتر بينما ظل أصدقائي الثلاثة يتناقشون في آخر الردهة. لم أستطع إبقاء عيني مفتوحةً فأغلقتها لأنفرد بهذا النَّفَس الذي كاد يدفعني للجنون.

دق هاتفي ففتحت عيني بصعوبة لأنظر إليه. قرأت اسم "الحاج سلمان" مالك مصنع الملابس الرياضية. شيءٌ ما جعلني أجيبه هاتفًا بكل العصبية التي سيطرت عليَّ:

- مش دلوقتي يا حاج (سلمان)، بعدين هفضالكم. أنا عارف إنتو بتعملوا إيه ولو اكتشفت إن ليكوا دخل في اللي بيحصل لابني هنسفكم!!

- لازم تسمعني يا بُنَي. أنا مش عارف بالظبط إيه اللي بيحصل بس...

أنهيت المكالمة وأغلقت عيني مجددًا لعلِّي أستطيع السيطرة على انفعالاتي.

ليتني استمعت له.

***

في طريقنا للبيت نظر إليَّ (طه) في مرآة سيارته وسألني:

- يعني عايز تقولي إن (سليم) و(سلمان) دول وسواقهم الأعرج هم نفسهم (مروان) و(عبد العظيم) و(رزق)؟

- أيوة. هم اللي بدلوا الكاس بتاع (عبد الله) وعرفوا إني محتفظ بالفرو في مكتبي؛ لأنه في نفس مكان الكاس بتاعي، وحطوه على الشباك. عايزين يجننوني.

(طه) مذهولًا:

- استنَّى استنَّى... يعني إنت اللي كنت محتفظ بالفرو طول السنين دي؟ ما هو ده الجنان بعينه.

هنا صحت فيه:

- أيوة كنت محتفظ بالفرو والعملات اللي عليها وشُوش كمان!! ده مش موضوعنا دلوقتي. (طه)، ولاد الكلب دول هُمَّ اللي عملوا كده في ابني، هم اللي خلوه يبلع البشعة.

نظر (طه) إلى (حسن) غير مصدق لكن الأخير أومأ له كي يرجئ الحديث في تلك النقطة، فالتفت (طه) إليَّ وتمالك أعصابه قائلًا:

- ماشي... طيب... يعني عايز تقولي إنهم مستنيين كل السنين دي علشان ينتقموا منك؟ ولما ينتقموا يأذوك في ابنك؟ مش صعبة دي شوية؟ وإشمعنى بالطريقة الغريبة دي؟

- علشان ده تدبيره هو، تدبير (مراد). وصدق اللي عايز تصدقه يا (طه). هو قالّي إني هدفع التمن. استنّى لما وصلت لقمة مجدي علشان ياخده مني.

- مش قصدي أكذبك، بس الموضوع... ده (مراد) مات أوصادنا وشبع موت. ودلوقتي بتقول إنه رجع؟ إزاي؟

تأملت الطريق للحظة قبل أن أقول:

- لأنه مامتش.

أبطأ (طه) من سرعة السيارة لا إراديًا ورمى (حسن) بنظرة خاطفة قبل أن يسألني:

- بمعنى؟

- بمعنى إني كنت حاسس بيه طول حياتي يا (طه)، في زاوية رؤيتي، في أحلامي، في تصرفاتي... في كل حتة.

لم أعترف لأحد بهذا ربما لأنني تأقلمت على هذا الشعور الغريب، كأنني ألِفت وجود ذلك الشاب المخبول ذي الشخصية الكاسحة الذي خطط ليحترق بالبشعة بمنتهى الدقة. لماذا فعلها؟ حتى أنا، شريكه في طقوسه المحرَّمة، لم يُطلعني على هدفه الحقيقي.

- واللي حصل ساعة البشعة؟

- إنت فاكر آخر حاجة قالهالي إيه ساعتها يا (طه)؟ قالّي: "هنشوف مين فينا اللي هيكسب في الآخر". تقدر تقولّي دي معناها إيه؟

هنا تجرَّأ (حسن) ليسأل في حيرة وقلق:

- يعني مين اللي مات؟ ولّا هو مات وصِحِي تاني؟

لا إراديًا تحسست أصابعي من فوق القفاز قبل أن أجيب:

- مش عارف يا (حسن) والله مَغرَف، بس ده اللي أنا متأكد منه. (مراد) لسّه موجود.

تبادلا نظرة أخرى قبل أن يقول (طه) بجدية:

- عايز تسمع رأيي بجد ولّا هتزعل تاني؟

- أومّال أنا كلمتك ليه؟ إنتو الاتنين الوحيدين اللي بثِق فيهم.

كان ردّي عليه دون أن أحول عيني عن الطريق:

- يبقى لازم تقولنا الأول كل حاجة. لازم نعرف حقيقة الاتفاق اللي عملته مع الزفت اللي مابتسمّاش ده وقضيت خمس ليالي بتعمل معاه إيه في البلكونة. لازم نعرف جربت ليه على شقتك أول ما قدرت.

لم أحوّل عيني عن الطريق ولم أجبه فضحك بسخرية غاضبة:

- برضه مش عايز تقول؟ رغم السنين دي كلها ورغم اللي إنت فيه دلوقتي؟ إحنا كبرنا يا بني ومش هنحكم عليك. لازم تقولنا لو عايزنا نساعدك. ولّا إيه يا (حسن)؟ ساكت ليه؟

سلّك (حسن) حلقه وقال بنبرة خافتة:

- أنا مش مصدق اللي بيحصل. كنت حمدت ربنا إني ابتديت أنسى الأيام السودة اللي عشناها. بس بعد اللي شفته وسمعته النهارده من (عبد الله) اتأكدت إن الحكاية ما خلصتش.

قاطعه (طه) قائلًا:

- أنا مش بتكلم عن أحاسيسك يا عمّ (حسن). إنت موافقني على إنه لازم يقولنا على كل حاجة ولّا لا؟ لازم الحقيقة تظهر علشان الكابوس ينزاح.

تردد (حسن) قبل أن يردّ بنبرةٍ أكثر ضعفًا:

- ما هو مش لازم يعني. لو مش عايز يقول...

- مش لازم إيه؟؟؟ إنت ناسي كان بيعمل فيك إيه؟ الزفت ده كان عايز يخلص منك يا (حسن)، ومني أنا كمان. ده غير إنه خلّاه يخسر حب حياته. هو إنت هتفضل خايف كده لغاية إمتى؟؟؟

كان هتاف (طه) ثم أضاف بلهجة أكثر قسوة:

- بقولكوا إيه.. إنتو بتضيعوا وقتي وهتضيّعوا (عبد الله) مننا. مُا تردا!! أنا بكلمك.

أين كنت أنا؟

لماذا لم أشترك في هذا الحوار؟

لم أكن مُصغيًا لهما فقد كان لديّ ما يشغلني عنه. ألمحه كلما نظرت للأمام لكن عندما التفتُّ بسرعة لأنظر للأريكة عن يساري لا أرى أحدًا. هذا وقد بدأ النَّفَس الذي يهبُّ على أذني اليسرى يأخذ شكل كلمات.

هناك شخص بوجه مقلوب يجلس بجواري منكبًا على أذني يهمس فيها لكني لا أراه إلا بطرف عيني.

كدت أن أفقد عقلي وقد بلغ مني الإعياء مبلغه إلى أن صرخت في (طه) أن يتوقف. جفل الأخير لكنه انصاع وأبطأ سرعة السيارة ليقف على جانب الطريق. لم أنتظر حتى يقف تمامًا وفتحت باب السيارة لأقفز خارجها. وقعت أرضًا بفعل القصور الذاتي وأصبت بجروح سطحية لم أعبأ بها. ثم نهضت واتخذت وضع الركوع في محاولة مني لالتقاط أنفاسي.

بعد أن توقفت السيارة تمامًا نزل صديقاي منها وأسرعا إليّ.

- إيه اللي عملته ده؟ مالك يا بني؟؟

كان صياح (طه) الذي بدأ يربّت على ظهري محاولًا طمأنتي بينما وقف (حسن) مشلول الحركة.

انتظرت حتى استعدت أنفاسي ثم اعتدلت واضعًا يديّ في جنبيّ قائلًا:

- (طه)، (حسن)، اوعدوني إني لو قلتلكم هتسامحوني. أنا عملت كارثة وأنا صغير. واللي أنا فيه ده غضب ربنا عليّا.

***

وقفنا على جانب الطريق الدائري وبدأت في حكي ما حدث.

- لمّا إنت فتحت باب الشقة يا (طه)، والأهالي دخلوا، هو قالّي حاجة.

أخذت نَفَسًا عميقًا ثم اعترفت بما كنت أكتمه في صدري لعقود:

- قالّي إنه هيعرف يخلّي أبويا يندم، وهيخلّيني أكسب (رزق). متسألنيش إزاي بس هو كان عارف إني على طول بتهزم منه ووعدني إنه هيقولّي سر يخليني أفوز في أي منافسة. لكن كان فيه تلات شروط. الأول إني أقول إنه كان بيهزر مع (مروان) وأخلّيه يقعد معانا.

تبادل (حسن) و(طه) النظرات قبل أن يقول الأخير مخاطبًا إياي:

- استنّى يا (حسن). أنا كنت متأكد من كده. طيب والتاني؟

- إنى ماليش دعوة باللي بيعمله في الأوضة.

- والتالت؟

كان سؤال (حسن) فنظرت لأعينهما مباشرة مجيبًا:

- إنه يفضل معايا لغاية ما يمشي هو من نفسه. وده اتفاق مينفعش نرجع فيه.

تبادلا النظرات لوهلةٍ ثم أخذ (طه) نَفَسًا عميقًا، وسألني وهو يستند مثلي على السور الخرساني القصير.

- إيه هو السر ده؟

- اوعدني إنك مش هتسألني تفاصيل أكتر من الضرورية.

- أوعدك قول بقى.

- وإنت كمان يا (حسن).

- أوعدك.

تنهدت وقلت:

- كلمة.

- نعم؟؟

قال (طه) باستنكار.

- هي مش كلمة واحدة الحقيقة هي مجموعة كلمات، كل واحدة فيهم ليها استخدام في موقف معين. قالهم لي في أول يوم ابتديت أتدرب معاه. بهمس بيها للعملات المعدنية اللي كانت في الكيس الجلد. فاكرها؟

- كلمات؟ كلمات إيه وعملات إيه؟؟ جتّت الحديد اللي لقيتهم في شط عجيبة؟

سأل (حسن) مذهولًا ثم هزَّ رأسه نفيًا وقال:

- مش عايز أعرف، ما تقولش. والكلمات دي كمان مش عايز أعرفها.

- ماتخافش مش هقولها. الطقوس دي شر مطلق. ده غير إني مش فاكرهم دلوقتي مش عارف ليه.

تدخل (طه) مستنكرًا:

- إيه الكلام الفاضي ده؟؟

- يعني كل ده مش خارق للطبيعي يا عم (طه)؟

اعتدل الأخير في وقفته وفرد قامته ثم أجابني بنبرة هادئة، في محاولةٍ للسيطرة على

انفعالاته:

- والكلام ده بقى هو السبب اللي خلّاك تكسر زُكْبة (رزق)؟ صدقته لغاية ما حوّلك لوحش ماعندوش رحمة، مش كده؟ وهي اللي قولتها في ودن ابنك وطيّر عين الولد اللي كان بيلاعبه؟

طأطأت رأسي خجلًا:

- أيوة.

قلتها بأسى. هنا ترك (طه) انفعالاته تظهر:

- يااااه. إيه القسوة دي؟ للدرجة دي مش قادر تتقبل فكرة الهزيمة؟ إنت فكرك ده اللي كان عايزه أبوك الله يرحمه؟ ووالدتك؟ كانت هتبقى فرحانة بابنها اللي بقى كائن لازم يكسب بأى تمن. وإنت بغرورك نقلت الشر ده لابنك!!! ده إنت كده أثبتّ لأبوك إن رأيه فيك كان صح وأمك هي اللي غلط.

ثم زاد من حِدّة كلامه:

- فُوق بقى!!! اصحى من اللى إنت فيه ده!! مافيش حاجة اسمها سحر وطقوس وهبل من ده، كل ده مالوش أي أساس. بس واضح إنك صدقته. تقدر تجيبلي دليل مادي ملموس على الكلام ده؟؟

- يعني كل اللي حققته في حياتي ده ومش مصدق؟

- يا سلام؟ وهو ظهر في حياتك بالصدفة علشان يدّيك الأسرار دي ويموّت نفسه بعد كده؟ أنا بقولّك دليل ملموس، مش مواقف ليها ألف تفسير منطقي.

telegram: @alanbyawardmsr

فكرت للحظة أن أعدّد له المواقف والشواهد لكن في النهاية أجبته:

- صدق اللى عايز تصدقه. في حاجات حصلت مش ممكن تتفسّر و(حسن) كان شاهد.

التفتنا إلى (حسن) الذي كان يراقب جدالنا في مشهد تكرر كثيرًا ونحن صغارًا فتلعثم قائلًا:

- هو ف.. فعلًا فيه حاجات ملهاش تفسير يا (طه). ممكن فعلًا يكون الكلام ده حقيقي.

- ممكن إيه؟؟!! إنتو اتجننتوا خلاص؟؟!! تقدر تقولّي زيّ إيه؟؟ إيه الحاجة اللي مالهاش تفسير منطقي. قولّي حاجة واحدة يا (حسن)؟؟

تركت السور الخرساني وابتعدت عنهما فتنهد وقال:

- خلاص خلاص، تعالى، سيبك من اللى فات. خلّينا في دلوقتي. هتعمل إيه؟

استدرت صائحا:

- إنت اللي بتسألني؟؟؟ الوقت بيسرقنا و(عبد الله) بيضيع مني!! أنا بنهار يا (طه)!! بقالي يومين منمتش وبشوف وبسمع حاجات مرعبة. وقريب قوي يا (عبد الله) هيروح منّي يا أنا اللي هتجنّن فعلًا وأريّح الدنيا مني. أنا مستعد أتنازل عن كل اللي عندي واخلص من الكابوس ده.

- كل اللي عندك إيه بس؟ اللي عندك ده مبني على ظلم لبني آدم انتهت حياته قبل ما تبتدي. (رزق) انتهى بسبب اللي انت عملته فيه وكل اللي إنت فيه ده بسبب الشيطان اللي دخّلته حياتك. ده غير (مروان) اللي قضيت على شخصيته وهو صغير. تخيل كده شعوره إيه وهو شايف اللي أذاه وسبّبله عقدة حر طليق.

تأملت وجهه الدائري الصادق وتمنيت للحظة لو لديّ بوصلة أخلاقية مثله، ساعتها لاختلف كل شيء.

تبادل (طه) مع (حسن) نظرة سريعة ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال وهو يتجه للسيارة:

- مافيش غير حل واحد. لازم نرجع لأصل المشكلة.

- هنروح فين؟

سألت (طه) بصوتٍ مُنهكٍ وأنا أعلم إجابة سؤالي.

- إنت عارف أصل المشكلة فين، مش كده؟

أغلقت عيني كمدًا وأجبته بصوتٍ مليءٍ بالحسرة:

- عارف.

الفصل الأخير

أصابع يدي الست

(1)

في مرسي مطروح...

وقفنا في تلك المساحة الرملية التي تفصل عمارتي عن سور المعهد وتذكرت البدوي الفلثم حارس البشعة الذي ظل يراقبنا لأيام. تُرى، ما كان سبب مراقبته لنا؟ ولماذا اختفى بعد فوزي بالكأس؟ نفضت تلك الأسئلة فبالتأكيد لن أجد لها إجابة بعدها بعقود، وطفقت أتأمل تلك اللوحة الكئيبة من البنايات الصفراء المتهالكة بأسوار شرفاتها المعدنية الصدئة وستائر نوافذها الباهتة. تمنيت لو انسابت إلى مُخيلتي ذكريات سعيدة للوقت الذي قضيناه في هذا المكان، لكن يأتي وجه (مراد) والمواقف الكابوسية التي مررنا بها لتفسد اللحظة تمامًا.

لم يعُد ذكر اسمه يسبب لي قلقًا، بل غضبا. والغضب من أقوى أعداء الخوف.

- يعني الفرو ده كان بيستخدمه في الطقوس بتاعته؟

سألني (طه) وهو ينظر إلى النافذة التي تدلّى منها الفرو الرمادي منذ ما يزيد على ربع القرن. أومأت رأسي بالإيجاب فنظر للصُرّة الجلدية التي جلبتها معي من القاهرة لكنه لم يعلق، بل أخذ نَفَسًا عميقًا وتحرك باتجاه عمارتي قائلًا:

- طيب يلّا بينا.

تسمّر (حسن) أمام المدخل المظلم فربّت (طه) على كتفه مشجعًا، لينتفض مذعورًا قبل أن يرسم ابتسامة مهزوزة ويهز رأسه ليؤكد لنا أنه بخير. بخطوات مثقلة صعدنا السلالم القديمة وتحسسنا الجدران المتشققة شاعرين أننا دخلنا لتوّنا قلب عجوز أنهكته السنين، قلب نشعر بقبضاته تسحق أرواحنا. وقفنا بباب شقتي لا نسمع سوى صوت أنفاسنا وقلق الرياح بالخارج ولوهلة شعر كلٌ منا بهذا التوتر يتسلل إليه وينتقل لرفقائه. أعطاني (طه) نصف ابتسامة قبل أن يهز رأسه مشجعًا.

استقبلتنا رائحة الأتربة والشوائب العالقة التي رقصت بجنون حين دلفنا الشقة. لوحةٌ مقبضة لحياة أقنعت نفسي بعدم حدوثها، حياةٌ دُفنت تحت الغبار، رماد هامد غطى كل شيء فيها ولم يبقَ منها سوى قشور لحشراتٍ نافقةٍ وبقايا قوارض. فتح (طه) صندوق الفيوزات ليعيد تشغيل التيار الكهربائي وما إن فعل حتى اتجه (حسن) للمطبخ. في محاولةٍ لتخفيف وطأة الموقف علق (طه) أنه قد راهن نفسه أن هذه ستكون وجهة (حسن) الأولى. ابتسمت مجاملًا ثم ذهبت بدوري للشرفة فما كان من (طه) إلا أن أطلق تعليقًا مشابهًا عليّ.

فتحت الشيش ذا المقبض الصَدِئ واستقبلت رياح البحر القوية لأملأ صدري برائحة

الشاطئ. فليقُل (طه) ما يشاء فهذه البقعة هي عريني الخاص، بها استذكرت دروسي وبها مارست الرياضة ومنها... (نظرت إلى فناء المعهد الذي كان صورة باهتة من شبابه ثم إلي شجرة التوت الضخمة التي انحنت ووهن عودها) ومنها رأيته أول مرة. التفتُّ إلى صديقيّ وعضضت شفتي ندمًا على ما فعلته بهما، فالتفرقة التي حدثت لنا كنت أنا سببها، ويا ليتها كانت التفرقة فقط.

فيمكنني بكل ثقة أن أقول إن حياة كُلٍّ منهما كانت ستكون أفضل مائة مرة من دوني.

- اتصل اتطمن على ابنك.

حدقت في وجه (طه) للحظةٍ فهزَّ رأسه مؤكدًا ما قال. قمت بمكالمة سريعة لـ (رقية) فقالت إن (عبد الله) حالته استقرت مرة أخرى لكنها لم تتحسن والوقت ليس في صالحنا. تقهقرت بعدها تاركًا الشرفة وقد نجحت تلك المكالمة في محو أي أمل في تهدئة أعصابي. أغلقت الشيش ورائي والتفتُّ إلى (طه):

- خلّتني ليه بس أكلمها؟

- إحنا هنا علشان نفهم إيه اللي حصل زمان، بس لازم تعرف أولوياتك. لازم تعرف إحنا هنا ليه.

ابتسمت له متفهمًا فأومأ برأسه لي في وقار ثم نهض متجهًا لغرفته التي يشاركها دومًا مع (حسن). اتجهت بدوري إلى حجرتي لأضع فيها حقيبتي الصغيرة بينما ظل الأخير يتعبّد بجوار أنبوبة البوتاجاز كي تجود عليه بالقليل من الوقود.

بعد تنظيف سريعٍ لأقل مساحة سوف نستغلها خلال إقامتنا القصيرة خرجت من غرفتي ونظرت للغرفة الثالثة: غرفة (مراد).

- مش عايز تفتحها؟

قالها (حسن) وهو يضع طبَق الفول الساخن على مائدة الطعام قبل أن يجلس أمامه مباشرة.

- مش الصبح يكون أحسن؟ كان ردّي وأنا أجلس بدوري.

- أنا رأيي إننا نفتحها دلوقتي ونخلّص.

كان هذا الاقتراح صادرًا من (طه) الذي خرج من الحمّام وجلس معنا.

- منّك تفتكر اللي حصل بالظبط ومنّك تطفّن. فاكر آخر ليلة لـ (مراد) هنا؟

- فاكر. بس هي فاضية دلوقتي. هيجي منين القلق؟ كان ردي على سؤال (طه).

- قول لنفسك.

قالها (طه) وهو يمدُّ يده لأرغفة العيش دون أن يحيد ببصره عني.

حقًّا، لِمَ هذا القلق؟ هل أتصور أن (مرادًا) بالداخل؟ أم هو في القاهرة يحوم حول ابني؟

التفتُّ خلفي في حركةٍ مباغتةٍ انذعر بسببها (حسن) وهتف:

- فيه إيه يا بُني؟ إنت رئيتلي الخفيف بحركاتك دي.

لم أُجبه لأني في تلك اللحظة كنت أسمع من يهمس في أذني.

نجحت بصعوبة في أن أكبح جماح رغبتي في الالتفاف ثلاثمائة وستين درجة لأمسح محيطي، فأنا كنت أعلم أني لن أرى شيئًا.

- مفيش. أنا هنام تصبحوا على خير.

لا أدري لِمَ تصورت أن تلك الليلة ربما تمرُّ بسلام. أي حمق هذا؟

أي حمق بعد أن سمعته يهمس بمنتهى الوضوح:

"بقيت راجل؟... ولا لسّه؟".

***

في عمق الليل، ربما الثانية صباحًا، نفس التوقيت الذي اعتادت فيه قططي أن تأتي لتراقبني، رأيت ضوءًا من أسفل الباب بعد أن أنار شخص ما الصالة. لم أدرِ كيف أصبحت بهذا النشاط فجأة، كأني لم أكن أغطُّ في سُباتٍ عميقٍ قبلها بثوانٍ وذلك بعد أن رأف بي صوت الهمس وتركني لأنعم بفترة قصيرة من الراحة. ثم سمعت خطوات استنتجت معها أن هناك مَن يمشي بالخارج. ما أثار فضولي أن هذا الصوت لا يصدر إلا من شخص حافي القدمين يجرُّ قدميه على الأرض جرًّا.

لا يوجد مفر، لا بُدَّ أن أعرف من هذا، هذه فرصتي، قلت لنفسي قبل أن أنهض من فراشي ثم اقتربت من الباب وانحنيت لأنظر من تحته.

إنه يحرك كراسي السفرة.

لكن... تبًّا... أين هو؟ كيف لا أراه؟ لقد مر صوت الخطوات من أمام الغرفة لتوّه. كان حتمًا عليّ أن أرى قدمه لكن... لا شيء.

ثم استنتجت شيئًا: لا بُدّ وأنه يمشي على السقف.

الصوت خلف أذني اليسرى يهمس ثانيًا.

كان ما يقوله مرعبًا، يتوعّد بأشياء مُريعة سيفعلها بابني.

اللعنة عليك يا (مراد). ماذا تريد؟؟؟؟ ما الذي فعله لك ابني؟؟

مددتُ يدي لأفتح الباب وتسارعت دقات قلبي حتى كادت تعلو على صوت النَفَس.

إنها لعبة الكراسي إياها.

تأملت المشهد أمامي حيث انكفأت كراسي المائدة عليها. تملّكني الغضب من هذا اللعب الصبياني وتقدمت كي أعيد الكراسي لوضعها، ليوقفني صوت أبواب تُغلق بقوة.

تسمّرت مكاني.

بعد وهلةٍ لم أعرف كم طالت نجحت في استجماع شجاعتي ووجدت صوتي:

- مين هنا؟؟؟

نظرت لمصدر الصوت فوجدت باب المرحاض مغلقًا؛ وكذلك باب المطبخ. ثم نظرت خلفي فوجدت بابَيْ غرفتي وغرفة (حسن) و(طه) مغلقين. كأن الموقف قد انعكس تمامًا فالباب الوحيد المفتوح هو ما كان مغلقًا من اللحظة الأولي: باب غرفة (مراد).

وما تلك الآثار التي تقود إليها؟

بدت لي كآثار أقدام شخص متسخة ملوّثة بالسخام، آثار ملأت الحوائط والسقف كأن من تركها كان يرقص عليها قبل أن يتجه إلى غرفة (مراد).

ذهبت لأقف أمام الغرفة التي كانت أقوى مصادر كوابيسي.

خذش ما يؤكد لي أنه بالداخل.

بدأت أشعر بحركة في الغرفة المظلمة التي كنت أقف أمامها. ثم... هذا الصوت.

هناك مَن يعاني صعوبةً في التنفس بالداخل.

وقفت أمام الباب وحدّقت بمحتوى الغرفة قبل أن أسبّ في قرارة نفسي هذا الغبار الذي ظل يتمايل مع إضاءة الشارع. أشعة بيضاء باهتة بها زُرقة كئيبة عبرت من خلال شقوق الشيش وبثّت الحياة في الأتربة العالقة في الهواء لتجعلها أقرب إلى الدخان.

ثم رأيته.

سقط شعاع ضوء على ساق شخص حافي القدمين يرتدي بنطالًا رياضيًا أسود جالسًا على الفراش.

- (م... مراد)؟

توقف صوت النَّفَس المختنق بعد نطقي بهذا الاسم.

رغم أنه كان يجلس في الظلام فإني شعرت به يلتفت إليّ في هدوءٍ مثير.

- مين جوَّه؟؟

صحت بها كي أوقظ صديقيّ.

هو بالتأكيد صاحب تلك الآثار السوداء التي تغطي الأسقف والجدران فهي تقود إلى مكانه، لكني لن أبقي لأتأكد من هُويَّته. كانت اللحظة التي نهض فيها من جلسته ببطء مثير هي اللحظة التي مددت فيها يدي لأغلق الباب عليه. لكن لهولي لم أجد مقبضًا، كأن الباب قد ضُنع من دونه؛ لذا اضطررت أن أجذب الباب نفسه وأغلقه قدر المستطاع. ثم تقهقرت.

رياح قوية هبَّت خلف أذني كأن هناك من ينفث غضبه ودوي هزيم مكتوم في الصالة.

أين (طه)؟ أين (حسن)؟ كيف يتسنَّى لهما النوم في هذه الضوضاء؟

أسرعت إلى غرفتهما لأوقظهما لكن، رغم أن الباب كان موصدًا، لم أجد مقبضًا عليه أيضًا. حاولت دفعه لكنه لم يَستجِب.

توقفت عمَّا أفعل حين لاحظت أن باب غرفة (مراد) يُفتح. استدرت ببطءٍ لأجد على الأرض ظلًا لشخص يقف على أعتاب الغرفة.

يا لهذا الصوت المخيف! إن هذا الشخص حتمًا يعاني خطبًا ما في حلقه أو أحباله الصوتية.

إنه هو. لا شك في هذا.

وهذه الحشرجة سببها ابتلاعه البشعة المشتعلة.

لماذا عاد؟

لماذا سعى للمثول للبشعة؟

لماذا أعطاني كل تلك القوة؟

ما سبب كل هذا؟

ما الذي لا أراه في تلك الصورة؟

شعرت بطوفان أدرينالين يتدفق في عروقي حين وصلت لهذه النقطة. لكن سرعان ما تحولت كل تلك الإثارة إلى فزع حين تقدم هذا الشخص لباب الغرفة.

- (مراد)؟

كررت سؤالي بصوت مرتعش دون أن أقوى على تحريك أي عضلة. فوجئت بأني قد حوصرت في آخر الممر الصغير، أمام غرفة (طه) و(حسن)، بينما ظل ذلك الشخص يتقدم بنفس الإيقاع الأثيري حتى خرج من غرفة (مراد).

لكنه لم يخرج مشيًا على الأرض، بل عبر من أعلى الباب كأن الجاذبية تعمل معه بصورة عكسية. لعنت الضوء الذي لم تسمح له الزاوية التي تسلل بها من النافذة أن يصل إليه، لكنه كان كافيًا كي أراه يسير على يديه وقدميه على السقف حتى خرج إلى الصالة.

التفتُّ بحذرٍ لأدفع باب غرفة (طه) و(حسن) لكنه لم يتخلَّ عن عناده ثم طرقت عليه بخفة لكني لم ألقَ ردًا. ابتلعت ريقي وألصقت ظهري بالحائط واتجهت لأخرج من الممر، ثم إلى باب الشقة.

اللعنة، لا يوجد مقبض له هو الآخر.

إذًا هي الشرفة، لا يوجد حل آخر، هناك كانت لحظة البداية وهناك ستكون النهاية. استحضرت وجه (عبد الله) واستجمعت شجاعتي، لكن قبل أن أنفذ قراري بالذهاب إليها سمعت صوتًا جعل قدمَيّ تتحولان إلى إسمنت:

صوت السلسلة.

إنه جالس على الأريكة في ركن الصالة الأيسر، شعرت به يلتفتُ إليّ، فقد كان لنظراته ثِقَل كأن جبلًا قد جثم فوق روحك. لمحت بطرف عيني خطوط الضوء الأزرق الباهت التي تسللت من فتحات الشيش وسقطت على الجسد الرابض فوق الأريكة المشئومة. ذلك البنطال الرياضي الأسود والأقدام الحافية والصدر العاري. ثم انعكست الأشعّة على السلسلة التي أمسكها لتعطي هالة كئيبة فريدة للمكان.

تماسكت بصعوبة وأخذت نَفَسًا عميقًا قبل أن أقول بصوت متهدِّج:

- إنت عايز إيه يا (مراد)؟ عايز إيه من ابني؟

"قلتلك هاخد الكاس، مصدقتنيش"، جاء صوت الهمس في أذني.

تأجج الغضب بداخلي فتقدمت إليه خطوة.

- (مراد)، ابني لو حصلُه حاجة هاكلك بسناني، هقتلك يا (مراد)، وهتبقى بجد المرة دي.

همس في أذني: "أنا قلت لك واحد بس اللي هيكسب".

صرخت بكل غضبي وخوفي وندمي ثم انقضضتُ عليه كالغوريلّا الثائرة لأجد نفسي وحدي فوق الأريكة، أصارع الهواء.

"همجي!!".

تلفّت في أنحاء الصالة باحثًا عنه لكنني لم أجده.

همس بالكلمة الأخيرة في أذني بنفس النبرة الغاضبة التي كان ينطقها بها أبي حين كان ينهرني ويُعنِّفني عند أقل خطأ. تذكّرت حين انتفض من جلسته فوق الأريكة العملاقة وجذبني من ذراعي مشيرًا لقدميّ الحافيتين المتسختين اللتين لطّختا أرضية الشقة. تذكرت برودة وهو يزجُّ بي في غرفتي ويغلق الباب ليتركني بها لساعات. لم يضربني ولم يؤذني جسديًا، لكنه كان يكسرني.

تذكرت أمي التي كانت تأتي خلسة لتهمس لي من وراء الباب: "معلش يا حبيبي. هتعدّي.. هتعدّي".

لم أبكِ حينها ولن أبكي الآن.

ثم شعرت بحركة أسفل الأريكة.

انتفضت واقفًا قبل أن أتجمّد مكاني حين سمعت صوتًا مألوفًا يقول:

- أنا إيه اللي جابني هنا؟

جحظت عيني من الذهول ونظرت إلى الأريكة التي خرج من تحتها ذلك الصوت المتهدج المذعور.

- (حسن)؟ إنت تحت الكنبة؟

- إيه ده؟ لا! طلّعني من هنا.

قالها بنبرة شخص على وشك الصراخ.

- حاضر، حاضر، استنى.

- طلعني بقولّك!!!!

وها قد صرخ بالفعل لتنفلت أعصابي وانبطحت لأنظر لوجهه الممتلئ المحتقن هلعًا، الذي لا يظهر منه سوى إحدى وجنتيه وعين جاحظة دامية.

أسقط في يدي تمامًا فلو كنت قد فشلت في إخراجه من أسفل الأريكة عندما كان في نصف هذا الحجم بالتأكيد لن أنجح في هذا الآن، وحدي، دون مساعدة...

- إيه يا شوال؟ مش عايز تقعد معايا ليه؟

تراجعت مذعورًا وتجمّد (حسن) مكانه تمامًا حين سمعنا هذا الصوت يأتي من الظلام خلفه.

إنه معه أسفل الأريكة.

للحظةٍ صامتةٍ حدّقت في عين (حسن) التي كادت أن تخرج من مقلتها قبل أن يمدّ ذراعه اللحيمة إليّ ببطء شديد. انتهت اللحظة بصراخه الملتاع وهو يطلب الغوث، بعد أن التفّت سلسلة غليظة حول رقبته وسحبته ليختفي عن ناظريّ في غياهب الأريكة.

(2)

ظللت محدقًا في الأريكة دون أن أقوى على تحريك عضلة. ثم انتبهت على صراخ بعيد مكتوم سمعت بعده خبطة في جانب الأريكة من الداخل. استنتجت أن (حسن) يقاومه. لا بُدَّ أن أنجده. عادت إليّ قدرتي على الحركة وهُرعت للأريكة مُحاولًا تحريكها دون أي جدوى، ولا ملّيمترًا واحدًا.

- مش هتنقذه كده.

التفتُّ مذعورًا لأجد (طه) يخرج إلى الممر الصغير فصرخت به كي يساعدني، قبل أن ألاحظ أنه يتكئ على الحائط متألمًا بينما تغطي الكدمات والجروح وجهه وجسده.

- مين اللي عمل فيك كده؟ لو (مراد) جوّه هقتله!!

صرخت ثم هُرعت إلى غرفة (مراد) بكل ثورتي وخوفي، لكن (طه) أوقفني بإشارةٍ صارمةٍ بينما احتفظ وجهه بتعبيرٍ عجيبٍ شعرت أنه يخفي خلفه مشاعر متأججة.

- إوعك تدخل. إحنا كنا فاهمين كل حاجة غلط.

التفتُّ إليه وكل جسدي ينتفض من الإثارة.

- ليه؟ فيه إيه جوّه؟

- لا أنا ولا إنت هنعرف نقف قُصاده دلوقتي. لو عايز تنقذ ابنك وتلحق (حسن)، لو عايز تنتصر على (مراد) وترحم حياتك من الدمار، لازم تبتدي من نقطة الصفر، من لحظة ظهوره في حياتك. لازم تعرف اللي حصل ده كله ليه. لازم نعرف جه ليه وعايز إيه.

صممت على قراري واستدرت متجهًا لغرفة (مراد)، لكني توقفت حين جاءني صوت (طه) ضعيفًا:

- لو دخلت الأوضة هيضيع آخر أمل.

سمعت صوتًا مكتومًا يأتي من أسفل الأريكة.

- (حسن) مفيش أوڈامه وقت، اتحرك بسرعة لو عايز تلحقه.

قالها (طه) قبل أن يجلس على الأرض ويستند على الحائط وهو يصارع آلامه. نظر إلى الشرفة ففهمت ما يعنيه. هنا أخذت أسرع قرار في حياتي. هُرعت إلى الشرفة وفتحت الشيش ليطلّ على سور المعهد والفناء من خلفه. لحظتها تذكّرت مشهد (عبد العظيم)

الحارس وهو يداعب ابنه (مروان)، وتذكّرت شعوري لحظتها.

جاء همس (مراد) واضحًا خَلفَ أُذني:

"أيوة، افتكر غيرتك منه".

- إخرااااس!!!

خرجت منّي كالبركان الثائر ثم نظرت إلى يساري حيث شجرة الليمون لأجدها لا تزال تحتضن سور شرفتي في عناق أخير.

"الغضب... هو أرقى أنواع القتل".

تجاهلت كلماته وأمسكت فرعًا بعينه وتسلقته نزولًا كما كنت أفعل في صباي. انكسر تحت وطأة جسدي ووطأة الزمن لأسقط من ارتفاع ثلاثة أمتار فتئِنّ ساقي وتُصدر زكبتي طرقعة عالية. تحاملت على إصابتي وعبرت كالإعصار الأعرج المساحة الرملية إلى سور المعهد قبل أن أدور حوله متجهًا للبوابة.

لكن صراخ (حسن) المكتوم ظل مسموعًا، كأنه يصرخ في رأسي.

"أنا ابني نفسيته اتدمرت"، كان هذا كلام (عبد العظيم) الذي تذكّرته لحظة وقوفي أمام بوابة المعهد القديمة. ثم أضاء أحدهم المصباح المعلق فوق باب غرفة الحارس وأطلّ على وجه فتى أسمر من النافذة.

- مين؟؟

- (مروان) موجود؟

نظر الشاب خلفه وقال:

- حد عايزك يا بويا.

مرت دقيقة طويلة قبل أن يفتح الباب رجل ثلاثيني ممتلئ ودقق النظر في وجهي قبل أن يقول:

- خير يا بيه؟

تأملت وجهه وبحثت فيه عن الطفل المذعور الذي رأيته منذ أكثر من ربع قرن. اقتزب مني هو الآخر واعتصر ذاكرته للحظةٍ قبل أن يقول:

- مين جنابك؟ المعهد قافل.

حمدت الله أنه لم يتذكّرني ثم ترددت لحظة قبل أن أتذكر وجه (حسن) المذعور وابني الذي يرقد بين الحياة والموت في القاهرة. هنا استجمعت شجاعتي تقدمت إليه متحاملًا على ساقي السليمة وقلت:

- (مروان)، أنا عايزك في حكاية قديمة شوية، فاكر حادثة ليك زمان مع واحد اسمه (مراد)؟

تغير لون وجهه بغتةً ليتحول من الأسمر إلى الأبيض ثم إلى الأحمر، قبل أن يلتفت ليصيح في أسرته أن يدخلوا ويغلقوا الباب ويبتعدوا عن النافذة. ثم خطا ناحيتي بعدوانية وقال:

- إنت تعرفه؟

- أنا جاي من طرف صاحب الشقة. هو عايزك... هو عايز يعرف إيه اللي حصل اليوم ده... وليه.

تحول وجهه إلى الأسود وتقدم خطوةً أخرى باتجاهي وهو يصيح:

- بجولّك إنت تعرفه؟؟؟

تهدّج صوتي وأنا أقول:

- يا (مروان) فيه ناس ملهاش ذنب بتدفع تمن اللي حصل اليوم ده، لو سمحت حاول تساعدني. معندناش وقت.

- يا بيه أنا لغاية دلوقتي مش قادر أنسى اللحظة دِيّه!! أنا عديت السبعة وتلاتين سنة ولسه بيجيلي كوابيس من اللي شفته، خلّي اللي يدفع يدفع!!

هنا حدث شيء عجيب.

دوى صوت ضحكة خشنة رنانة بجانب أذني اليسرى ثم أتى رد فعل (مروان) ليزيد من قوة صدمتي، فقد امتقع وجهه تمامًا وهو يسألني:

- بـ.. بتضحك على إيه يا بيه؟

"إزيك يا (مروان)؟"، جاء صوت (مراد) واضحًا في أذني.

تراجع (مروان) مذعورًا:

- إنت... إنت هو؟؟؟

نظرت خلفي لكني لم أرَ أحدًا فقطّبت حاجبيّ وتقدمت إلى (مروان):

- إنت سامع اللي بيضحك وبيتكلم ده؟

"وَلَه يا (مروان)، متخفش، مش هيعضّك"، صدى صوت (مراد) الضاحك.

- لا!! لا!! انا بحلم ولّا إيه؟؟ إيه اللي رجّعك تاني؟؟؟

قالها (مروان) قبل أن يتعثر ويسقط على ظهره. ظل يلوّح بيده أمام وجهه وهو يغمغم بكلام غير مفهوم، فأسرعت إليه بما يسمح به عَرَجِي كي أساعده على النهوض، لكنه زحف على مؤخّرته مبتعدًا عني وهو يصرخ:

- متخلهوش يعضّني، متخلهوش يعضّني!!!

كيف سمع (مروان) صوت (مراد)؟ أليس هو صوتًا في ذهني فقط؟.

جعلني هذا السؤال أتلفّت حولي كالمخبول محاولًا استيعاب ما يحدث. ثم سمعت باب حجرة الحارس يُفتح ورأيت ابنه يُهرع إليه مذعورًا وهو يسأل عما حلّ به. وبما أنني كنت أحتاج إلى مَن يشرح لي قبل أن أشرح لأحد فلم أجد ما أقوله، حتى صدت ضحكة (مراد) مرةً أخرى لينهار (مروان) باكيًا. هنا احتضنه ابنه وأحاطه بذراعيه وهو يصيح في وجهي:

- بتضحك على إيه يا بيه؟؟ عملت إيه في بويا؟؟؟

صرخت بصوتٍ أنهكه التوتر:

- مش أنا اللي بيضحك يا بني آدم!!

"إنت بقى ابن (مروان)؟ يا ترى بتخاف من الكلاب برضه زيّ أبوك؟"، كان سؤال (مراد) من وراء أذني. حدّق الفتى في وجهي مذهولًا قبل أن يقول مخاطبًا إياي:

- هو إنت؟ إنت اللي اتهجّمت على بويا بالكلب الميّت وهو صغير؟؟ يبقى اللي كنت بسمعه من العيال في المنطقة كان صحيح.

- أنا إيه؟؟ (مراد) هو اللي عمل كده، أنا صاحب الشقة!!

صرخت في وجهه لينادي هو بأعلى صوته:

- يامّا!! أمّاااا!! الحقينا يامّا!!

خرجت امرأة عشرينية مذعورة من حجرة الحارس ومن ورائها طفل صغير، بينما خرج أحدهم إلى شرفة عمارة قريبة وهتف (بمروان) يسأله عما يحدث. جاء الرد من عمارة أخرى يقول إن شخصًا ما يتهجّم على الحارس وأسرته، ثم لمحت رجلًا يخرج من بناية ثالثة

مسلحًا بعصا غليظة لأدرك أن وقتي قد نفد.

كانت اللحظة التي رأيت فيها تلك البركة تحت (مروان) واستنتجت أنه قد بال على نفسه كما فعل وهو صغير، هي اللحظة التي أدركت فيها أن الموقف سينفجر في وجهي في أي لحظة. استطاع ابن (مروان) أن يساعد أبيه على النهوض لكنه كان قد انهار تمامًا وهو يصرخ في وجهي:

- عمري ما هسامحك، ربنا يجحمك...

- يا بيه صاحب الشقة هو اللي عمل كده في بويا.

اخترقت أذني عبارة ابن (مروان) الأخيرة لتجعلني أنحني بغتة؛ كي أتفادى شيئًا طائرًا كاد أن يطيح بوجهي قبل أن أتوقف عن الحركة تمامًا.

(3)

وها قد وصلنا إلى نقطة البداية، أجول الآن ببصري في وجوه طلّت عليّ من النوافذ والشرفات في مشهد صامت له دويٌ هادرٌ في صدري. وجوه أعرف بعضها وقد خط الزمن عليها وأسهب، وأخرى يافعة تنضح بالفضول، فمَنْ سمع ليس كمَنْ رأى. ولابد أن ذكرى حادثة المعهد قد أصبحت تراثًا لأهل المنطقة تناقلوها جيلًا بعد جيل.

لا أدري كم مر عليّ من الوقت وأنا أقف كالتمثال أمام (مروان) وابنه أحاول استيعاب ما سمعته. لكنني فشلت بجدارة.

- (مراد)!

استدرت ببطء كالفنوّم مغناطيسيًا لأجد (طه) يتحامل على نفسه ويستند على سور المعهد في طريقه إليّ. نسيت ألم ركبتي وتلفّت حولي باحثًا عن صاحب هذا الاسم الكريه، لكني لم أرَ سوى الجيران وسكان المنطقة وهم يهلّون من كل صوب ليقفوا في حشدٍ صامتٍ مرتاب. الكل ينظر إليّ في شكٍ وتوجُس كأنني أنا المخبول وليس ابن (مروان) الذي اتهم لتوّه صاحب الشقة بالتهجُم على أبيه وهو صغير.

تقهقرت بظهري إلى (طه) حتى أمسكت به، ثم نظرت في عينيه واقتربت من أذنه لأهمس:

- هو فين (مراد)؟

رفع عينيه المنهكتين ليحدّق في وجهي للحظةٍ ثم أغمضهما وهزّ رأسه في أسى، فأمسكت وجهه وضغطت عليه بأصابعي كي يفتح عينيه وهتفت:

- بقولّك فين (مراد)؟؟؟

- هتصدقني؟

- وهصدق مين غيرك؟

أسندته على كتفي وحاولت أن أجعله يجلس لكنه صمم على الوقوف وقال:

- يبقى خلّيك معايا لغاية ما تشوف كل حاجة.

هززت له رأسي موافقًا فأشار إلى الأرض الخاوية التي تفصل عمارتي عن سور المعهد وقال:

- الكلب الميت (مروان) كان دفنه هنا قبل ما إنت ما تطلعه علشان تخوّفه بيه. وقبل ما

تسأل، أيوة مكنش كلب صاحي، كان ميت وشبع موت وشبه متحلل.

قبل أن أعترض بادرني قائلًا:

- افتكر كده، الكلب راح فين لما (مراد) نَطّ من فوق السور؟

أطرقت مفكرًا قبل أن يرفع (طه) يده وهو يئنّ ليشير إلى شرفتي:

- إنت هربت من عيال البدو ونطّيت في البلكونة تاني. الحجارة اللي كانوا بيحدفوها على الشيش كانت مؤجّهة ليك إنت قبل ما تستخبّى وراه.

منعت نفسي بصعوبة أن أصيح في وجهه معترضًا بينما استطرد هو بلا رحمة:

- فاكر لما استجوبوك في صالة شقتك، هل وجهوا سؤال واحد لـ (مراد)؟

كلًا لم يفعلوا، كانت كل الأسئلة موجهة إليّ. هنا لم أستطع أن أبقى ساكتًا.

"إن (مراد) بالفعل يخطو فوق آثار خطواتي.... فوقها تمامًا" ، نعم، أذكر تلك اللحظة لكن هذا لا يعني إننا شخص واحد. أسقط في يدي وسألته بصوتٍ مُتهدّج:

- إيه اللي يخلّيني أعمل كده في طفل عنده خمس سنين؟

مسح (طه) الدماء التي تسيل من جرح في جانب رقبته وحدّق في وجهي للحظةٍ قبل أن يقول:

- افتكر أهم لحظة في حياتك، اللحظة اللي فضلت مسجون فيها لغاية دلوقت.

أغمضت عينيّ بقوة وشهقت من قسوة هجوم ذاكرتي وقد تجلى مشهد (مروان) وأبيه في مُخيلتي، ثم مشهد لي وأنا أتوسّل لأبي كي يأتي للبطولة. تدافعت المشاعر وصرخت "أكُلُّ منها في وجهي كأشباح غاضبة. نعم أذكر. أذكر غيرة وكرهًا وعنادًا، أذكر كبرًا ونارًا ورمادًا. فتحت عينيّ لأحدق بوجه (طه) وفتحت فمي لكني لم أنطق. لم أجد ما أدافع به عن نفسي فحوّلت بصري إلى الجمع المحتشد حولي، يراقبوني كأنني أعجوبة حية.

لماذا يشيرون إلى يدي؟

هنا جال بخاطري نقطة مهمة فأسرعت بانتزاع القفّاز عن يدي اليسرى، وما إن فعلت حتى سقط قلبي بين ضلوعي. فما رأيته لم يكن كفًّا بأصابع سِتٌ كما كنت أتوهّم طيلة ثلاثين عامًا، بل بخمس، كفًّا عادية تمامًا كنت أداري آثار حروقها بقفاز. بادرني (طه) قائلًا:

- لو ركزت شوية هتلاقي نفس اللي حصل في استجواب الشقة حصل في ليلة "البشعة".

كل كلامهم كان موجه ليك وإنت واقف في نُص الخيمة.

صمت للحظة قبل أن يردف:

- إنت اللي مسكت البشعة المولّعة وحاولت تبلعها لولا إن حارس البشعة كان جنبك.

ثم وضع كفّه الدامية على كتفي وقال:

- قبل ما تعترض تاني، تقدر تقولّي إنت اسمك إيه؟

خرجت مني ضحكة عالية أثارت قلق من حولي قبل أن ألتفت إلى (طه) الذي كان مبتسمًا في ثبات جعلني أهتز.

- سؤال سخيف. أنا... أنا اسمي...

مهلًا، أنا... اللعنة.

ما الذي يعنيه هذا؟ لماذا لا أتذكر اسمي؟

- رايح فين يا (طه)؟

سألته بعد أن تركني واستدار عائدًا لعمارتي متحاملًا على جراحه وقال:

- تعالَ.

جُلت بعيني في وجوه الحشد الصامت الكبير قبل أن أذهب خلف صديق عمري، لدينا نفس العرَج لكن الجراح مختلفة. نظريته هذه ساذَجة للغاية، لقد كان (مراد) شخصية حقيقية تتفاعل مع الجميع وليس معي فقط، وهو أولهم.

يقول (طه) إن هذا لم يحدث وأنه لم يتفاعل أحد مع (مراد) مباشرةً. حسنًا، دعنا نرى ما الذي سيريني إيّاه في شقتي ليقنعني بما يقول. تجاهلت الحشد الذي تبعنا في صمت جنائزي وصعد وراءنا حتى أصبحنا في الشقة، والآن ما المعجزة التي ستُقنعني أنني و(مراد) شخص واحد؟

انتظر!! الصُّرّة الجلدية!! إنها أكبر دليل على صحة كلامي.

هُرعت إلى غرفتي وأتيت بالصرة لأفرغ محتواها أمام (طه).

- بُص. دي قطع معدنية عليها نقوش لها قدرات خاصة. كانت وجوه بتغير اتجاهها علشان تفضل دايمًا عكس الجهة التي بتبصلها. امسكها، شوف بنفسك.

لحظة، ما هذا؟؟

طار شيئًا فوق رأسي لكني تجاهلته وأنا أحدّق في محتوى الكيس ذاهلًا.

أين ذهبت القطع؟؟

أهذه أغطية زجاجات مياه غازية؟؟

رفعت عيني لأجد (طه) ينظر إليّ بعيون ملآنة شفقةً ولوعة.

- (طه)!! هو أنا كنت طول السنين دي بمارس طقوس بِغَطيان حاجة ساقعة مصدّية؟

" *بيقولوا الكلاب بتختفي من المنطقة، بيقولوا في حد بيموّتهم*"، يا إلهي، أكان ذلك من صنع يدي؟ أكنت أقتلها من أجل طقوس وهمية؟؟

وكأنه شعر بما يجول في خاطري قال (طه):

- إنت كل حاجة كنت شايفها زي ما هو عايزك تشوفها. ولو راجعت شريط حياتك هتلاقي كل موقف ليه زاويتين. فاكر المرايا؟

أذهب بمخيلتي إلى مكتبي لأرى على بابه لافتة مكتوب عليها "مراد بسيوني - رئيس مجلس الإدارة"، ثم أدخل لأجدني مع الحاج (سليمان) أمضي العقد. أقترب لأجد إمضاءً باسم "مراد بسيوني" في ذيل العقد. "مبروك يا (مراد) بيه"، هكذا قالت لي السكرتيرة وهي تلتقط لنا صورة فوتوغرافية.

مشاهد أخرى تلتها كان الجميع ينادونني فيها بذلك الاسم الكريه.

كاد عقلي أن يُسلم نفسه للجنون وبدأت أسئلة قاسية تنهال عليّ بلا رحمة.

أصدقت الوهم فعلًا حتى صرت وحشًا؟

هل أنا من كان يقهر (حسن) وحاول التخلص منه؟

و(طه) و(زُقيّة)، أكنت أنا من طردهم من حياتي؟

مهلًا...

هل... هل همست في أذن ابني أن يصوّب الكرة إلى عين خَصمه؟

هل كسرت ركبة (رزق) عمدًا؟

و(مروان)...؟

كل هذا... من صنع يدي؟؟

ما كل هذا الغضب الذي كنت أشعر به؟

تركني (طه) وذهب ليقف بصعوبة أمام غرفة (مراد) وبدأ يشرح:

- مُخّك يا صاحب عمري مؤلّف أفلام جبار، خلقلك سيناريو الطقوس والتدريبات السرية، وحتى قصة البشعة نفسها علشان يهيئك للماتش واللي هتعمله في (رزق). فصلك تمامًا عن حياتك قبل موقف البشعة ومنعك من ملاحظة أي حاجة غريبة. لغاية اللي حصل لابنك ما خلّاك تِفوق. وطبعًا كان حكاية الاسم دي أسهل حاجة بما أن اسمك الحقيقي (مراد)، الاسم والهويّة اللي هو سرقهم منك.

حوّلت عيني إلى الباب وتذكّرت لحظة بعينها. أذكر أنني كنت جالسًا على الأرض أمامه أضربه بكل غضب و...

أخنق نفسي بيديّ هاتين.

نعم، كما فعلت لتوّي قبل أن ينقضّ عليّ (طه)، رغم جراحه؛ ليمنعني.

قاومته بكل قوتي وقد أثقلته جراحه حتى نجحت في فتح باب غرفة أبوي. وما رأيته كان صاعقًا.

لم أر أمامي الفراش عاري الألواح ولا حتى بقايا أفاعيل (مراد)، بل لوحة سوداء من السخام والرماد. ما رأيته أمامي كان غرفة محترقة عن أخرها.

هنا حارت قواي لأنهار على ركبتي ذاهلًا. انحني (طه) عليّ مرة أخرى رغم أوجاعه كي يعينني على النهوض. لكنني نفضت ذراعه هادرًا:

- سيبني يا (طه)!!! أنا اللي خدعت نفسي... خلقت وحش وغذّيته لغاية ما بقى أقوى مني!! لغاية ما التهمني والتهم حياتي كلها!!

- (مراد)!

التفتُّ لباب الشقة.

أعرف تلك الوجوه، (رقية) وشبيه "محمود المليجي".

وتلك العجوز طويلة الوجه ذات النظارة الطبية المربعة التي توقفت المصانع عن إنتاجها منذ زمن، والتي نادتني وهي تخترق الصفوف المحتشدة أمام باب شقتي بجسدها الضئيل الواهن.

أرتمي في حضنها وأصرخ منهارًا.

نعم، احتويني يا دكتورة (تهاني)، احميني من عيونهم... أنا مسخ... مسخ!!!

(4)

أذكر هذه الغرفة. بالرغم من أنني لم أمضِ فيها سوى أسابيع قليلة بعد واقعة البشعة، فإنني أحفظ تفاصيلها جيدًا. لقد كانت الفترة الوحيدة الحقيقية في حياتي، تلك التي أمضيتها في ضيافة دكتورة (تهاني). أذكرها جيدًا لأن ما أعطته إياي من حنان وعناية كان المخزون الذي استندت عليه لسنين طويلة.

لكن هذا الرجل الذي دخل لتوّه ليجلس أمامي نصفه في دائرة النور، من هو؟ كَمْ يشبه "محمود المليجي". وذلك الملف الذي يتصفّحه، أستطيع أن أقرأ عليه أكثر اسم كرهته في حياتي.

"مراد بسيوني".

تجاهلت نظراته الناقبة لأنظر إلى يميني، حيث جلست (رقية) تبتسم لي برقّة لكنها لم تنجح في أن تخفي القلق الواضح في عينيها. ثم إلى يساري حيث يرمقني (حسن) في توتر وهو جالس على الفراش يفرض أظفاره. أما (طه) فأومأ برأسه في وقار مشجعًا إياي، دون أن يغير من الوضع الذي يقف به على طرف دائرة النور.

- مش عارف كنت هعمل إيه من غيركم يا (طه).

- دي كلمة ملهاش معنى، إحنا عمرنا ما كنا هنسيبك. إحنا كلنا اتخدعنا.

أجابني ليجعلني ألتفت إلى (رقية) و(حسن) وهممت أن أقول شيئًا لكن الكلمات احتبست في حلقي.

أمسكت (رقية) بيدي قائلة:

- مالك؟

ابتسمت متهكمًا وأجبتها:

- إنتو بتعملوا إيه هنا؟

تبادلوا النظرات قبل أن تجيبني:

- كنت عايزنا نسيبك في الظروف دي؟

- يا (رقية) أنا مصدر الألم لكل الناس اللي حواليا، حتى ابني. طبقًا كان مفروض تسيبوني، كان مفروض تمسحوني من ذاكرتكم ومن حياتكم كلها.

ثم غالبتْ دموعي قبل أن أستطرد:

- فكّروا كده كان حالكم هيبقي إيه من غيري في حياتكم.

حاول (حسن) الكلام لكنه لم يجد ما يقوله بينما سالت دموع (رقية) في صمت وهي تقول:

- (مراد)...

خرجت مني ضحكة قصيرة.

- تخيّلي، طِلِعت أنا فعلًا (مراد). طول عمري عايز أثبت لأبويا إنه أساء الاختيار لما سابني وراح القاهرة. طلع عنده حق. يعني يروح مع مراته الجديدة ولّا مع ابنه المجنون؟

دخل (طه) في دائرة الضوء وقال بنبرة قوية:

- هو اللي غلطان يا (مراد)، هو اللي أهملك من صغرك واتسبب في ده كله. هو اللي حطّك تحت ضغط ميستحملوش طفل أو شاب في سِنّك ساعتها. الشخصية البشعة التانية دي كانت بتحاول تظهر دايمًا بعد صدامك مع أبوك أو في لحظة ضغط. لغاية ما نجح قبل بطولة الچودو، ساعة ما شفت (مروان) مع أبوه.

رفعت عينيّ الدامعتين إليه لأقول:

- أهوه مات قبل ما يصلّح اللي عمله. مات قبل ما ياخدني في...

لم أستطع إنهاء جملتي فأشحت بوجهي بعيدًا قبل أن ألتفت إليه مرةً أخرى.

- (طه)، عايز أطلب منكم طلب.

أسرع (حسن) قائلًا:

- أي حاجة يا (مراد)، قُول.

أطرقتُ للحظةٍ ثم أقول دون أرفع رأسي:

- ممكن تسامحوني؟

هنا انهارت (رقية) في البكاء ووضع (حسن) كفّه على فمه وهو يغالب دموعه. وقف (طه) يصارع مشاعره قبل أن يتقدم إليّ بوجهه المحتقن من التأثر وهو يقول:

- لازم تسامح نفسك الأول.

قالها ثم فعل ما كنت أخشاه، مدّ ذراعيه ليحتضنّي.

هنا انهرتُ تمامًا. بكيت كما لم أبكِ من قبل. أبكي كي تبرد ناري، لكن نيران الحسرة لا تنطفئ.

ثم انتبهت إلى شيء، إلى نقطة غاية في الأهمية، نقطة أكثر هولًا مما اكتشفت لتوّي. رفعت عيني لأنظر لوجه (طه) لكن قبل أن أنطق باغتني شبيه "محمود المليجي" الذي كان يراقبني بكل تركيز.

- أستاذ (مراد) لو تسمح تركّز معايا.

ثم يحين الوقت لينفد صبري وأصيح من بين دموعي:

- ممكن تقولّي سيادتك مين وإحنا بنعمل إيه هنا؟؟ عايز أروح أتطمّن على ابني.

أغلق الملف ووضعه على الفراش ثم انحنى للأمام قائلًا:

- أستاذ (مراد)، إحنا هنا في الأساس علشان ابنك.

- ماله (عبد الله)؟؟

هتفتُ محاولًا النهوض لكن الأرض مادت بي، فأسرع (حسن) بمساعدتي على الرقود قبل أن يقول شبيه "محمود المليجي":

- إنت واخد أدوية كتير. عايزك تهدّى، (عبد الله) كويس.

ثم ضيّق عينيه الواسعتين مضيفًا:

- يعني إنت مش فاكر لو كان فيه حد حاول يخنقه؟

- يخنقه إيه؟؟؟ واللي كانت في بطنه دي إيه؟

- قلتلك مية مرة مكنش فيه حاجة في بطنه يا (مراد) بيه. آثار الخنق واضحة على رقبة ابنك. المربية اللي اسمها...

نظر في الملف مرةً أخرى ثم أردف:

- اللي اسمها (زينب)، هي اللي قدمت البلاغ.

قطّبت حاجبيّ من دون فهم فاستطرد:

- قولّي، إيه حكاية الكاس اللي اتبدّل؟

قالها ثم فعل ما كنت أخشاه، مدّ ذراعيه ليحتضنّي.

هنا انهرتُ تمامًا. بكيت كما لم أبكِ من قبل. أبكي كي تبرد ناري، لكن نيران الحسرة لا تنطفئ.

ثم انتبهت إلى شيء، إلى نقطة غاية في الأهمية، نقطة أكثر هولًا مما اكتشفت لتوّي. رفعت عيني لأنظر لوجه (طه) لكن قبل أن أنطق باغتني شبيه "محمود المليجي" الذي كان يراقبني بكل تركيز.

- أستاذ (مراد) لو تسمح تركّز معايا.

ثم يحين الوقت لينفد صبري وأصيح من بين دموعي:

- ممكن تقولّي سيادتك مين وإحنا بنعمل إيه هنا؟؟ عايز أروح أتطمّن على ابني.

أغلق الملف ووضعه على الفراش ثم انحنى للأمام قائلًا:

- أستاذ (مراد)، إحنا هنا في الأساس علشان ابنك.

- ماله (عبد الله)؟؟

هتفتُ محاولًا النهوض لكن الأرض مادت بي، فأسرع (حسن) بمساعدتي على الرقود قبل أن يقول شبيه "محمود المليجي":

- إنت واخد أدوية كتير. عايزك تهدى، (عبد الله) كويس.

ثم ضيّق عينيه الواسعتين مضيفًا:

- يعني إنت مش فاكر لو كان فيه حد حاول يخنقه؟

- يخنقه إيه؟؟؟ واللي كانت في بطنه دي إيه؟

- قلتلك مية مرة مكنش فيه حاجة في بطنه يا (مراد) بيه. آثار الخنق واضحة على رقبة ابنك. المربية اللي اسمها...

نظر في الملف مرةً أخرى ثم أردف:

- اللي اسمها (زينب)، هي اللي قدمت البلاغ.

قطّبت حاجبيّ من دون فهم فاستطرد:

- قولّي، إيه حكاية الكاس اللي اتبدّل؟

- كاس إيه؟ إيه علاقة ده باللي حصل لـ (عبد الله)؟

ازدادت عيناه ضيقًا حتى التحم جفناه وقال بمنتهى الذكاء:

- إنت شعرت بالغيرة لما ابنك كسب الكاس، مش كده؟

- أنا ماسمخش بنبرة الاتهام دي!! لو عايز تقول حاجة اتكلم دوغري.

- أومال مين اللي عمل كده في (عبد الله)؟

- بقولّك (رزق) هو اللى عمل كده في ابني!! مش عايز تصدقني ليه؟؟!!

- (رزق) سواق (سليم محمود)؟

- أيوة.

- أستاذ (مراد)، الحاج (سلمان) صاحب المصنع ولا ليه أي علاقة بمرسى مطروح وهو حاول يشرحلك ده كذا مرة بس إنت تجاهلته. وأستاذ (سليم) نفس الشيء. أما (رزق) اللي إنت بتتكلم عنه ده فهو مسافر برّه مصر بقاله عشرين سنين.

حلَّ عليَّ الوجوم وأنا أحاول استيعاب كلامه فاستطرد:

- والجوانتي العجيب اللي كنت لابسه على طول، اللي من غير صوابع. إنت بتحاول تقنعني إن كفّك الشمال كان فيه ست صوابع، فين ذول؟ كل اللي فيها آثار حروق قديمة حاولت تداريها. كل ده أعراض بارانويا يا (مراد).

همَّ بالنهوض فأصيح به:

- أنا مش مجنون!!

- يبقى بتكدب. اختار بينهم.

أخذ نَفَسًا عميقًا قبل أن يقول:

- طيب تقدر تقولّي هربت ليه؟

- هوه إيه اللي هربت؟ أنا رحت مرسي مطروح مش قارّة تانية. ورحت لأن أصحابي أخدوني هناك.

- أصحابك اللي معانا ذول؟

تحول توتري إلى غضب.

- بقولّك إيه يا دكتور، أنا عايز أشوف ابني!!

قابل ثورتي بكل هدوء قائلًا:

- قُلتلّك ألف مرة أنا مش دكتور. عمومًا هنشوف.

نهض واتجه إلى باب الغرفة حيث وقف يتحدث مع أحدهم.

- لو سمحت نسيبه يرتاح.

نطق بها صوت نسائي ضعيف أعرفه جيدًا ليجيب شبيه "محمود المليجي":

- عمومًا الاستجواب خلص يا دكتورة (تهاني). بس هنستنّى تقرير الطبيب النفسي.

- تقرير إيه يا سيادة الرائد؟ هو بعد اللي شفناه في شقته ده محتاجين تقرير؟

هنا أجاب الضابط بأكثر ما سمعته قسوةً في حياتي:

- محتاجين يا دكتورة. ده شروع في قتل.

قطع كلامه عندما أشارت له دكتورة (تهاني) كي يخفض صوته، فرماني بنظرة خاطفة قبل أن يُوليني ظهرَه ويكمل حديثه معها بصوت منخفض.

***

(طه)، لماذا تأخذني إلى غرفة (عبد الله)؟

نعم أرى تلك اليد التي تتحسس رقبته وهو نائم أمامي، ما بها؟

إن... إنها يدي.

لقد كنت أخنق ابني!! أكاد أفقد صوابي!!

أحقًّا أنا هذا الوحش؟ هذا الشيطان؟

كلّا، غد بي إلى الحجرة، لن أحتمل!!

ما الذي فعلته الدنيا بي؟؟؟ من منّا المخطئ يا (طه)؟ أنا أم هي؟

ما هذا الذي طار فوق رأسي وكاد أن يرتطم بوجهي؟

***

ها أنت ذا مرة أخرى، إن الشعر الأبيض يليق بك كثيرًا يا (طه). وأنت يا (حسن) وكذلك

أنتِ يا (رقية). لقد طالت بنا الرحلة حتى وهنت أجسادنا.

أين (تهاني) الآن؟ أين ابني؟ أين مَنْ أحب؟

و... أين أنا؟

كل شيء حولي أبيض، ملائكي، كأني في دنيا الأرواح. حولي أناس في زيٍّ أبيض يرقدون في فراشهم أو يجلسون في كراسي يدفعها آخرون في معاطف بيضاء وتتدلّى من أعناقهم سماعات.

دعكم من كل هذا واجلسوا معي في غرفتي ذات الجدران البيضاء والأرضية اللامعة، أخبروني، هل أبليت جيدًا؟ هل اقتربت من الشفاء؟

أود أن أشكركم، فقد أدركت الآن أشياء كثيرة.

فهمت أنه ظهر في حياتي لحظة أن رأيت حارس المعهد مع ابنه، أعلم أنك حاولت شرح لماذا تلك اللحظة بالذات يا (طه)، لكن عقلي لا يزال يعاني في استيعابها. حاولت أن تصف لي كيف أنها كانت لحظة الانفجار التي صوّرها لي عقلي بهذا الشكل، أما اشتعال الفتيل فكان يحدث ببطء طيلة فترة انتظار بطولة الجمهورية وما قبلها، نتيجة مباشرة لمعاملة أبي لي طيلة العشرين عامًا الأولى من عمري.

أدركت أن غضبي قد فرض سيطرته الكاملة عليّ في النهاية، حتى إنه استحوذ على هويّتي واسمي لنفسه كي يصل بي إلى غايتي مهما كان الثمن. فهمت أنه حاك مؤامرة كاملة في ذهني حول "البشعة" لما ترمز إليه من كذب وخداع حتى قتل الخير بداخلي حين أوحى لي أنه ابتلعها. وقبلها خدعني بطقوس وهمية جعلتني أصدق أنه قادر على تحدّي الواقع. لكنه أخطأ حين عرّض ابني للخطر لأنه أعاد الخير بداخلي للحياة وجعلني أصحو من غفلتي.

أستطيع أن أرى الآن الرسائل التي كان عقلي يبعثها لي في الخفاء حتى لا يطمسها هو لو شعر بها. فكل تفصيلة صغيرة لم تكن عبثًا وكل مشهد له زاويةٌ ثالثة مختلفة عن رؤيتي وإيحاءاته. كل العجائب التي مررتُ بها كان لها مدلولًا نفسيًا للعالم المظلم الذي كان يزدهر في رأسي. أفهم كل هذا وأكثر، وأفهم أيضًا أنه ليس هناك أمل في إصلاح ما فات.

ها هي الملاك ذو الزي الأبيض تأتي إلينا بالغداء. لا بد أن تأكلوا معي فقد كانت رحلتكم طويلة. لكنها أتت بطبق واحد كعادتها. ما لهذه الغبية؟ إنها تكرر نفس الخطأ كل مرة، تمامًا كما كانت (أم شادية) تفعل في الماضي. لا تقلقوا سأناديها لتصلح خطئها وتأتي لكلٍّ منكم بطبق.

لكن...

لماذا تنظر إليّ هكذا يا (طه)؟

أهناك ما تداريه عني يا أصدق مَنْ عرفتُ في حياتي؟

مهلًا، لقد تذكّرت شيئًا، أهم سؤال على الإطلاق:

لقد كنت ترى (مراد) وتتفاعل معه يا (طه)؛ وكذلك أنت يا (حسن)، كيف؟ ألم يكن وهمًا؟

ما هذا الشيء الذي طار في الهواء وكاد أن يصطدم بي؟ إنها ليست المرة الأولى.

تقولون إنه إدراكي يعود إليّ؟ لحظة انقشاع الغمامة؟ هذا شيء لا أفهمه.

لماذا أشَحتَ بعينيك بعيدًا يا (طه)؟ (حسن) ما بك؟ (رقية)، لماذا تبكين؟

لماذا لا تتكلمون؟

"لقد كانت (أم شادية) مُحقّة. عجيب هذا، إن الطعام تقريبًا كما هو. كيف لم ألحظ ذلك؟ كيف لم أنتبه إلى أن الأكل الذي كان ينفد يكفي شخصًا واحدًا" .

تسألونني لماذا انتفضتُ واقفًا؟

لأني تذكّرت عندما كنت أستند إلى السيارة ذات الدفع الرباعي أتحدث معكِ، لكنكِ لم تكوني هناك يا (رقية).

أراني أرفع الأريكة بمساعدة (طه) و(مراد) لنُخرجك يا (حسن)، لكنه لم يكن هناك أحد أسفل منها ولم ترتفع الأريكة عن الأرض في الأساس. لقد كنت وحدي تمامًا.

ثم مشهد آخر لي ليلة أمس وأنا أمسك بالسلسلة، لكن طرفها الآخر لم يكن حول رقبة (حسن)، ولم تكن هناك سلسلة في الأساس، بل كنت أخنق نفسي كما حاول (طه) أن يخبرني أول مرة.

السلسلة الوهمية التي قيّدني بها.

" سيبه!! سيبه بقولّك!!! لو هتاخده هتاخدني معاه!!" ، هكذا كنت أصرخ في الفراغ.

إن رأسي سينفجر.

ما هذا الصمت؟

" قُلتلّك، واحد بس اللي هيكسب في الآخر يا وحش" .

انظروا... هاتين النقطتين اللامعتين التي ظهرتا في ركن الغرفة، خارج دائرة الضوء بالضبط، ألا ترونهما؟ هاتان العينان الجاحظتان؟

ألا ترون تلك الابتسامات المجنونة والوجوه المقلوبة التي تتراقص حولي؟ وجوه كل من قابلتهم في حياتي، من كنت أراهم عكس حقيقتهم.

أرى مشهدًا لي وأنا أحاول فضّ الاشتباك بينك يا (طه) وبين (مراد) بينما كان (حسن) يراقبكما مذعورًا... لكنني كنت وحدي تمامًا. أحيانًا كنت أجادل نفسي وأحيانًا أخرى أتشاجر معها وبين الاثنين أقرض أصابعي.

مشاهد أخرى توالت على ذهني، مواقف كنتم ثلاثتكم معي فيها دون أن يتفاعل معكم أحد، كأنكم... لم تكونوا هناك.

ثم جاءت الصاعقة في صورة الممرّ الذي كانت به أبواب الغرف... لكنه كان به غرفتان فقط. لم يكن هناك وجود لغرفة (طه) و(حسن)، بل حائط مصمت، حائط تقبع خلفه الشرفة.

لاااا. حتى أنتم؟!!

أنتم أصحاب عمري. أنا أعرفكم منذ... نعم، أنا أذكر الآن.

لقد كان (حسن).. كان أول من ظهر ليأخذني بين أحضانه وأنا أصرخ باكيًا لحظة وفاة أمي، اللحظة التي لا أذكر منها سوى أنني فتحت باب غرفتها حين اشتممت رائحة النيران ورأيت الدخان يتسلل من أسفل عقب الباب. بعدها... لا شيء. صندوق خاوي كأن هناك من قام بمسح تلك الذكرى رأفةً بي. لا أذكر سوى (حسن) الذي كان يحتضني ويبكي معي. ثم ظهر (طه) ليجرجرنا بالقوة من أمام الغرفة قبل أن نختنق أو نحترق. ذهب بعدها للشرفة كي ينادي على من ينقذنا.

كلمات كانت ترن في ذهني بدت لي حينها أنها عشوائية وبلا معنى لكني بدأت أفهمها الآن. كلمات تحكي عن العود الذي كانت تشعله أسفل فراشها ومعاملة أبي السيئة لها، فالبخيل لا يفرق في جفائه بين زوج وابن.

هل كنت أنا السبب؟ هل كان بإمكاني إنقاذها؟لا لا يا (طه). لا تجعلوهم يعطوني مخدرًا!! لا تجعلوهم يهتمون بدموعي ورعشة جسدي كله!!

أريد أن أختبر كل هذا... أريد أن أواجهه.

أريد الحقيقة!! مهما كانت.

أريد أن أراك يا (طه)، سندي في الحياة، صوت العقل والضمير، وأنت تفرد قامتك الفارعة وتتقدم لتقف بيني وبين من يخرج من الظلام. دعني أنظر إليك يا (حسن)، يا ضعفي ورحمتي، وأنت تضمُّ قبضتيك بقوة وتنهض لتقف على يمينه. وأنتِ يا (رُقيّة)، أملي في غدًا أفضل، كل ما هو رقيق وجميل في هذا العالم الموحش، دعيني أراكِ وأنتِ تلتفتين إلى الركن المظلم وكل كيانك يرتعش لتقفي على يسار (طه)، تحتمين به، وتحمينني.

أتذكَّر الآن كلمات دكتورة (تهاني): *زي ما كلنا عندنا عقل وفينا خوف وشوق، فينا برضه غضب وعنف. والشعور اللي هتسمعله هو اللي هتدّيله القوة... هو اللي هيسيطر.*

أراك تنحني يا (طه)، رغم العجز الذي أنهكك والجراح التي أدمتك؛ لتمسك سلسلةً غليظةً تربط ساقك بساقَي (حسن) و(رقية) وتمتد إلى الركن المظلم. ثم تعتدل واقفًا في اعتداد قبل أن تجذبها وتبرمها حول ذراعك.

ها هي ابتسامة (مراد) تنمحي للمرَّة الأولى وهو يحدق في عيونكم التي ترمقه في ثبات. لقد حاول التخلص منكم كثيرًا لكنه لم ينجح، والآن أنتم من تجذبونه من رقبته. يمسك طرف السلسلة التي تلتفُّ حول رقبته قبل أن تنتهي في طوق الكلب الرمادي العملاق، الوحش الذي نجح في إخضاعه له وتطويعه لأغراضه.

نحن الآن هنا، ستُّ إرادات مختلفة تتعارك في ذهني المنهك، ست بصمات مختلفة لنفس اليد. كلما كان يسيطر على أحدهم كان ينبت في كفِّه إصبع جديد.

لكنكم تحررتم منه الآن.

أترون معي عينيه التي تسلَّلت من فوق أكتافكم لينظر وراءكم، لعيني أنا؟

أشعرتم بثقته التي اهتزت؟

إنه ينحني، يخضع لكم.

قولوا لابني إنني لن أهرب بعد الآن.

قولوا له إنه هو من يستحق أن أحارب الدنيا كي أصل إليه، وسأجعله فَخُورًا بي.

لقد كنتم ثلاثتكم أفضل ما فيّ.

أما أنت يا (مراد)... أما أنت يا أقبَح ما فيّ... لو رأيتُك مرةً أخرى، سأكون أنا قاتِلَك.

(تمت بحمد الله)